

عودة الى الماضي

بلند الحيدري

دار المتنبي

إهداء ٢٠١٠

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

عودة
الى الماضي

دار المتنبي

باريس : ٤٧٥٩٠٢٦٦ (١)
٤٦٤٠٠٩١٣ (١)

بيروت : ٨٦٠٥٥٣ (١)

بيروت - فردان - بناية شاتيلا - قرب دار الهندسة

الطبعة الاولى
١٩٩٣

عودة الى الماضي

بلند الحيدري

دار المتنبي
باريس - بيروت

إلى كل الأعزاء الذين سبقوني إلى البيت الضيق

بلند

بـايجاز

ان نقول فيهم كلمة حق، فذلك من بعض ما لهم علينا.. بـل أقل مـا لهم علينا.. هؤلاء الكبار الذين لم نفِ حقهم في حياتهم.

«عـودة إلى المـاضي».. تـاريـخ كـان لـه تـاريـخ، وصفحـات أرّخت لصفحات.. وأرقام تتشبث بأرقام ليظل للماضي ما يوقظ حاضـراً، وينهض بحلم نتطلع به إلى الغد ومن خلال أحيـاء سيظلون أحيـاء.. وسنظل بهم أحياء.. فمن لا ذاكرة له لا غد له.

بلند

كاظم حيدر:
أنا مصاب باللوكيميا
يا بلند

كانت قد مضت على آخر لقاء لي بكاظم حيدر، قرابة ستة أعوام، يوم أن التقيته في معرضه الأخير الذي أقيم بلندن عام ١٩٨٤.

عانقته بلهفة، وبكثير من الشوق شد أحدنا على يد الآخر، ثم غارت عيناه بعيداً عني وهو يقول بشيء من الحزن:

ـ لقد خشيت أن لا تأتي لمشاهدة معرضي.. هل تدري يا بلند، لقد كنت الوحيد ممن أعرفهم في لندن، الوحيد الذي لم يزرني في المستشفى في المرة الماضية.

تلك هي المرة الوحيدة التي أسمع فيها كاظم حيدر يعاتب أحداً. سكت على مضض ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وأنا اتهجس كلماتي حرفاً حرفاً قبل أن أرد عليه:

□ **لقد صعب عليّ يا كاظم أن أراك مريضاً وأن أعودك في المستشفى.**

ـ أنا مصاب باللوكيميا يا بلند.. بالمناسبة هل ستكتب عني عندما أموت.. لقد كتبت عن جواد سليم وعن قتيبة الشيخ نوري وأعتقد أنني أستحق ان تكتب عني.

● **سأكتب عن معرضك هذا بالذات، إنه أيجاز رائع لتاريخك الفني، منذ بداياتك الأولى.**

والتفتُّ إلى صديق من الصحفيين كان الى جانبنا ووعدته بأن يكون المقال لصحيفته، ووعده مدير المعرض بأن يزوده بالشرائح الشفافة لأعمال كاظم حيدر.

ولكني لم أكتب عنه.. ولم أف بوعدي له، رغم أنني هممت غير مرة بالكتابة وغير مرة كنت أنكفىء خائباً، وقد اعتراني ألم طاغٍ.. كيف سيكون لي أن أتحدث عن هذه اللوحات الأخيرة من أعماله وهو يحدق من خلالها في مصيره المعتم بجرأة نادرة.. كيف يمكنني أن أتحدث عن نزيف دمائه وهو يغطي أجزاء كثيرة من لوحاته بدم أحمر حيناً وأصفر أحياناً

أخرى، كيف يمكنني أن أتلمسه في تلك الأوردة المبتورة والشرايين المنتفخة كأنابيب الماء، وفي تلك الثريا التي استحالت في صورته «منظر من الذاكرة» الى زهور ملونة وكأنه يحاول بها أن يطرد عن نفسه الخوف كمن يغني في الظلام!!

والموت الذي تعرف إليه في مآسي الآخرين، كما لم يتعرف إليه أي فنان عراقي مثله، والموت الذي كان في أعماله يتشكل في رموز مختلفة، ها هو أمامه وفي داخله بالذات كتلة شائكة تحاول أن ترفضه في انتظار معجزة طبية، أو تحاول أن تتآلف معه كعدو ما من صداقته بدّ.

وبعد يومين أو ثلاثة أيام، التقينا ثانية، أقترح عليّ أن نخرج سوية من المعرض، وعند بوابة القاعة الرئيسية سألته إحدى الزائرات عن معنى هذه الصور والشرايين والأوردة والدماء وعن لوحته «صورة شخصية» بالذات، فرد عليها بلا أبالية ظاهرة وهو يبتسم:

ـ أنا مصاب باللوكيميا وهذه صورتي الشخصية.

تلعثمت الفتاة وهي تكرر: العفو.. العفو أستاذ، ثم تنسحب من أمامه بشيء كثير من إلا ضطراب.

دلفنا من شارع لشارع، ونحن نحمل ليل لندن الثقيل معنا، نحمله كجثة هامدة.. وكان كل منا يداري رغبة الآخر في البحث عن مفتاح لحديث سار، وكنت أحس بخوف من أن يسألني عن رأيي في صوره التي رسمها خلال أيام مرضه وعن مرضه.. لفت نظري الى عمارة انكليزية قديمة كنا نمر بمحاذاتها، وأشاد بجمالها وحسن تصميمها، وتذكر صديقة له كانت تدرس معه في انكلترا يوم أن جاءها طالباً في أوائل الستينات، وكانت تهوى جمع الصور الفوتوغرافية لواجهات الأبنية الانكليزية القديمة، وأنه لا يعرف أي شيء عنها الآن.

وانعطف الحديث بنا إلى بغداد.. وإلى إمرأة ربما لم يحبها وربما لم تحبه هي أيضاً.. وعن أيام رئاسته لجمعية الفنانين العراقيين وما قدم لها من خدمات، وعن فلان وفلان، وعن جواد سليم الذي علّم الفنانين العراقيين الجرأة والمغامرة وفي هذا فضله الكبير على حركة الحداثة الفنية في العراق.. ثم قال شيئاً عن أعمال ضياء العزاوي الجديدة، وعن صداقته لفريش كانكنيان.. إنه صديق رائع.

ـ هل تذكر يا بلند أين التقينا لأول مرة.. عام ١٩٥٦ وكنت معاوناً آنذاك لمدير شركة المنصور؟

● عام ١٩٥٧ على ما أذكر وبمناسبة معرض «نادي المنصور» كانت هناك صورة رسمها الملك فيصل الثاني لجده، وصورة رائعة لفائق حسن باسم «القرية الحمراء» وصورة «الفيضان» لإسماعيل الشيخلي، وكانت صورتك «الحمال» الذي أنخت ظهره بجذع شجرة حقيقي.. كادت الصورة أن ترفض من قبل اللجنة المشرفة على انتخاب الصور لولا حماسة جبرا أبراهيم جبرا وانتصاره لها.. لقد استهجنها الكثيرون ممن أموا المعرض، وأنا كنت

واحداً منهم، وأذكر أنني كتبت عن المعرض آنذاك، وأخذت على لوحتك هذه إلا ستعارة النابية وقلت فيها قلت على ما أذكر، بأن الفنان إذا كان بامكانه أن يرسم جذع الشجرة وأن يوحي به فليس ثمة داعٍ يستوجب أن يخل بتوازنها بمثل هذا التركيب المفتعل ولا أن يخرج على وحدة المادة التي تقومُ عليها اللوحة.. كانت تلك الخشبة التي الصقتها بظهر الحمال أثقل مما يجب ولم تستطع أن تمتزج بمكونات اللوحة، فهي ليست مثل حصى سلفادور دالي أو فليناته التي كان يضيفها الى لوحاته في العشرينات.

ـ كنت أريد أن أوحي بثقلها.. ويومذاك كنت مولعاً بمثل هذه المواد لتكثيف الواقع.

وإذا كان كاظم حيدر قد تجاوز في أعماله الفنية لما بعد الخمسينات هذا المنحى في إضافة المواد الحقيقية الى لوحاته، فقد ظل أميناً لاجتهاداته الخاصة ولنزوعه لكل ما يجترح به خصيصة أسلوبه الأدائي المتمايز بطبيعة مواضيعه المستلفة من واقعه إلا جتماعي وموروثاته الشعبية وأساطيره، والمتأكد بحسه الدرامي العميق، وضربات فرشاته وخشونة سطوح أشكاله، وتجنبه للتفاصيل الزائدة وثرثرتها، ليؤكد بذلك كثافة رموزه القليلة والمفعمة بالدلالات النفسية المرهفة، وبخصوصية توزيعه لإيقاعات أشكاله وحجومه، وضبط تناسبها مع الفراغات المحيطة بها، مستفيداً في ذلك مما أملاه عليه وعيه الدراسي لمقومات الديكور المسرحي وما تتمثل فيه من رموز إيحائية.

ربما كان قريباً من مناخات نخبة من الفنانين التعبيريين، وربما كان قريباً من وعي بيكاسو التشكيلي وفرنسيس بيكون النفسي. ولكنه ظل دوماً نسيجاً لوحده بمأساوية مضامينه الإنسانية وبتخطيه لأي تحديد مدرسي أو منهجي، مع انفتاحه في الوقت ذاته على كل المدارس الفنية المختلفة، فهو إذ يعتز بأكاديميته ويتنادى الى إقامة جمعية لها ـ عام ١٩٦٨ ـ وتبرعه بكتابة بيانها، يرفض حرفية نصوص الأكاديميين، وهو سريالي ولكنه لا يعنى مثلهم بهذيان السرياليين وهلوساتهم، وهو تجريدي ولكنه تجريدي ممتلىء بحساسية عاطفة مرهفة من خلال إشاراته البعيدة وإيماءاتها ومن خلال طبيعة ألوانه، وأنه وحيثما كان على مقربة من هذا التوجه أو ذاك، فقد بقي مناخه النفسي مشدوداً الى اعماله، يواكبها ويفرض عليها أجواءه، وبقي لوعيه بالموت أكثر من دلالة تتوزعها ظواهر بيولوجية ودرامية، وفراغات آهلة بالوحشة والتي هي ليست وحدة الرومانسيين المسطحة، إنها مملوءة بالكرب الذي لا ينفك يطلّ علينا من أية فجوة في لوحاته، إنه يلاحق المترادفات بلا كلل وبحوار متواصل بين الكتل، وضمن مدارات من الإحساس بالغربة والقلق والمأساة الداخلية، حتى لكأنه يعيش خلال لوحاته ضرباً من انعدام التوازن بين نوازعه الذاتية والاجتماعية والفردية، مما يدفع بالمتأمل للوحاته أن يعيش معه وحدة الحالة النفسية لما وراء العناصر الشكلية، وإمكانية تغيرها المستمر، وفي ذلك ما يمده بالمزاوجة بين عدة أزمنة، وبين الوعي واللاوعي، وما يفجر حساسية رسومه الشعرية والأدبية عبر هذا التآخي ما بين الوحدتين البصرية والشعرية، والخروج بهما الى الوحدة الانفعالية المندمجة بالعديد من المشاعر الإنسانية، تؤازره في كل ذلك لمسات فرشاته التي تتجنب النعومة المصقولة، ليبقى للون ما يتشكل به عنصراً أساسياً للتعبير عن القيم الروحية

من خلال مساحاته ودرجة قوته ووضوح تشكيلاته وطريقة بنائيته التي تتجسد بها الأشياء من خلال وعي الإنسان بها وعياً خاصاً.

وكاظم حيدر، كالعديد من الفنانين العراقيين المعاصرين، يكره أن يكرر نفسه في أسلوب معين لفترة طويلة، ولكنه، كبعض من الفنانين العراقيين المعاصرين أيضاً، لا يحاول أن ينتقل من توجه فني الى آخر إلا وقد تأبط دربته الفنية وخصوصية ألوانه التي يظل يسترشد بها للإفصاح عن الموضوعية الجديدة التي وقع إليها في هذه المرحلة أو تلك، إلى جانب خصوصية أشكاله المتميزة بسكونيتها النصبية، باستثناء أعماله الأخيرة بعد عام ١٩٨٢، وأثر مرضه حيث صار للخط دوره الرئيسي في تحديد الأشكال ورفع الإحساس بالحركة القوية المنفعلة التي يتفجر بها كل جزء من أجزاء اللوحة.

لم يكن من بعض هموم هذا الفنان المتميز بأصالته، أن يبحث عن رؤية جمالية خاصة ولا أن يضيف قيماً جمالية جديدة، بقدر ما كان همه ينحصر في التعبير عن ذاتيته بصدق وأصالة وأن يفرد عطاءه بقدرته على الإفصاح عن تلك الضرورات الداخلية لشخصيته، وعن ذاتية طابعه التي لا يمكن أن نتبين جوهرها إلا من خلال التوتر المنبثق من طبيعة موضوعاته.

أيها الراحل الكبير.. أعترف لك، أنت الذي لم تسألني عن رأيي في لوحاتك الأخيرة، أعترف لك بأنني لم أستطع أن أقف أمامها طويلاً، فثمة شيء خفي كان ينفرني منها وما زلت لا أستطيع أن أحدق في الصور التي أمامي لها، فاعذرني إنِ اكتفيت بأن أورد ما قاله بحقها صديقان لنا. قال ضياء العزاوي: «... أن المشهد خال.. أرض تنهض منها أشجار ملعونة وأغصان تأخذ شكل شرايين ملونة بالأحمر والأزرق.. عادت أجزاء الشهيد مرة أخرى وارتفع الكف المقطوع أمام عينك، ولأن الكثير مر أمامك فإنك لم تر كل الأسطر لكن الحياة كقماشة بيضاء قادتك الى البوح بما شاهدت»، وقال شاكر حسن آل سعيد: «.. فما أن أدركه المرض بعد ذلك في عام ١٩٨٢ حتى اتضح أنه بدأ بمرحلة جديدة تتسم بنقل مسألة الحدث والفضاء الى أعماق اللوحة باعتبارها قدره، فلا بد له أن يدافع عن وجوده بواسطتها، وهكذا اجتمعت لديه كل العوامل التي من شأنها أخيراً أن تعيد تنظيم معنى العالم الداخلي بعد أن كانت مسرحاً لتنظيم العالم الخارجي».

* * *

في ساعة متأخرة من تلك الليلة السوداء عانقني بقوة وشد على يدي مودعاً، وأحسست برجفة تهز جسده، أو هكذا خيل إليّ، وقال هامساً:

ـ والآن سأكون لوحدي مع ليل طويل.

لقد مت أكثر من ألف مرة، وحسبك الآن أن لا موت وراء الموت.

١٩٨٦/٢/١٠

في ذكرى جواد سليم

في الثاني والعشرين من هذا الشهر، تكون قـد مرت ست وعشرون سنة على وفـاة الفنان العراقي الكبير جواد سليم والذي قامت على يديه أبرز انعطافة في تاريخ الفن العربي الحديث عبر تنبيهه الى أهمية الفن العربي الإسلامي وغناه، وعبر استلهامه لمعطياته التي يمثلهـا القرنـان الثـاني عشر والثالث عشر الميـلاديان أحسن تمثيـل، وعبر مـا أفاده من مقـوماتـه في المـدرسـة البغـدادية ورسـامها الكبـير يحيى بن محمود الـواسطي المعـروف برسـومه لمقـامات الحـريـري «١٠٥٤ ـ ١١٢٢» والتي أرخ ليوم فراعه منها «بآخر نهار يوم السبت شهر رمضـان سنة اربـع وثلاثين وستمائة حامداً الله تعالى».

وهكذا وبعد مضيٍّ ما نيف على سبعـة قرون عجـاف يستعيد هـذا الفن العربي الإسـلامي حيويته بِرؤية جديدة من خلال ما حمله إليه جواد سليم ورهط ممن ارتضـوه ممثلاً لتـوجههم في استلهـام التراث فـأعلنوا عن قيـام ـ جماعـة بغـداد للفن الحـديث ـ في البيـان الـذي تـلي في معرضهم الأول عام ١٩٥١ وبعد سنة واحدة من تأسيسها وحيث جاء فيـه: «.. نعلن اليوم ميلاد مدرسة جديدة في التصويـر، ستستمد أصـولهاٰ من حضـارة العصر الراهن بمـا تمخضت عنـه من أساليب ومـذاهب في الفن التشكيلي، ومن طـابع الحضـارة الشرقية الفـذ، ولسوف نشيد بذلك ما انهار من صرح فن التصوير في العراق منذ مدرسة يحيى الـواسطي أو مـدرسة الرافدين في القرن الثالث عشر الميـلادي، ولسوف نصـل بذلـك السلسلة التي انقطعت منـذ سقوط بغداد على أيدي المغول، عن بذلها من أجل حضارتنا ومن اجل الحضارة العالمية والتي تتعاون الشعوب لإنمائها».

وكما حاول «محمود مختار ١٨٩١ ـ ١٩٣٤» أن يتلمس في عمله خصوصية تشده الى تراثـه، فزاوج ما بين فنون مصر القديمة وبين ما تعلمه من فنون أوروبا وعلى الأخص المثّـال الفرنسي «رودان»، حاول جواد سليم في البدء أن يجانس بين مواضيعـه وأساليبـه ليبعد نفسـه عن أي تأثير أدائي مسبق لهذا الفنان أو ذاك وأن يختزل ألوانه وخطوطه ويكثف تعبيريتهـا ويشدد عـلى

البقع اللونية المتحاورة مع أشكاله فلا يبقي من «ماتيس ١٨٦٩ ـ ١٩٥٤» غير رهافة ألوانه وحسه الزخرفي، ولا من «بيكاسو ١٨٨١ ـ ١٩٧٣» غير دراميته وبروز انفعاله، ومن «كليه ١٨٧٩ ـ ١٩٤٠» و«ميرو ١٨٩٣» غير نزوعهما العفوي مندمجة بفرادة لوحاته الملأى بكل ما يعزز من انتمائها المحلي والتراثي والأدائي عبر ترصده الواعي لحركات شخوصه وجلساتهم واستخدامه انصاف الأقواس وأرباعها كأشكال متميزة أو الكتل اللونية الى جانب المربعات والمثلثات والدوائر، الى جانب الرموز المحلية والتراثية المتمثلة في الأطواق والقباب والشبابيك وأسيجة الشرفات والنخيل وغيرها. . والمتجاوبة ببساطتها الادائية مع الجو العام للموضوع، وظلت أعماله تتداخل وتتفرع وتشت به الى غير مجال من المجالات من أغلفة الكتب ـ لدواوين الجواهري وحسين مردان وبلند الحيدري ـ الى تصميم الحلى الى الجداريات الفسيفسائية ضمن وحدة شخصية واضحة المعالم وتقنية متميزة، ومحاولة لا تهجع ولا تكل عن مسعاه لإدراك التناقض الضروري الكامن في الرمز الذي يستخدمه في أعماله الإبداعية حيث يكون أحد قطبي الرمز في الدلالة الشيئية، بينما يجد القطب الآخر أبعاده في الدلالات الفكرية التي يحملها إياها، ولذلك تبقى أعماله بصورة عامة تعتمد الصيغ المألوفة للأشكال مع التأكيد على التحريف الجزئي الذي يستوجبه بروز الرمز الذهني، وبما يدل على خصوصيته الذاتية التي يرمي اليها والتي تحقق شموليته الى الحد الذي يبدو فيه جواد سليم وكأنه لا يملك أسلوباً ينتهي الى اعتماده اعتماداً كلياً ويسعى لأن يتطور من خلاله ما دام ثمة حوار يظل قائماً عنده ما بين رهافات إحساسه بالمدركات المحيطة به وعمق إدراكه لما يمكن أن يحملها من معطيات ذهنية وهو ما صار دأباً لغير واحد من الفنانين المحدثين ومن استلهموا أجواءه وحتى أشكاله ورموزه، أو ممن سعوا الى تقليده أو ممن أدركوه في جوهر خصائصه فطوروا في تجاربه وخرجوا عنها الى إضافات مهمة.

وتبقى بغداديات جواد سليم المحطة الكبرى في تاريخه الفني، إذا استثنينا رائعته «نصب الحرية»، وقد استطاع أن يعكس من خلالها الكثير من الأجواء الشعبية في بلده والكثير من عاداته وتقاليده، وبحساسية شعرية مرهفة، وضمن العديد من الدلالات المحلية في الأدوات المستخدمة كالأواني المعدنية والسجاجيد والصناديق القديمة الى جانب النسج الزخرفي المتعاطف معها وبذات الحساسية الدنيوية التي ميزت الفن الإسلامي وخرجت به عن الفن الجنائزي الذي تمثله غالبية الفنون القديمة في العالم، ومتجاوزاً في الوقت ذاته تلك النزعة القصصية التي سيطرت على أعمال الواسطي في رسومه للمقامات وتلك الكثافة الشديدة من الشخوص والأشكال التي لا تترك للفراغ أن يتنفس فيها، فلقد كان للفراغات البيضاء دور رئيسي في أعمال جواد سليم البغدادية، تتحاور مع خطوطه وتدفقها الانسيابي ومع ألوانه الشفافة وتبرز من تأثيراتها وتؤكد على حركات شخوصه، ولقد كان جواد سليم أول من نبه، من فنانينا المحدثين، الى أهمية استخدام الكتابة العفوية في اللوحة كعنصر من عناصر توازنها وكنهج في تطوير الأبعاد الإيمائية في الصورة. .

لقد أدرك فن العرب والمسلمين في أبرز مميزاته وفي أسلوب الرسم «بعين الطائر» و«السقوف المخلوعة» وغير ذلك من المفاهيم الخاصة بهذا الفن. وأدرك أهمية الواسطي الذي

قال عن صورته «الجارية والجمال العشرة» في إحدى رسائله في أوائل الأربعينات بأنها. . . «صورة مجموعة من الجمال، وجمال العراق تعرفها جيداً لا يتعدى لونها لون التراب، ولقد صورها هذا العبقري العظيم كل جمل بلون يتناسب مع اللون الذي بجانبه» فكان الانطباعي الأول، لقد أدرك كل ذلك ولكنه أدرك في الوقت ذاته بأن عليه ان لا يقع في أسرها فسعى الى خصوصيته وتجاوز السرد الروائي الى النزوع التشخيصي والمواءمة ما بين الطابع الزخرفي العربي والنزعة التعبيرية الحديثة.

اما رائعته الكبيرة «نصب الحرية» فسنفرد لها بحثاً آخر فهي أكبر من أن يوجزها مجال ضيق. . وحسبي أن أختم هذه الكلمة العجلى بفقرة من رأي الناقد الألماني أرنولد هوتنكر يقول فيه: «. . . لقد قضى جواد فجأة وعلى شكل كارثة وأن ما خلفه بدد بين بغداد واوروبا والولايات المتحدة، والتمثال الوحيد العظيم الذي نحته للثورة في بغداد لا يكفي بكل ما فيه من روعة لأن يظهر لنا مدى ألوانه ومهارته ودفئه ونفاذه وانسجامه المتزن. . . إن جواد سليم كان اكبر من فنان موهوب. . كان أحد القلة الذين يحكمون بكلا العالمين: «الحديث والشرقي. . لقد استطاع ان يجمع بينهما وأن يحياهما متحدين وأن يخلق منهما معاً نتاجه الخاص الذي يمثل عالماً جديداً للشرق هو عالم الشرق ذاته. . ينبغي ألا ينسى وألا تندثر أعماله فهي إحدى المنائر التي تسطع بنورها فوق الوهاد المظلمة لعشرات السنين المقبلة». .

١٩٨٧/٢/١٠

أثر التراث على فن مختار

إذا كان جواد سليم هو أول من نبه الى أهمية التواصل مع الفن العربي الإسلامي برؤية حديثة، فإن النحات محمود مختار هو الرائد الأول للفن العربي الحديث، وكان السباق في مسعاه لاستلهام فنون مصر القديمة.

إنه واحد من قلّة من طلبة موهوبين ما أن سمعوا بنبأ افتتاح مدرسة للفنون الجميلة في مصر عام ١٩٠٨ حتى هرعوا للانضمام إليها والانتساب الى أحد فروعها، وعلى أيدي هؤلاء الفنانين الأوائل كانت النهضة الفنية الحديثة بعد غفوة للفن طال أمدها لسنوات وسنوات إلا ما شد به الى بعض الصناعات اليدوية والزخارف والنقوش المتناثرة على الأرائك والجدران والأواني النحاسية.

وكان من بين هؤلاء الطلبة وممن بقي لأسمائهم وهجها: راغب عياد ويوسف كامل ومحمد حسن وأحمد صبري، وكان منهم النحات محمود مختار الذي استطاع بما اجترح لأعماله من أصالة وخصوصية أن يفرد نفسه بعطاء متميز وأن يسم تاريخ النحت المصري الحديث بميسمه وأن يمد بأثره إلى غير واحد من النحاتين الذين جاءوا بعده وتواصلوا معه كأنور عبد المولى ومحيي الدين طاهر والسجيني وغيرهم، وأن يظل رغم انقضاء ثلاثة وخمسين عاماً على وفاته، ورغم قصر حياته التي ما امتدت به الى أكثر من ثلاث وأربعين سنة، أن يظل الاسم الأكثر تألقاً في سجل الفن الحديث المصري.

ويوم أن كانت صالونات باريس الأدبية والفنية ومقاهيها الخاصة تضج بالجدل الصاخب عن جدوى الفن في القرن العشرين، ويوم أن كان الفنانون الأوروبيون يسعون جادين تارة وعابثين تارة أخرى الى حمل معاولهم لتحطيم الباستيل الذي أطبق حصاره على الفن لقرون وقرون باسم الرجوع الى الطبيعة واستلهامها أو التماثل معها والتقليد لها.. ويوم أن كان أجوست رودان قد استقرت شهرته وذاع صيته وكبرت به السن، ويوم أن كان بيكاسو قد أنجز صورته «فتيات افنيون» والتي يؤرخ بها البعض بدايات المدرسة التكعيبية، ويوم أن كان

«بوتشيوني» و «مارينتي» و «كارا» يعلنون عن ولادة المدرسة «المستقبلية» ويتحدثون عن مغزى الخطوط التي تعزز الحجوم والحجوم التي «لا تذوب في الضباب التعبيري»، ويوم أن كان الناس لا يزالون يتناقلون سيرة «هنري روسو» وأسلوبه البدائي إثر وفاته عام ١٩١٠، ويوم ان كانت الصحافة الفنية تواصل مناقشاتها لمعرض جماعة «الفارس الأزرق» في ميونيخ عام ١٩١١ والذي أسهم فيه «أوجست ماك ـ ١٨٨٧ ـ ١٩١٤» و «فاسيلي كاندنسكي ١٨٦٦ ـ ١٩٤٤».

في ذلك اليوم.. في يوم ما من عام ١٩١١، أمَّ محمود مختار، هذا القروي البسيط الذي ولد في إحدى قرى «دلتا»، أمَّ باريس ليفتح عينيه وأذنيه على أشياء لم يكن قد سمع بها ولم يسبق أن حدثته عنها مدرسته الصغيرة ولا أساتذته في فرع النحت. هكذا كان شأن محمود مختار الذي ازدحمت في رأسه الأسئلة الكثيرة محاولاً أن يصل من خلال الإجابة الواعية عليها الى النقطة التي يجب أن ينطلق منها في مسيرته الفنية، فليس مهمًا أن تعرف كيف تمسك بالإزميل أو كيف تتقن صنع تماثلك وكيف تضبط مقاساته أو كيف تدرس مساقط النور والظلال عليه أو كيف تفهم فن النصب.. بل وقبل ذلك كله أن تعرف ماذا تريد من كونك فناناً وكيف تجد نفسك فيه بمعنى في الأصالة المتميزة.

ويقدر ما أحس بجهله بفنون أوروبا، قديمها وحديثها ـ وعلى مثل ما أحس به توفيق الحكيم الذي حار بين «الكلاسيك والمودرن فلا أستطيع أن أقول مع الثائرين فليسقط القديم لأن هذا القديم أيضاً جديد علي» ـ بقدر ما حار في الذي يأخذ من هذا الجديد وفي الذي يهمله منه، وبقدر ما أحس بحماقة المتألبين على تراثهم بقدر ما أحس بجهله بتراثه، ومن خلال كل هذه الأسئلة راح يتلمس طريقه، فإذا كانت باريس قد أعدت لهذا القروي مسحاته فعليه أن يدرك كيف يستخدمها في حراثة أرضه الخاصة، وهو ما يؤكده مختار في إحدى رسائله الى محمد حسين هيكل إذ يقول فيها: «الفن قوة قومية وكل القوميات تتطلب من فنها أن يعبر بوضوح عن مميزاتها وخصائصها». ولقد كان هذا التطلع لاستيحاء الفنان لتراثه هدفاً مشتركاً لأدباء وفناني تلك الفترة، يسعى كل منهم الى أن يعزز من أمثولة الآخر في هذا الحيز فيقول طه حسين في معرض تحدثه عن محمود مختار: «في الوقت الذي كان المصريون يثورون على ضفاف النيل ليظفروا باستقلالهم السياسي، يضحون في سبيل ذلك بالأنفس والأموال كان نشاط مختار يؤدي ثمره في باريس على ضفاف السين ويثبت لأوروبا أن النهضة المصرية ليست كلاماً ولا لغواً ولا محاولة من هذه المحاولات التي لا تجدي، وإنما هي حقيقة واقعة تصور شعباً قد استيقظ بعد نوم ونشط بعد فتور ووصل جديده بقديمه».

ولقد لخص مؤلفا موسوعة «تاريخ الحضارات العام» أندريه إيمار وجانين إبويه أهم مميزات الفن المصري القديم «باتجاهين كبيرين: الواقعية والمثالية اللتين على كل فن أن يختار بينهما، فعكسهما معاً وأعطى كلاً منهما نصيبه المتفاوت وفاقاً لغاية عمله»، وهو ما ينعكس لنا عن اعمال مختار فقد اقام أسلوبه على مثل هذه المزاوجة ما بين الواقعية والمثالية وهو ما يصرح به في كلمة له عن الفن فيقول «وعلى ذلك فهناك عملان أصليان في كل الأعمال الفنية، تصوير

حقيقة وتصوير الخيال ولقد حاولوا في أيامنا هذه إيجاد تعارض بين هذين العاملين، إلا أن المنازعات التي قامت بهذا الصدد وان أحدثت الكثير من الجلبة والضوضاء إلا أنها لم تصل الى نتيجة فاصلة. . نحن لا نرغب في تصوير الحقيقة تصويراً كلياً لأننا نقطع باستحالة الوصول إليه، وعلى كل حال فإن العاملين مقضيٌّ عليهما بالاجتماع اليوم كما اجتمعا بالأمس».

ومن خلال هاتين الرؤيتين المتداخلتين والمتعاضلتين حقق مختار غالبية أعماله متميزاً بما كان سمة للفن المصري القديم منذ أكثر من ثلاثين قرناً حتى ليحق فيه قول محمد حسين هيكل في تأبينه إذ أشار الى أن أبا الهول «كان بالنسبة له أول الطريق الذي سار فيه فهو حين كان يذهب الى أسوان ليقطع الجرانيت الذي يقيم منه تمثاله يرى تماثيل أجداده» مؤكداً في كل تمثال من تماثيله على صراحة التزامه بالقواعد التشكيلية المتوارثة عبر تلك المزاوجة الدقيقة ما بين الواقعية والمثالية، وضمن حوار ينساب بلغة تعبيرية هادئة ما بين الرقة والجلال وصفاء العطاء ومحققاً في الوقت ذاته نزعته في التعبير عن واقعه المحلي، وإذا ما جنح الى النحت البارز لمسنا ميله للاستعانة بالتناظر الزخرفي القائم على استخدام العناصر الطبيعية بروح تزيينية، على مثل ما ألفنا ذلك عند الفنان المصري القديم، مرهفة في تعزيز البساطة والاختصار قدر المستطاع، ومن خلال توافق أدائي متدفق يجري مجرى الصفة المفسرة لكلية عمله وإبراز مرماه الرمزي بشكل جليٍّ وواضح؛ وقد ألمح الى ذلك الناقد الفرنسي لويس فوكسل بقوله: «ونستطيع القول بأننا نجد في تماثيل مختار امتداد الفن المصري باتجاهيه الوضعي والديني أو الشعبي والرسمي فهو على ذلك رجل العصر وفي الوقت نفسه سليل فناني الدولة القديمة والدولة الوسطى». وقد سعى مسعاهم في رسم شخوصه في جدارياته بشكل جانبي وبما يطلق عليه بعض مؤرخي الفن المصري القديم اسم «الرسم بالظل».

وكما تسربت إيجابيات الفن المصري الى أعماله تسربت إليها بعض سلبياته المتمثلة بضخامة الكتلة وتقليص مجال الحركة الخارجية وحصرها ضمن الكتلة ذاتها ليرتبط خلود المعنى الرمزي بخلود الكتلة ومقاومتها لأثر الجو المحيط بها، مما أوقعها في طبيعة سكونية لا يخرج عنها إلا في عدد قليل من تماثيله، وإذا كان لمجرى الحركات داخل الكتلة أن ميز أعماله بالتركيز البؤري، فهو ولا شك قد استلب منها لحد ما تلك العلاقة الصميمية ما بين الحركة الخارجية للأطراف والفضاء الملتف حولها والقابلة للامتداد التكراري اللانهائي.

١٩٨٧/٢/١٧

يوسف: الذي علمنا الحب

أمس،

كنـا ندلف أنـا والفنان كـاظم حيدر من شـارع لشارع ونحن نتـأمل البيـوت الإنكليـزيـة المتراصة على جانبي الشوارع، وكان لا ينفكّ يحدثني عن ذكـرياتـه في لندن، وانتصف الليـل وكان لا بد لي أن أتركه يواجه وحدته مع مرضه.

عانقني بقوة وشـد على يـدي مودعـاً وأحسست برجفـة تهز جسـده كله وهو يهمس: الآن سأكون لوحدي مع ليل طويل، وأمهله السرطان لليالٍ طـوال كثر كـان فيها يـرسم رعبه من الموت.. ثم مات كاظم حيدر.

وأمس،

زرت النحات خالد الرحال وهو ملقى على سريره في مستشفى «كرومول»، وكـان كعادتـه مكابراً، يوشك أن يصرخ في وجهي لأني صدقت الآخرين الذين يناصبونه العداء كما يـظن، بأنه مصاب بالسرطان.

ـ هذا كذب.. كذب.. إنها مجرد وعكة صحية طارئة.

والتفت الى زوجتـه التي كان عليهـا أن تؤيد كـلامه، ثم سحب سيجـارة من علبتـه وراح يدخن بشراهة.

ـ لقد سمحوا لي بالتدخين أيضاً.

وعندما تلفتّ مستغـرباً نحـو الطبيب الـذي كان يقف الى جـانب سريره، ابتسم ابتسـامة باهتة كما لو أنه يقول لي: بأن ما بقي من أيامه أقـل بكثير ممـا في علبة سجـائره وعلينـا أن لا نحرمه منها.

عانقته مودعاً، أما هو فقد عانقني على أمل أن نلتقي قريباً في بغداد. . ولم نلتق.

وأمس،

رفع الدكتور محمد رضا مهدي، الأستاذ في جامعة لندن، ورئيس النادي العربي بلندن سابقاً سماعة تلفونه ليودع أحد أصدقائه وداعه الأخير وليطلب إليه أن يحمل تحياته وتمنياته الطيبة لكل أصدقائه، فالوقت لن يتيح له ان يودعهم واحداً واحداً، ومات محمد رضا مهدي، وقيل إنه مات بضرب من ضروب السرطان الذي لم يمهله إلا لعدة أسابيع

وأمس،

وأمس يا يوسف الخال سمعت بخبر وفاتك وهو يرتجف بين شفاه أصدقائنا الذين أحبوك وأكبروك شاعراً وإنساناً ورائد فكر وأخاً ما نال أحداً بكلمة هجر أو أضمر حقداً لأحد.

ورن تلفون الدار مراراً، مرة من صديق لا يريد أن يصدق الخبر رغم أنه كان ينتظره من مدة طويلة، ومرة من صحفي يسعى لإعداد ملف عنك وينتظر مني أن أقول له كلمة حق فيك، ولكن أين لي العقل الذي يسعف اين، ومرة ومرة ومراراً ظل التلفون يدق بإلحاح وظلت الأحاديث عنك تتواصل بمحبة غريبة لرجل كان دائماً يعتز بقدرته الرائعة على أن يظل محباً لكل الناس وحتى لمن أساءوا إليه، وقد كنت واحداً من هؤلاء الناس وكان لي من رحابة صدرك شفاعة ودرس في الخلق المتفاضل على خلق كل الآخرين من أصدقائنا.

يوسف الخال. . أيها الصديق. . أغلقت باب غرفتي، وتكومت أمامي ذكريات كثيرة ورسائل وقصاصات وجرائد وكان بينها مسودة بخط يدك ترد بها عليّ بهدوء وتتجاوز بها تهجمي عليك ونحن نتحاور أمام مذياع إذاعة لبنان عام ١٩٦٩. .

من اين يجب أن ابدأ. .؟

من تلك الرسالة المطبوعة بعناية فائقة والتي بعثت بها اليّ تدعوني فيها لأسهم مع بدر شاكر السياب بندوة حول الشعر تعقدها مجلة «شعر» ببيروت، وكان ذلك في أواسط الخمسينات ويوم كانت «شعر» تسعى لأن تقوم منعطفاً مهماً في تجربة الحداثة الشعرية وقد تآزرت معها نخبة من الشعراء العرب الكبار وفي مقدمتهم «أدونيس»، هل تذكر ذلك يا يوسف. .؟

سافر اليك بدر وعاد فرحاً بلقائك، أما أنا فقد كتبت إليك أسألك بوقاحة عمن سيقوم بتمويل هذه الندوة، وكان في سؤالي ما يستبطن اتهامات بموالاتك للغرب وأدب الغرب وسياسات الغرب، وكبر عليك أن ترد على مثل هذا التساؤل الرخيص وعز علي أنك لم ترد. . فكتبت ضدك وضد مجلة «شعر» وقلت في ذلك الكثير الكثير، حتى إذا ما أدركت نفسي في سوء ظني، اعتذرت لك وشفعت لاعتذاري بقصيدة، سرعان ما أخذت مكانها في المجلة، وسرعان ما غفرت لهذا البغدادي سوء ظنته فقد علمتنا الأحداث نحن العراقيين أن نبدأ من الشك لنصل الى اليقين.

وفي عام ١٩٦٣، كنت في لبنان، وكان «جاليري وان» الذي قمت بإنشائه محطة لالتقاء كبار التشكيليين العرب فيه، كان «جاليري وان» ملتقانا الدائم أنا وأنت وكان لي منه أن أعرفك في صفة أخرى من صفاتك الكثيرة، صفتك في محب الفن وعلى غير عادة أهل الأدب منا.. ومرة أعجبت بلوحة للفنان السوري «لؤي الكيالي» ورغبت في اقتنائها على أن تباع لي بسعر خاص فقلت لي: إما أن تشتريها بسعرها أو أن تقبلها هدية مني، وبقيت تلك اللوحة عندك وبقيت أحلم بأن اقتنيها في يوم ما... إنها لوحة عن قرية «معلولا» التي أغناها الفنان برهافة ألوانه.. ما زلت أذكرها يا يوسف الخال وما زلت أحلم باقتنائها.

والتقينا مراراً في هذه المجلة أو تلك الندوة ونحن نتحدث عن أدب حزيران ومأساتنا في أدب حزيران ووثائقية أدب حزيران وأذكر أنك قلت بحزم لمحاوريك: «لقد اعتدنا على النظرة القديمة فمثلاً عندما يقع حدث في العالم العربي يعتبر الشاعر من واجبه أن يصف الحدث مباشرة وذلك أقرب ما يكون لشعر المناسبات ولذلك يجب أن لا نلوم الشاعر المعاصر إذ لا يكتب في الأحداث مباشرة ولا أن نتخوف من عدم ظهور الشعراء في الأحداث».

واختلفت معك في حينه «فالفن وسيلة تعبير تصير صراخاً وتصير بكاءً وتصير إثارة مرجوة، وكل ذلك يتسع لمدى في المكان ومدى في الزمان، وعلى الشاعر أن يؤكد حضوره وأن يحمل تطلع أمته ولكن عليه أن يعرف كيف يرفع الواقع الى ما يؤكده في الشيء الخالد في النفس الإنسانية ويجعل من التفاصيل اليومية ما يشفع لها في الرمز الذهني».

ومرة أخرى جمعنا حزيران الأدب في ندوة عقدها «اتحاد الطلبة العرب» ببيروت، وتشير قصاصة الجريدة التي أمامي بأنها أقيمت في ١٩٦٩/٣/٣١، وكان السؤال الذي علينا أن نتناظر أنا وأنت فيه هو: ما هو دور الشاعر العربي الحديث في معركة المصير ضد الصهيونية والإمبريالية..؟»

وفي تعليق كتبه الصديق رياض فاخوري عن تلك الندوة في جريدة «الأنوار» البيروتية تحامل علينا نحن الاثنين وختمه بقوله: «وفي النهاية تطرق المتحاوران الى قضايا هامة تتعلق بالشعر وغير الشعر بالثورة وغير الثورة، والمقاومة وغير المقاومة مما أعطى الحوار المفتوح نكهة خاصة اتسمت بالشمول والدينامية.. لكن ما يؤخذ على الشاعرين في هذا الحوار المفتوح، أن بلند الحيدري، تكلم كثيراً ووزع أفكاره كثيراً وثرثر في مواضيع لا تتعلق بقضايا الشعر أما يوسف الخال الذي كنا ننتظر منه أشياء جديدة يقولها عن الشعر والثورة فلم يتمكن أن يرضي في أجوبته حتى أبسط المتحاورين».

وأذكر أنك علقت على كلمة رياض فاخوري آنذاك بقولك: إذا ثرثرنا لن نخلص منهم وإذا لم نثرثر لن نخلص منهم وعلينا منذ الآن أن لا نلبي أية ندوة يا بلند.

وأمس،

هنا في لندن، جمعتنا بك فكرة لصديقنا رياض الريس، وكتاب لصديقنا عبد الله العذري الذي ترجم فيه نخبة من الشعر العربي الحديث وصدر عن دار «بنغوين».

هنا في لندن.. في ٤٢ لامبث كوندويت ستريت.. اجتمعنا، واجتمعنا في غير هذا الشارع أيضاً وسمعنا نزار قباني يحييك أجمل تحية. ورأينا «أدونيس» يعانقك، وكتب الصديق سمير عطا الله في مجلة «المستقبل» متسائلاً: «هل صحيح أن كل هؤلاء هم الآن في المنفى.. هل كان يمكن لمدينة عربية واحدة أن تجمعهم: نزار وأدونيس وبلند الحيدري ويوسف الخال.. جاءوا ليردوا الاعتبار لهذا الملتحي الشمولي القلم - يوسف الخال - الكوني القلب وكأنما كان هناك اتفاق بين الذين أحبوه منذ البداية وبين الذين انتقدوه في البدء، ولذلك كانت مقاعد الحضور لا تقلّ أهمية عن منصة خطباء التكريم، ووسط هذا الزحام الفكري والأدبي كانت تطل وجوه من زمن الشعر في بيروت».

وعانقتك يا يوسف الخال وأحسست بلحيتك تلامس وجهي.. وكان في وجهك الكثير الكثير الذي لا داعي لأن تصرح به.. وعندما قلت لك: بأنني أغبطك على عودتك لبيروت، كلنا نغبطك يا يوسف.. نزار وأدونيس ومحمود درويش وأنا كلنا يا يوسف الخال، سكت ولم تجب بشيء فأدركت وأدركنا بأنك ذاهب الى ما هو أبعد بكثير عن بيروت.

وأمهلك السرطان طويلاً ليمعن في ايلامك يا يوسف الخال.. أنت الذي أبيت أن تؤلم أي واحد.

فسلام على روحك أيها الصديق الكبير.

حوار من عام ١٩٦٩ في الاذاعة اللبنانية

بلند: يوسف الخال صوت ليس جديداً علينا فقد واكب مرحلة من أهم مراحل شعرنا العربي الحديث كان فيها شاعراً له سماته الخاصة وكان دعوة لشعر أراده رائداً يوم أصدر مجلته «شعر» ونشر فيها قصيدته «البئر المهجورة». حببت فيها منذ اكثر من ثماني سنوات هذه البساطة الموحية والبحث عن قضية الشعر في وجوه الآخرين من الناس. يقول في هذه القصيدة:

عرفت ابراهيم، جاري العزيز، من
زمان عرفته بئرا يفيض ماؤها،
وسائر البشر
تمر لا تشرب منها، لا ولا
ترمي بها، ترمي بها حجر.
«لو كان لي ان انشر الجبين
في سارية الضياء من جديد».
يقول ابراهيم في وريقة مخضوبة
بدمه الطليل، «ترى، يحول

الغدير سيره كأن تبرعم الغصون
في الخريف او ينعقد الثمر،
ويطلع النبات في الحجر؟
«لو كان لي،
لو كان ان اموت ان اعيش
من جديد، اتبسط السماء وجهها
فلا تمزق العقبان في الفلاة
قوافل الضحايا؟ اتضحك المعامل
الدخان؟ اتسكت الضوضاء في الحقول،
في الشارع الكبير؟ أيأكل الفقير خبز
يومه بعرق الجبين،
بعرق الجبين لا بدمعة الذليل؟
«لو كان لي أن أنشر الجبين
في سارية الضياء
لو كان لي البقاء،

ترى يعود يولسيس؟
والولد العقوق، والخروف؟
والخاطىء الأصيب بالعمى

ليبصر الطريقا؟
وحين صوب العدو مدفع الردى
واندفع الجنود تحت وابل
من الرصاص والردى،
صيح بهم، «تقهقروا. تقهقروا»
في الملجأ الوراء مأمن من
الرصاص والردى.»
لكن ابراهيم ظل سائراً،
الى الامام سائرا،

وصدره الصغير يملأ المدى.
«تقهقروا. تقهقروا.
في الملجأ الوراء مأمن من
الرصاص والردى..
لكن ابراهيم ظل سائراً
كأنه لم يسمع الصدى.
وقيل انه الجنون.
لعله الجنون
لكنني عرفت جاري العزيز من زمان،
من زمن الصغر،
عرفته بئراً يفيض ماؤها،
وسائر البشر
تمر لا تشرب منها، لا ولا
ترمي بها، ترمي بها حجر.

● بلند: أستاذ يوسف قلت في البدء إنني أحب البساطة طريقاً صادقة تشد القارىء بالشاعر ولكن ألا ترى معي من أن التبسيط أكثر مما يجب يصبح تعقيداً غير مستساغ؟ فالتكرار مثلاً في قولك تمر لا تشرب منها لا ولا ترمي بها. ترمي بها حجر. تكرار يوحي بضعف في البناء لأنه لا يؤكد شيئاً ولا يبدو أنه أكثر من وسيلة لتكملة الوزن.. هذا بجانب «تنطع» باستعمال «ال» مضافة الى الفعل الماضي خروجاً على القاعدة التي جوزت دخولها على المضارع.. إن الصنعة عندما لا يستطيع الفنان أن يخفيها تخلّ ببنيان العمل الفني وهذا ما شعرت به في هذين المكانين من هذه القصيدة.

● يوسف: أستغرب اعتراضك، يا أخي بلند، على هذا التكرار المستحب في «ترمي بها، ترمي بها حجر» وأنت الشاعر الذي عرفناه في شعره مرهف الحس، رقيق الصياغة. هذا التكرار، كما تعرف ليس تكملة للوزن، لأن الوزن في هذا الشطر لا يختلّ بدونه. فكان بإمكاني الاكتفاء بالقول: «تمر» لا تشرب منها لا ولا ترمي بها حجر» إجمل صياغة وإحلى نغماً من عدم تكرار ترمي بها. ثم إنني أود أن ألفت نظرك الى أن التكرار، إذا استعمل في موضعه، إنما هو، عند كبار الشعراء والمغنين، سبيل يلجأون إليه للتأثير على القارىء أو السامع وإدخاله في جو القصيدة او الأغنية.

أما استعمال «ال» وادخالها على الفعل أو الاسم، فليس سوى محاولة للإفادة منها كما في

الكـلام المحكي ـ بغضّ النظر عن كـونها فصيحة، اصيلة، تـدخـل أو لا تـدخـل، كـما هي القاعدة، على الفعل الماضي.

هـذه القصيدة الصغـيرة البسيطة التي قـرأتها عليـك هي أولى المحاولات في الشعـر العربي لخلق شخصية أسطورية حديثة. ويسرني أنك لم تأخذ عليها، من حيث الصياغـة، إلا هذين المأخذين العابرين.

● بلند: ثمة نقطة أخرى.. كـان التساؤل في القصيـدة عنصراً نـاجحاً في إيجاد تعاطف قـوي بين القـارىء والشاعـر ولكني رأيت في كثرة الـرموز المنـتزعة من أسـاطير مختلفـة مثـل يولسيس الخروف.. الخاطيء. الولـد العاق ثم إبـراهيم الذي تحـدد قربـه منك بهـذه الجيرة فكأنه إنسان اليوم، أجل وجدت أنها خلطت بشكل فكك الجو لأن كل كلمـة جاءت مـوحية بجـزء من صورة في ذهن القـارىء.. وأقول بصراحـة إنني رأيت يولسيس مقحـماً إقحاماً في القصيدة وكذلك الولد العاق بينما لو تطورت الرموز من خلال الجـو المحيط بابـراهيم لأوحت بأصالة أبعد تأثيراً.

● يوسف: هذه أيضـاً ملاحـظة تتصل بصيـاغة القصيـدة: تتساءل: لمـاذا كثرة الـرموز؟ وتـرى أن كـثرتهـا هـذه «خلطت بشكـل فكـك جـو القصيـدة» فلو استغنيت عن الإيماء الى يولسيس والولد العقوق لتفاديت في رأيك هذا «الخلط» في الرموز. ولعل ارتياحك الى الإبقاء على رمز الخروف مرده الى أنك تربط بين إبراهيم الخليـل و«الخروف» الـذي ذبحه فـدية عن ولـده إسحق. فإذا كـان الأمر هكـذا، فأنت في خـطأ. «الخروف» هنـا يـرمـز الى «الخـروف الضال» حين فقـده الراعي، فـترك قطيعـه كله وراح يبحث عنه. ولا تنس أن يـولسيس كان ضالاً أيضاً، بعد حرب طروادة، وكذلـك «الابن الشاطـر» الذي تـرك بيت أبيه وتشرد ثم لم يجد بدأ من العودة إليه. فالصلة، كما ترى قائمة بين الرموز الثلاثة، وكونها من أساطير مختلفة يؤكد على وحدة التراث الإنساني.

يسرني أنـك أحببت في هذه القصيـدة، كما قلت، منـذ أكثر من ثـماني سنوات، بسـاطتهـا الموحية وبحثهـا عن قضية الشعـر في وجوه الآخـرين وهذا كله بـالرغم ممـا أخذتـه عليها من هنات في الأسلوب. أرجو ان تظل تحبها، كما أحبها انا، فإبراهيم القصيدة هـو أنت وأنا هـو الإنسـان المعاصر أولاً، بـل الإنسان في كـل زمان ومكـان ـ هذا الـرازح، المغلوب على أمـره البائس، الضال... لكنه الشجاع الذي يؤثر، في آخر الأثر الاستشهـاد في صراعه للحفـاظ على إنسانيته.

١٩٨٧/٣/٢١

ألبير أديب..
كان صديقا رائعا

لم يكن صوته غريباً عليّ عندما حملته إليّ سماعة التلفون، فهو من بعض ما ألفته من دفء بيروت وأيام بيروت، ومن بعض من أكبرنا لبنانَ به ويمثل إخوته في لبنان.

وقبل أن أبادره السؤال عن أحواله وأحوال بيروت ومن نعرف فيها وما جاءت عليه حرائقها من أمور دنياهم، بادرني هو بالعتاب لأنني نسيت صديقنا المرحوم ألبير أديب كما نسيه كل الذين أصفاهم الود وفتح لهم قلبه وصفحات مجلته لتبشر بأدبهم «فلا أنت ولا عمر أبو ريشة ولا البياتي، وحتى أصدقاؤه في لبنان، ما تذكروه بكلمة حق فيه ودوره في الأدب الحديث. . . ويبقى عتبي عليك أكبر من عتبي عليهم جميعاً لأن بعض ما صار لك كان من بعض فضله عليك». . ثم سكت واعتذر عن فورة غضبه، فاعتذرت وتمنى واحدنا للآخر أن يكون لبيروت أن تجمعنا مرة أخرى رغم أن ما بقي من العمر قليل وقد لا يسعف الحظ.

أيها الصديق لك حق العتبي، ولولا رداءة الزمن الصعب وكثرة قتلانا وموتانا واحتراق مدننا العزيزة ما كان لأحدنا أن ينسى أياً منهم ولا أن نعق فلا نفي بحقهم علينا وما أكبره من حق.

وتذكرت ألبير أديب في مئات من الصور العزيزة على نفسي، تذكرته وهو يفتح صدره المنخوب بالدخان ليتلقى عام ١٩٦٩ وسام الأرز في حفلة تكريمية كنت واحداً ممن ألقى فيها قصيدة مهداة له:

أنا بعض حرفك حالما ومعاني
أنا بعض حرفك في اغتراب مكاني
أنا بعض حرفك قد أتاك مخضباً
فاعرف به دمك الزكي القاني

والمس بنازف جرحه متغرباً
بعدت به سبل وظل الداني
عرفته كل موانئ الدنيا خطىً
ضاقت بهن مساربُ وموانِي
حتى التقاك فكنت صحو طريقه
ومنار ما ضاعت من الشطآن

وما زلت أذكره وهو يشدني الى صدره بينما كانت عيناه مغرورقتين بالدموع.

وعادت إليّ صورة غرفته الصغيرة في الطابق الخامس من بناية لا مصعد فيها، غرفته المكتظة بكتبه وأوراقه وذكرياته ومنضدته التي تناثرت عليها ما وصله حديثاً من قصائد وقصص ورسائل، وكبر عليّ عقوقي، وكبر عليّ أن أراه جندياً مجهولاً بلا نصب.. ولكن من أين يجب أن أبدأ حديث الذكريات مع ألبير أديب، هذا الرجل الذي ما أثار إعجابي رجل كالذي إثاره ألبير أديب، ولا عرفت إنساناً على كثرة ما عرفت اجتمعت لديه من الخصال والخلال الحميدة ما أزهدته بالدنيا خشية أن تجره مغرياتها الى ما ينال من عزة نفسه كألبير أديب.

وعلاقتي به تمتد الى ما نيف على أربعين عاماً، ويوم أن كان لنا أن نجتمع ببغداد رهطاً من الشبان على دعاوى التجديد في الشعر فلا نجد من يأخذ بيدنا غير ألبير أديب ومجلته «الأديب»، مكرساً جل صفحاتها لنتاجنا والدفاع عنه حتى رأت في الذي يكتبه عنا وينشره لنا مجلة «الكاتب المصري» ـ رئيس تحريرها طه حسين، ضرباً من ضروب «داء الجار» الذي ألزم ألبير أديب بالانتصار لمثل هذا الشعر.

وما كان لواحد منا أن يغيب عن عدد من أعدادها حتى يبادره برسالة يستحثه فيها على الكتابة ويتساءل عن سبب سكوته ويشحذ حماسته للذي نحن في سبيل تطويعه «إنما لي رجاء يا بلند، فالنوم فناء فإلى الأمام وإلى الإمام دائماً».. قالها لي ولغير واحد منا، وقد طالت مصابرته معنا في طريق الكفاح لإقامة أدب جديد، بحس الأديب المجدد الذي فيه، فهو كما قال الشيخ العلامة عبد الله العلايلي: «وصاحبها هذا الشامخ جاء على نحو أمة وحده، فأول ما يطالعني منه ارتسامات روح هي أولع ما تكون باستكشاف قوانين الحياة ودرسها حرة من كل مصطلح أو عرف في حمى الشباب ونشوته وبطولته ورغبة التجديد الحارة المضطرمة في دمائه».

كانت «الأديب» ومن ثم «الآداب» اللبنانيتان و«الكاتب المصري» و«مجلة علم النفس» المصريتان، زادنا الشهري في البحث عن أنفسنا في الجديد الذي نرغب فيه، وطالما انعقدت لنا صداقات على صفحات مجلته ومن تلك قصة تكرم بإهدائها لي «يوسف الشاروني» عن سنوات الحرب، وقصيدة لي أهديتها إياه، ومن تلك صفحتا بريده الشهرية في المجلة واللتان

كانتا تحملان إلينا أخبار الأدب والأدباء وكل ما يجدّ من جديد في لبنان والعالم العربي والعالم الخارجي، وتساءلنا يومها عما يجمع هذا الرجل إلينا من سبل في الأدب.. قالها بدر السياب وعبد الوهاب البياتي وقالتها نازك الملائكة، ومن خلال ديوانه «لمن» الذي كان فاتحة جيل شعراء القصيدة النثرية، رحنا نبحث عن وجهنا الآخر في المحاولة، وإن كنا نأخذ عليه إهماله للإيقاع الشعري، وظل مع الكثير منا حديثاً طويلاً يتشعب في المقارنة بين ما كان من جديد تلك الأيام على يدي سعيد عقل وعلي طه المهندس وعمر ابو ريشة وما كان من محاولات أخرى نبهت إليها من قبل قصيدة للزهاوي، موزونة وغير مقفاة وما كان للريحاني من قصائد نثرية ومثله لميخائيل نعيمة، ويظل ديوانه «لمن» بين كل ذلك عملاً متميزاً بلغة خاصة وأدائية معينة وتسلسل نفسي في تطوير الحدث الداخلي على غير ما ألفنا عند الآخرين، وهو الى ذلك لا يعاضل في تراكيب جمله ليوحي بالصنعة بل يتركها تبدو وكأنها جاءت عفو الخاطر وولدت دون مخاض عسير، فلا يقدم خبراً على مبتدأ ولا مفعولاً على فاعله، وكنا نقع أحياناً في الظنة غير الخيرة بمكنونه من علوم اللغة لشدة حيطته في تجنب كل غريب من الأبنية التركيبية والتي كثيراً ما كان بعضنا يسعى إليها لرد التهمة بالدلالة، وأكثر ما كان يشدني إليه هو رومانسيته وما يفلسف من عواطفه، فتحمل عمله محمل الرمزيين الساعين مسعاه في تأكيد العلاقة الخفية أو الذاتية أو الفردية بين الصورة وإيحاءاتها وعبر اكتشاف خاص يغاير مفهوم الاستعارة المباشرة أو التشابيه الإيضاحية.

وما كان بالأمس رسائل مختزلة جداً بيننا، صار طريقاً مفتوحة لتوصل ما بين دارينا بعد أن سكنت بيروت في أوائل الستينات وصارت غرفته واحتي التي التقيه فيها من يوم لآخر، لنراجع معاً بعض مواد العدد القادم من المجلة، وكانت في جلها غثا لا يغني وليس فيها من الجديد المبشر بشيء من الخير إلا القليل جداً، ويطول الجدل بيننا حولها وحول المجلة التي فقدت مستواها السابق، فيتأوه ويعيد نفس الجملة المألوفة: «ولكن ما العمل فكلكم تكتبون للمجلات الحكومية التي تجزل لكم بالدفع و«الأديب» لا يمكنها أن تدفع وأنها بالكاد تسدد كلفة طباعتها».

ولم يكن يخرج من بيته مساءً إلا لماماً وبالحاح مني أحياناً لجولة نقوم بها بالسيارة وننتهي منها الى بيتي أو بإلحاح من إحدى ابنتيه «ندى» أو «هدى»، فالسلم طويل ورجلاه قد كلّتا منه والمجلة لا فكاك له منها ولا بد أن يكرس لها كل وقته، ولذلك تفاوتت نسب لقاءاتنا المسائية العائلية. فعشر مرات عنده ومرة عندي، وكان لا ينفك خلال هذه اللقاءات عن استعادة ذكريات صباه ومتاعبه وأمانيه الكبيرة وخيباته العديدة، فإن ضاق بها واحد من أهل بيته صرف الحديث عنها ممتعضاً أو نزولاً عند رغبة ابنته هدى التي ترى في الذكريات «حاضر من لا حاضر له»، ودرنا في الأخبار العامة والسياسة وأحوال الأصدقاء، وإن عرجنا الى الشعر فلعمر أبو ريشة نصيب الأسد فيه فهو أبو الشعر الحديث كما يراه، وقد ننسحب أحياناً الى مكتبه لنبدأ من جديد حديث ذكرياته التي لا تنضب.

في عام ١٩٠٨ ولد في المكسيك، وفي عام ١٩١٤ قدم الى لبنان والذي سرعان ما غادره

الى مصر ليتمم دراسته الابتدائية والثانوية ما بين مدارس الاسكندرية والقاهرة، ومن ثم عمل في الصحافة محرراً صغيراً في صحيفة «الرقيب» لجورج طنوس، وانتقل منها الى العمل مع إبراهيم المازني في صحيفة «الأسبوع» فإلى صحف حزب الوفد القاهرية خلال الثلاثينات، ومن القاهرة الى السودان وما لبث فيه إلا فترة قصيرة انكفأ راجعاً إلى لبنان حيث أنيط به أن يقوم بتأسيس محطة الإذاعة اللبنانية وكان اسمها آنذاك محطة «راديو الشرق»، وذلك في عام ١٩٣٨.

«ومن خلال إشرافي عليها اكتشفت اسمين لامعين هما وديع الصافي وفليمون وهبي اللذين اشتركا في مسابقة غنائية ونجح فيها الاثنان ولم يكن اسم وديع الصافي هو اسمه الحقيقي، كان له اسم آخر وأنا اقترحت عليه أن يكون اسمه وديع الصافي، أما فليمون وهبي فقلت له ان يحتفظ باسمه لأن موهبته في الغناء ليست على مستوى موهبة وديع الصافي الرائعة».

● **وماذا كان اسمه..؟**

ـ لا أذكر ما اسمه، لقد نسيه حتى هو نفسه وعلى كل فهو لا يصلح لمغن سيكون مشهوراً.

● **ومن أين أتيت باسم وديع الصافي..؟**

يصمت قليلاً وفي مسعى لأن يستعيد صورته في ذاكرته ثم يقول بصوت متقطع: هل تعرفه..؟ إن في وجهه وداعة وفي صوته صفاء ولعلني اخترت اسمه من المزج بينهما.

وتكر أماسي لقاءاتنا وتطول في بعض الأحيان الى ما بعد منتصف الليل ويظل صوته الهادىء يستعيد أحاديث الذكريات التي لا يريدها أن تنتهي فهي كل ما بقي لديه من سني الكفاح الطويل مع الحياة، الكفاح الذي لم يورثه مالاً ولا منصباً، بل أورثه نصباً وسغباً ومرارة ومجلة رأى فيها كل مبتغاه في الحياة والتي آثرها حتى على كل المناصب التي لوح له بها والتي كانت على مد ذراع واحد منه، وحسبه منها أنه نافذته على أجمل ما في الحياة وحسبه منها أنها ستتيح له أن يكتشف أدباء ومواهب وأن يبشر بأدبهم وأن يكون أباهم الروحي وأن تكون لسانه الأمين لمقومات أمته وذلك منذ أن باشر إصدارها في عام ١٩٤٢، وربما كانت من بعض أسباب ما لقي من عنت السلطات الفرنسية ومن بعض دوافعها لاعتقاله في بيته مع من اعتقلت آنذاك من كبار رجالات لبنان السياسيين المعروفين كالشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح الذي اغتيل عام ١٩٥١ في عمان بالأردن.

ويقدر ما كان يستأنس بقدرتي على الإصغاء له، بقدر ما كانت تتدفق ذكرياته بلا حواجز ولا ضوابط، فكل قلبه على لسانه، ولسانه لا ينام على سر ولو لليلة واحدة، وكثيراً ما كان يشفع حديثه بصور امتلأ بها غير جارور من جوارير مكتبه، ومنها ما أخذ مكانه في حيز أراشيف المجلة، ويذهب بتأمل كل واحدة منها حتى ليخيل لك بأنه يراها لأول مرة بعد سنين طويلة، وإن كان قد مرت بها أنامله يوم أمس.

هذه صورتي وأنا في الخامسة من عمري.. أليست جميلة.. لقد كنت طفلاً مزعجاً..

وهذه وأنا شاب. . لقد كنت وسيماً ودون جوان زمني، ويقول جملته الأخيرة بصوت هامس خفيت. . وهذه الصورة مع كمال بك جنبلاط والشيخ عبد الله العلائلي يوم قمنا بتأسيس الحزب القومي الاشتراكي في مطلع عام ١٩٤٩ وقد كنت سكرتيراً للحزب.

وأسأله مازحاً: لِمَ يصر كمال جنبلاط على لقب «البك» وهو ينادي بالاشتراكية. . ؟ فيرد مقهقها: أتدري لماذا. . ؟ لأن لقب «البيك» مثل نون الوقاية تقيه أحياناً من متاعب الاشتراكية. .

وأذن لي أن أحتفظ ببعض النسخ المكرورة من تلك الصور أو التي لديه ما يماثلها في الزمن والمكان بحجة إغناء أرشيف مجلة «العلوم» التي كنت أقوم على رئاسة تحريرها.

وذات مرة تلفن لي ليسرّ إليّ نبأ سوء ما آلت اليه عيناه وأن الطبيب يؤكد عليه بضرورة عمل جراحة لإحداهما بأسرع ما يمكن، وذلك يعني انه لن يقرأ ولن يكتب لفترة طويلة وريثما يصح بصره وإلا فهو مهدد بفقدانه كما قال له الطبيب. . وهذا يعني ان تتوقف «الأديب» عن الصدور وهو أمر لا يمكن أن يقبله مطلقاً، إذ لم يحدث ان توقفت عن الصدور طوال السنوات الماضية، فاستأذنته بأن أقوم بمساعدته في قراءة المواد وإعداد ما يصلح منها للنشر، فقبل ذلك مني على مضض وأوصاني خيراً بالأدباء الشبان وإن أرهقوني بلغتهم السقيمة وأخطائهم الكثيرة وغموض أجوائهم وخروجهم على أدب جيلنا، فهم جديرون بالرعاية، وإذا كان الكثير مما سيصلك غثاً فلا بد وأن تقع الى شيء حقيق بأن تهتم به، وما كادت تمر عدة أيام وأنا اقرأ وأنقح وَأصحح وأختار ما يستحق النشر، حتى فوجئت بقصة تصل المجلة من كاتب لم أكن قد سمعت به مطلقاً، وكانت رائعة ومتميزة بقدرة كاتبها المدهشة على الرصد والتحليل والتكثيف، وسرعان ما حملتها الى ألبير أديب لأقرأها عليه وكان على مثل دهشتي واعجابي بها، فرغب في أن تنشر في العدد القادم وإن اضطررنا لسحب مادة من مواد العدد، وذلك ما حصل بالفعل وكانت القصة لجمال الغيطاني وهي أول عمل ينشر له في أواسط الستينات كما أخبرني يوم أن حدثته عنها بالقاهرة قبل عامين، وأضاف بأن نشرها كان منعطفاً في حياته.

وانفجرت الحرب اللبنانية. . وامتلأت الشوارع والأزقة التي تفصل ما بين دارينا بالمتاريس والقناصة ودوي الانفجارات والحرائق والممعنين في فحص الهويات وخطف مَن هويته ليست من نوع هوياتهم، وتعذر عليّ أن أصل إليه إلا عبر التلفون، ان صلح الخط، لأسأله عن أخباره وأخبار العائلة وحالة الحي، ولأجيبه على أسئلة مماثلة، وكان آخر ما سمعه مني هو أنني سأغادر بيروت مرغماً وعلى أمل أن أعود إليها بعد أسابيع فالحرب لن يطول أمدها كما حسبت.

وطال أمدها. وطال واضطر الى مغادرتها الكثيرون ممن أحبوها واعتبروها عاصمتهم الحقيقية، غادرها أبو ريشة ونزار قباني وأدونيس وغادة السمان وليلى بعلبكي وحنان الشيخ وياسين رفاعيه وغيرهم وغيرهم وانتحر خليل حاوي، وامتدت يد المجرمين الى حياتي صبحي الصالح وحسين مروة. وبقي فيها من لا يزال يؤمن بأن تبعث بيروت في يوم ما من الرماد

طائراً رائع الجمال. . كهذا الصديق. . وكفؤاد الخشن وأحمد أبو سعد وعلي سعد وغيرهم من الإخوة البررة. .

وبعد، يا ألبير أديب هل تذكر بيت الشعر لإبراهيم ناجي، الذي كنت أردده بعد كل حديث في الذكريات، وكنت تحاول أن تحفظه ولكن ذاكرتك لا تعينك عليه فآثرت أن تكتبه في ورقة أمامك.

أتقول: أعمار مضيعة

ماذا صنعت بعمرك الغالي. . !؟

اجل. . ماذا صنعت أو ماذا صنعنا بعمرنا الغالي، وحسبك أن لا موت وراء الموت فمت، اما نحن فما زلنا نموت كل يوم ألف ميتة ومع كل من يموت من أبنائنا وأصدقائنا وإخوتنا وكل ما تموت من أمانينا وتطلعاتنا وأحلامنا.

١٩٨٧/٦/٩

توفيق الحكيم وزهرة عمره

ثمة أدباء وفنانون وعلماء وسياسيون كبار، ما أن تقع الى رسائلهم الخاصة أو الى مذكراتهم أو بعض سيرهم الشخصية إلا وتشعر بهم وكأنهم صاروا من بعض معارفك المقربين وأن ما أطلعوك عليه من أسرارهم قد حملك عبء متابعتهم في كل صغيرة وكبيرة، وأنك إذ تتذكرهم في مناسبة من مناسباتهم فلا تتذكرهم إلا في الكثير من تلك الخصوصيات الذاتية.

هكذا كان أمري مع اعترافات تولستوي «١٨٢٨ ـ ١٩١٠» وجان جاك روسو «١٧١٢ ـ ١٧٧٨» ورسائل فان كوخ «١٨٥٣ ـ ١٨٩٠» وجبران «١٨٨٣ ـ ١٩٣١» وغير ذلك كثير، وإذا كان لك أن التقيت بهم عبر ما تركوا لك، وأنت في مقتبل العمر ـ كما كان لي أن التقيتهم ـ حاولت أن تجترح لنفسك من خصوصياتهم شيئاً لخصوصياتك ومن تطلعاتهم وأمانيهم وكفاحهم ما يشحذ الهمة لأن تسعى مسعاهم وأن تسقط عليهم شخصيتك، وانك بلا شك واقع الى الكثير مما يعمق ودّك لهم ويعزز من انتصارك لعطاءاتهم ونوازعهم ولحد التعصب لهم، ظالمين حيناً أو مظلومين، في أحيان كثيرة.

وهكذا كنت مع توفيق الحكيم في كتابه «زهرة العمر» الذي كدت أن احفظ مقاطع من رسائله لكثرة ما كنت أعود لقراءة هذا الكتاب يوم أن صدر في أوائل الأربعينات ويوم أن كنت دون التاسعة عشرة من عمري، أقرزم الشعر ولا أقوله إلا أسود داكناً، وأكتب في النقد الفني بلا هوادة وأخرج على إرادة أهلي وأسب مع السياسيين كل السياسيين وأحلم بالهروب الى باريس عاصمة الدنيا، لأقرأ رامبو وبودلير واتسكع في شوارعها وأدخل متاحفها وأستبدل كل ساعة حسناء بحسناء، وكان لي من «زهرة العمر» ما يلهب تلك الأحلام وما يعمق وعيي بعلاقة الفنون بعضها ببعض وما يوسع صدري للصبر والجلد على القراءة والقراءة باستمرار وفي غير مجال من المجالات.

وأمس، وقبل أمس بأيام أيضاً، كانت الأنباء تتواتر عن صحة توفيق الحكيم وأومأت إحداها الى أنه يعيش ساعاته الأخيرة وأن الطب لعاجز عن أن يمد بعمره أكثر مما صار له منه

بعد ثمانية وثمانين عاما، وما كاد يطرق سمعي ذلك إلا وأحسست بشيء من الحزن يداخلني وإن كنت أعرف أن الرجل استوفى ما يريد من أيامه، وأحسست برغبة للعودة لقراءة «زهرة العمر»، هذا الكتاب الذي اقتنيته غير مرة وفقدته غير مرة، سألت أكثر من صديق عنه فما وجدته عنده، ومررت بمكتبات لندن باحثاً عنه فما أسعفتني، وأخيراً عثرت عليه مرمياً مهملاً على الأرض بجانب جدار لأحدى المكتبات وبسعر زهيد جداً على خلاف أسعار الكتب العربية فيها، فحملته وأنا أنفض عنه ما علق به من غبار احذية العابرين به وممن ظنوه كتاباً ما عاد يعني احداً بشيء وأن كاتبه مات من قبل أن يموت وأن ما بقي منه في ذاكرتهم ليس بأكثر من أخبار مبتسرة عن بخله وعدائه للمرأة وعقوقه لعبد الناصر الذي منحه القلادة الرفيعة وذلل له الكثير من المناصب العالية، وممالأته للسادات ومواقفه المتأرجحة بأثر من ولاءاته الآنية، والى غير ذلك مما تلوكه عنه فضائح الصحافة اليومية، وقد يتذكر أحدهم اتهام أحمد رشدي صالح له بأن كتابه «حمار الحكيم» منتحل عن كاتب إسباني، ولم تسلم حتى العصا والبيريه من غمز ولمز ودعاوى للنيل منه.

وعلى مثل قدامى المصريين الذين كانوا يخلدون حكامهم وساداتهم بتماثيل تصورهم وهم في عز شبابهم، جمع توفيق الحكيم رسائله التي كان يتبادلها مع صديقه الفرنسي أندريه في «زهرة العمر» لتبقيه في ذهننا ذلك الشاب الطموح الذي رغم ادعائه في إحدى رسائله بأن «الخيال قد أضاعني» فلم يكن مطلقاً بالرجل الضائع.. لقد صمم حياته كما إرادها وقلّ بين أدباء جيله من عزز ثقافته الانتقائية كما عززها توفيق الحكيم وقد حق فيه قول أندريه وزوجته جيرمين يوم أن شهدا ولادة أول كتاب يترجم له الى الفرنسية: «هذه ثمرة جهادك الذي كنا شهوده».

ولقد كان بالفعل جهاداً طويلاً منذ أن وقف ضد رغبة ابيه الخائف عليه من أن يجرفه تيار الأدب والفن بعيداً عن دراسة القضاء فأرسله الى باريس «لعليّ أسلو الفن وأنصرف الى ما يتمناه لي من حياة قانونية قضائية محترمة»، ولكنه في باريس كان أن أدرك طموحه في كل ما يؤكده فناناً «فالإيمان بالفن هو التعويذة التي تفتح لي الطريق» وأنه من أجله «كافحت وناضلت وكددت وباسمه أخوض المعركة وأنازل كل مجتمع وكل حياة وكل عقبة تحول بيني وبين فني الذي منحته زهرة أيامي التي لن تعود».

ولأنه لم يفهم الفن وحياً يهبط في آخر الليل، فقد تعب وعرق وسهر ليالي طويلة وقرأ وقرأ بلا كلل ولا ملل، ووقف ساعات وساعات في صالات المتاحف بباريس ليدرس كيف يحقق الفنان عظمته، وكان عليه أن ينتظم في الصفوف الخلفية واقفاً على قدميه أحياناً ليستمع الى الموسيقى وأن يلمّ بفنون عصره ليقول بمعاصرته وبمعاناته إشكالات هذا القرن فلم يفته حتى أن يقرأ «في أشياء غير الأدب مثل تقارير عصبة الأمم وسياسة أوروبا الاقتصادية بعد الحرب». وإن عليه حين يزور متحفاً من المتاحف أن يعرف من أين يجب أن يتأمل الصورة ومدى المسافة التي يجب أن يضعها بينه وبينها، وكيف يدرك تنظيم كتلها وحجومها وألوانها فالعقل «في فن التصوير ليس في الرأس بقدر ما هو في العين النهمة التي تبصر وكأنها تغترف

وتلتهم» وأن الفنان بعمله يلخص الطبيعة ويختزل أهم مظاهرها من خلال شكل بسيط وعدة ألوان ولكي يكون له أن يمتلك مثل هذه العين اللاقطة كان عليه ان يعرف باريس لا بلياليها الصاخبة بل بمصاحبة شيخ طاعن في السن يأخذه من متحف الى متحف ومن حديقة الى حديقة ليريه تماثيلها ويحدثه عنها حديث الملم بكل دقائقها وأن «الجلوس الى ذلك الشيخ كان ينسيني مفاتن الدنيا لأنه كان يريني مفاتن الفن الذي فتح بصري على جمال فن البلاستيك من نحت وعمارة وتصوير» لقد كان خيراً من ألف كتاب «إنه كتاب حي متنقل» وقف به عند كل ما يجب ان يقف عنده من بدايات تاريخ الفن، وكانت هذه الثقافة التي يستقطرها استقطاراً من هذا الشيخ الطاعن في السن تستنزف قسماً كبيراً من ماليته المحدودة التي يبعث بها أهله إليه لسد حاجة طالب في باريس عليه أن يعيش في إمكانات مادية ضيقة، وذلك بالإضافة الى ما كانت تكلفه متابعة الحفلات الموسيقية والمسرحيات حتى وإن كان ينتبذ عادة مكاناً قصيّاً في آخر الصفوف او اعلاها «إن الإرتفاع أو العلو موضع فخر في كل شيء إلا في المسارح».

وبقدر ما كانت باريس تفتح الآفاق وسيعة أمامه كان يخاف من أن تضيعه تلك الافاق عن نفسه. وإن حماسته لكل ما هو جديد تلزمه بالعودة الى كل ما هو قديم ليقارن بينهما، وأن يعود أيضاً لتراثه مستنجداً بأصالته وخصوصيته ليكون لأدبه ما يسمه بسمته المتميزة بكونه مصرياً وعربياً ومسلماً وله من تراثه فيها ما يغور عميقاً في كل مسامة من مسامات جلده وأن عليه أن يقي نفسه من التقليد العشوائي، وأنه إذ يستفيق على حضارة هذه المدينة التي وضعته في قلب القرن العشرين، يستفيق على صراع حاد في دخيلته حيث تتناهبه ثلاثة تيارات، فهو من ناحية «موزع الآن كما ترى بين الكلاسيك والمودرن ولا أستطيع أن أقول مع الثائرين: فليسقط القديم لأن هذا القديم أيضاً جديد علي» وأنه مع الفن الحديث والأدب الحديث لأن عليه أن لا يتأخر عنهما إذا أراد لنفسه أن يكون مجدداً فيهما، وهو من ناحية ثالثة ابن مصر القديمة ووارث تراث عربي وإسلامي ضخم لا يزال يشد به الى مفهوم خاص في الإنسان والروح والمادة. إن ثمة خطوطاً تتقاطع باستمرار في ذهنه ونفسه وكأنه أصبح محطة قطار ذات مسارات متعددة ولا بد أن يستوفي وجيبتها في ذهابها وإيابها وأن يحدد توجهه بينها، فبذائقته الشعرية المتشبعة بالنزعة الوصفية الكلاسيكية في الشعر العربي ووضوح مقاصدها قد يجد لها معادلاً في الرسم الكلاسيكي الأوروبي حيث اللون والخط عاملان لتحديد الأشكال كما هي في الواقع، وبفهمه للفن الإسلامي المتشبع بالنزوع الزخرفي وتسطيح الأشكال وإلغاء قيم المنظور بمفهومها الأوروبي قد يجد معادلا له في الرسم الحديث في أوروبا وتجريداته واستلهامه لفنوننا وفنون الزنوج ورسوم الكهوف، ولكن كيف يستطيع أن يخرج من ذلك كله الى إقامة وحدة متكاملة في الشخصية فيصير حديثاً بقديمه وقديماً بحديثه...؟

وإذا كان الأوروبي قد وصل الى ذلك بأثر من معاناته الخاصة ومن قرفه من التماثل ما بين الفن والطبيعة وتقليد الأول للثاني ومن «حضارة مفعمة بألوان إبداعه الذهنية والحذلقة الفكرية وحياة الصالونات والأكاديميات، بمقدار بعث في الناس عطشاً الى عصور الفطرة الأولى بناسها العراة وإحساسهم المجرد وأن قيمة الفن الحديث هي أنه يحاول أن يعيدنا الى

النضارة الفطرية البدائية والى مصادر الإلهام الأولى»، فالأمر بالنسبة له مختلف اختلافاً جذرياً ولذلك وجد نفسه معجباً بأعمال رافائيل «١٤٨٣ ـ ١٥٢٠» كما هو معجب بالفنانين الجدد الذين يسعون الى أن يصوروا الأشياء كما هي في الواقع وكما يرونها وكما يريدونها أن تكون في آن معاً وبشكل متعاضل، أو بالفنانين الذين يسعون جاهدين الى نبذ الواقع نبذاً كلياً والتخلص من شكلياته الظاهرية، ووجد نفسه أيضاً متصلاً بتراثه الضخم الذي يمتد الى أعمق الحضارات الإنسانية في العالم، ومن هنا صار «التحصيل في ذاته للثقافة والتكوين لذتي الكبرى» وأن انتصاره على ذلك الصراع المحتدم في نفسه سيؤكده في جهده المتميز، الذي عرف به كيف يقرأ وكيف يهضم ما يقرأ وكيف ينسى ما يقرأ، لينتهي الى تكوين شخصيته المتسمة بملامحها الخاصة فلا يأسره الماضي كما أسر المنفلوطي «١٨٧٦ـ ١٩٢٤» والرافعي «١٨٨٠ ـ ١٩٣٧» ولا تقطعه الحداثة عن جذوره كما هو شأن الكثيرين من فنانينا وادبائنا المحدثين «اني اقرأ لأهضم ما قرأت: أي أحلل مواد قراءاتي الى عناصر تنساب في كياني الواعي وغير الواعي . . . إني أشعر وأنا اقرأ حتى مقرر الدكتوراه في القوانين، أن مواده تفككت واختلطت بمواد أخرى لقراءات أخرى لا علاقة لها بالقانون كما تختلط في المعدة المواد الغذائية بعضها ببعض وإذا الناتج من هذه المواد المختلطة هو عصير ثقافي يسري في دمي المعنوي فأحس كأن وزني الفكري قد ازداد وكأن قدرتي على احتمال التأمل المستمر قد نمت، أما المواد الغذائية في ذاتها فقد هضمت: أي نسيت».

وما بين «زهرة العمر» التي قامت على رسائل تؤرخ لجهده شاباً في البحث عن نفسه والتي صدرت عام ١٩٤٣ بعد أن «كادت تبذل زهرة العمر بعد أن جاوزنا الأربعين» وبين ذكرياته في «سجن العمر» مسافة نيفت على عشرين عاماً ما انفك فيها توفيق الحكيم قلقاً حتى ساعة لا مبرر لأي قلق، إذ يستحوذ عليه فجأة ويتحول الى علامات استفهام ضخمة لا تقف عند حد وهذا «القلق الروحي والفكري لا ينتهي عندي أبداً ولا يهدأ. . إني سجينه سجن الأبد» كان عنوان أصالته وصدقه وتناقضه مع أبسط أمور حياته، لأنه قلق المبدع الذي يظل فيه الأمل يطارده حتى يوهنه جهده في الذي هو في سبيله فإذا ما أستيقظ على ما أبدع لم ير فيه إلا جهداً تعوزه الموهبة، وإذا كان هذا ـ كما يقول عنه طه حسين «١٨٨٩ ـ ١٩٧٣»: لا يكفيه ولا يرضيه فليس غريباً ولا متناقضاً لطبائع الأشياء لأن الكاتب المتقن لفنه لا يرضى عما يكتب إلا إذا ملأه الغرور واستأثر بعقله وطبعه. ولم يكن توفيق الحكيم كذلك وان اراد ان يبدو كذلك في بعض الأحيان، مضيفاً به خبراً جديداً الى أخبار بخله وعدائه للمرأة وتناقضاته السياسية. . . و. . و. . و. . ولكنه يبقى عبر ذلك كله الكاتب الحقيق بأن نتلمس أنفسنا في جهده وصدقه ومعاناته الأصيلة في البحث والمحاولة.

١٩٨٧/٦/١٧

جبلينا
حديث عنها.. ومنها.. ومنا

جبلينا
جبل مد الى الأمس الذي
غار مع الرمس بعيداً،
مد ذكرى ويمينا
مد حباً وحنينا
مد وعداً . . ثم رعداً . . ثم غيثاً
وانتظرنا الفجر يأتينا
وقد يولد فينا

ثم تتداخل الأصوات وتتعاضل الأبيات وأنصاف الأبيات والقوافي، وتتعثر الألفاظ على شفاه بعضنا، ثم يكون لها أن تتألق في عيني أدونيس وسعدي يوسف ومحمد بنيس والحربي ومليكة العاصمي والحيدري وبعض الإخوة من الصحفيين العرب القاطنين في إيطاليا، فيدلي كل منهم بدلوه حتى تنكسر الدلاء ولا يبقى في الشعر شيء من الماء، فنخرج من المدح الى الهجاء، وكيف لا، وفي النفس ما يسعف على ذلك وفي القوافي ما يغري، فقد اجتمع لنا منها ما يوطد الصلة بين الشاعر العربي الصقلي ابن حمديس وأدونيس ومحمد بنيس، وما يخرج بها الى شيء في إبليس.

وتطول الجلسة مع بعضنا الى وجه الفجر الذي أخذت خيوطه المتألقة تنعكس على بركة السباحة في الفندق، وما زلنا على كثير رغبة في أن لا يجيء الصبح فحديث الذكريات طويل وعتب الشعراء على بعضهم البعض لا ينتهي، واغتياب الغائبين يظل له حضور، ونسأل محمد الحربي عن سبب عدم حضور زوجته الشاعرة السعودية خديجة العمري فيرد بأدب

جم: إنها تخاف من الشعراء الكبار، ويتساءل أحد الصحفيين ولكن لماذا لم يحضر محمود درويش ولا أحمد عبد المعطي حجازي..؟ فيهمس زميل له في أذني بخبث: ربما توهما بأنهما أكبر من الشعراء الذين حضروا فلم يحضرا.. فأصطنع الجد ولا أرد خشية أن يصطاد شيئاً مني في الماء العكر فيوغر صدريهما عليّ، فصحافة اليوم ما عادت تؤتمن على شيء.

في الطريق الى جبلينا

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، أي في الثامن عشر من شهر سبتمبر ١٩٨٧، نجتمع عند باب الفندق في انتظار السيارة التي ستقلّنا الى «جبلينا».

ـ وإذا لم نكن في جبلينا فأين نحن إذن..؟!

يرد عرفان رشيد، الصحفي الذي يسكن في روما منذ سنوات عديدة:

ـ أنتم في «مزارا» التي تبعد عن جبلينا بنحو أربعين كيلومتراً، والتي سنذهب اليوم إليها وستتعرفون الى أطلالها.. وجبلينا الجديدة ما زالت بحاجة الى فندق كبير كالفندق الذي أنتم فيه في «مزارا» ليستوعب الوفود القادمة للإسهام في هذا المهرجان الشعري.. إذن نحن أمام مدينتين من مدن غرب جزيرة صيقلية إحداهما جاء عليها الزلزال عام ١٩٦٨ فمحاها عن بكرة أبيها، وجبلينا الحديثة التي خرجت من الرماد متألقة وأنيقة وعلى مدرجات مسرحها الجديد ستقام الأمسيتان الشعريتان ليومي ١٨ و ١٩٨٧/٩/١٩.

قال أدونيس: أعتقد أن اسم جبلينا آت من كلمة «جبل» وأضيفت إليها صيغة التصغير المألوفة في اللغة الإيطالية، وبدأ رأيه مقنعاً لجميعنا، إلا ان عرفان رشيد كان له رأي آخر بجبلينا في رأيه هي «جبلين» وأضيف إليها الألف كواحد من الملحقات الثلاثة التي تلحق بالأسماء الايطالية وهي الألف والواو والياء.

وعلى مشارف أطلال جبلينا نتوزع جماعات وفرادى ونحن نتأمل آثارها الباقية والتي لا تزيد عن عدد قليل من الجدران المهدمة، وآثار لغرف وبيوت، أما المدينة فقد امحت عن الوجود وليس ما يدل عليها سوى بقعة بيضاء على شكل خارطة بقرابة كيلومتر مربع من الإسمنت الأبيض كرمز لكفن جماعي قام بتصميمه النحات الإيطالي «ألبرتو بوري» ليظل شاهداً على هول المأساة التي قضت على حياة ما ينوف على مئة وخمسين شخصاً.

وكما تتسع جزيرة صيقلية للعديد من الآثار العربية المتوزعة بين عدد من القصور والقلاع، تتسع اللغة الإيطالية في الجزيرة للعديد من الأسماء العربية كاسم فاطمة وعمر ومحمود وغيرها، وتذكر المستشرقة التي يعود إليها فضل إقامة هذا اللقاء «فرنشسكا كوراو» اسمين لشاعرين ممن أسهما معها في ترجمة القصائد يدلان على أسماء عربية وهما: «يولند إنساناً من إنسان وانياسيو بوتيتا، لاحظ ابن بطوطة».

ويندس بين صوتها صوت واحد من الإخوة الصحفيين العرب ليضيف قائلاً: حتى المافيا منا، أقصد كلمة مافيا وليس فعل المافيا، فالأمراء العرب الذين عاشوا في صيقلية كانوا قد

اتخذوا لخدمتهم وحراستهم عوائل ورجالاً أشداء من أهل الجزيرة وكانوا معفيين من أية ملاحقات ضرائبية أو ما شابهها وعرف كل فرد منهم بصفة «معفي» وعندما خرج العرب من صيقلية ظلت لهؤلاء الأشخاص وتلك العوائل سطوتهم الطاغية التي راحوا يمارسونها بأشكال مختلفة وفي تكتلات متعددة، وهكذا تحول «المعفي» الى «مافي» والألف الأخيرة هي الألف الملحقة بالأسماء «فيافيا» منا أيها الإخوان ولكن بالاسم فقط..

وجبلينا التي نفضت عنها غبار الموت ونهضت من الرماد وانفتحت على شوارع فسيحة وبيوت متراصة بتناغم متناسق، وساحات متوارثة الأشكال كما هي في العديد من المدن الصيقلية، وجبلينا التي تفتح عبر نصب بوابتها نفسها لكل رياح العالم الثقافية ولكل المحبة في العالم، والتي تعاون معها غير مهندس من مهندسي إيطاليا وغير فنان من فنانيها الكبار، لتزيينها بالتماثيل الحديثة، وإقامة مركزها الثقافي الجديد ومسرحها ومتحفها الذي أفرد فيه جناح للفنانين العرب المحدثين.. جبلينا هذه لا تريد أن تنسى تاريخها القديم، بل إنها على كثير رغبة في أن تكون ذاكرة لأهم أحداث جزيرة صيقلية والتي كان العرب في يوم ما وجهاً من وجوهها الحضارية، وإذا كان من بعض حلم بنت جبلينا المستشرقة فرانشسكا كوراو أن تقرأ الشعراء الصيقلين العرب بلغتهم بعد أن تفرغت لما يقرب من عشر سنوات على دراستهم والكتابة عنهم، فقد كان من حلم والدها عمدة مدينة جبلينا السنيور لودفيكو كوراو أن يحقق لابنته ومدينته الصغيرة ما يوسع لهذه العلاقة وما يؤكدها في مهرجانات ولقاءات.

أماسي الشعر

وقد صدر في عام ١٩٨٤ كتاب مترجم لفرنشسكا خصته بترجماتها الى الإيطالية قصائد للشاعر العربي عبد الجبار أبو محمد بن حمديس الأزدي الصقلي وعنونته باسم «ابن حمديس - مذكرات صيقلية»، ثم انصرفت بعده لترجمة قصائد لعدد من الشعراء العرب الذين عاشوا في هذه الجزيرة، بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر وصدر حديثاً تحت عنوان «شعراء عرب من صيقلية»، وتقول عن أسلوبها في الترجمة إنه يقوم على اختيار القصائد التي ترى فيها ما يمكن نقلها الى القارىء وتحقق تعاطفه معها، ثم تترجم ما اختارت ترجمة شبه حرفية، وبعد ذلك تقوم بعرض ما ترجمت على نخبة من شعراء إيطاليا المعروفين لإعادة صياغتها بلغاتهم الشعرية المرهفة وبما يحفظ للقصائد خصوصية مناخها الشعري وشيئاً من إيقاعاتها وجرس موسيقى مفرداتها، ثم ليكون لهؤلاء الشعراء العرب ما يعرف بهم لجمهورنا الإيطالي «من خلال شعراء بارزين الآن في إيطاليا والعالم نذكر منهم: بوتيتا - لوتس - منكانيللي، المعروف كقاص وناقد وشاعر - زنزوتو - يولندا انسانا - وشالويا الفنان والشاعر والذي له اهتماماته الواسعة بالشعر العربي..» وتضيف: «إنني مهتمة أشد الاهتمام بتراث تلك الحقبة لأنها تشكل حقبة حضارية مهمة، وبتواضع أقول إنني نشأت في بيت غرس في نفسي الاهتمام بتاريخ الثقافة والأدب في صيقلية، ولوالدي فضل تشجيعي على التفرغ لدراسة الأدب العربي وإحياء التراث الثقافي الإسلامي في صيقلية، ويشغل الآن مقام عمدة جبلينا ويخصص جانباً كبيراً لتنشيط الحياة الثقافية فيها».

وفي الأمسية الأولى التي خصت بشعراء صيقلية العرب، يوجز لنا مقدم الشعراء الإيطاليين الذين سيقومون بقراءة ترجماتهم، أهمية الشعر العربي الصيقلي لفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وأبرز مقوماته، ودور هؤلاء الشعراء في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء كل ما كان يحيط بهم، وذلك ما يهبنا القدرة على عقد المقارنات ما بين تجاربهم وتجارب شعراء جيلهم من الإيطاليين، ثم كان للفرقة الموسيقية التي جاءت من المغرب للإسهام في هذا المهرجان أن قدمت بعض الموشحات الأندلسية، ومن ثم توالى الشعراء الإيطاليون على اعتلاء المنصة لإلقاء قصائدهم المترجمة والتي انفرد كل منهم بشاعر معين من الشعراء العرب، وآثروا أن تكون موزونة وضمن أوزان الشعر الإيطالي ذات الإيقاعات الثمانية أو الخماسية او ما لحق بهما من إيقاعات أخرى، وقد افتتح الأمسية الشاعر الإيطالي الكبير إيناسيو بوتيتا والذي ذكرني بقلنيسته وطريقته وملامحه ونبرات صوته وحركات يديه بشاعرنا الكبير الصديق محمد مهدي الجواهري.. وما قرأه كان من شعر ابن حمديس ومنها هذه القصيدة:

الى متى منكم هجري واقصائي
ويلي، وجدت احبائي كاعدائي
يا هذه، هذه عيني التي نظرت
تبل بالدمع اصباحي وامسائي
من مقلتيك كساني ناظري سقما
فما لجسمي فيء بين افيائي
اني لجمر وفاء يستضاء به
وأنت بالغدر تختارين أطفائي

وكاد أن ينسيه انسجامه مع جو المسرح الحميمي، وازدحام مدرجاته ونشوئه مع ابن حمديس، كاد أن ينسى الزمن والمكان ويفوت على من سيليه الكثير من وقته، لولا أن تداركته فرنشسكا.

وتستمر الأمسية لساعتين، ورغم أن ما فاتنا منها كان كثيراً، فقد كنا منتشين بحقيقة اننا ما زلنا نعني شيئاً مهماً بالنسبة للعالم وبالنسبة لتاريخ الحضارات فيه، قلت ذلك بصوت هامس لصديقي عارف علوان الذي صحبني من مركز عمله في روما فابتسم وقال: «أزيدك علماً بأن في صيقلية تصدر إحدى صحفها المحلية ملحقاً أسبوعياً خاصاً بالأدب العربي والثقافة والفنون العربية وأن المستشرقة فرانشسكا قد نشرت فيه بعض ما ترجمت من شعركم».

وعلى مثل ما اكتظت مدرجات مسرح جبلينا بالجماهير في الأمسية الأولى، اكتظت في الأمسية الثانية، وكما افتتحت الأمسية الأولى بعزف من الفرقة المغربية افتتحت الأمسية الثانية وبكلمة من الشاعر الإيطالي منكانيللي في الشعر العربي المعاصر وأهم خصائصه ثم تحدث عن الكيفية التي يترجم فيها شاعر لشاعر كما هي الحال في هذه الأمسية. حيث على المترجم أن

يدرك نفسه في كل خصوصيات القصيدة التي بين يديه. وعبر الإعادة والاستعادة المتكررة سيندمج الشاعران بعضهما ببعض ويستقيم للقصيدة ما يهبها تكاملها الشعري.

وحسب تسلسل الحروف الهجائية، فقد اعتلى المنصة الشاعر أدونيس، وفي كلمة موجزة سبق بها تلاوة لقصيدته المترجمة، نوه بأهمية هذا اللقاء الشعري، وبأهمية هذا الجهد المتميز في الاختيار والترجمة، وأشاد بدور الشعراء الإيطاليين الكبار الذين اعطوا لهذا اللقاء أهميته الكبيرة، وشكر للمترجمة فرنشسكا متابعتها الدقيقة ومراجعتها لكل صغيرة وكبيرة في عملها ومن جوانبه العديدة «حتى شعرت بأنني وبقدر ما أنا عربي أنا إيطالي بمعنى حضاري». ثم توالى على اعتلاء المنصة بلند الحيدري ومليكة العاصمي وسعدي يوسف ومحمد بنيس ومحمد الحربي الذي خص قصيدته بقرينته التي تغيبت عن المشاركة في هذه الأمسية كما تغيب عنها الشاعران محمود درويش وأحمد حجازي.

ولعل من أبرز ما يلفت الانتباه هو خصوصية الجمهور الذي أمّ المسرح والذي بدا لنا بأنه كان متعاطفاً جداً ومنسجماً جداً مع أجواء القصائد الجديدة عليه، وكدنا أن نقول بصوت واحد: إنه جمهور نتمنى لو كان لنا مثله وفي الكثير من أماسي الشعر في الوطن العربي، وحسبنا أيضاً أن نذكر أن بين الذين حضروا هذه الأمسية سفير السنغال ووزير الثقافة الإيطالي الذي آثر أن لا يفرد نفسه بكرسي يدل على منصبه، بل بكرسي بين المستمعين الذين جاءوا ليتعرفوا الى الشعر العربي الحديث، وكواحد من أهل صيقلية المهتمين بالثقافة العالمية، وأن كان لكل منهم كما تقول فرنشسكا كوارو: «طريقته الخاصة للاهتمام بهذا التراث، وهم لا ينتظرون أن يندهش العرب بهذا الاهتمام، ولا حتى أن يهتموا باهتمامنا به، ولكن وبرأي شخصي اقول، هو أن هذا التواصل يخدم الشعبين والترجمة من العربية الى الايطالية ومن الإيطالية الى العربية هي قمة العطاء في مجال التعارف الثقافي» وإنها «لفرحة بوجودنا معها ووجود كل هذا الجمهور معنا وتلك هي البداية التي نأمل أن تكبر أكثر وأكثر في لقاءات أخرى».

عمدة جبلينا وهموم العرب

على الرغم من أنه لم يغب لحظة عنا وأنه كان حاضراً معنا في كل لقاءاتنا وأماسي الشعر، فقد كان من العسير علينا وعليه أن ينفرد بنا أو أن ننفرد به في جلسة خاصة لكثرة مشاغله وواجباته في الاستقبال والتوديع والإعداد والتحضير، حتى كانت جلسة الوداع التي تحلقنا فيها حول طاولة غداء أعدت لنا في أحد مطاعم جبلينا، وعبر كلمة مجاملة من أحدنا ومداخلات من آخرين كنا نعبر عن صدق مشاعرنا إزاء هذه التجربة في اللقاء والترجمة، وأن لتعاطف الشعراء الإيطاليين ما يؤكد رؤية مهمة في جهد الترجمة من خلال مبدأ التكافؤ الضروري ما بين الشاعر والشاعر المترجم، وعن اعتزازنا بهذا اللقاء الحميم ما بين الحضارتين العريقتين حيث يصير لتأريخ الحضارات بعده الإنساني العميق الذي يوحد الإنسان في أهم مقوماته الأصيلة».

قال، وما زالت فرنشسكا تلهث وراء الكلمات لتصيد ما يمدها الى الترجمة الدقيقة، قال:

«أن نلتقي هنـا، وأن يلتقي هنا شعـراء معاصرون من العـالم العربي وشعـراء معـاصرون من إيطاليا، لا بـد وأن يعني أن مسعانـا جميعاً يتبلور في تـأكيد العـلاقة التـاريخية مـا بين شعبينـا بعمقها الحضاري والثقافي، وأن يعني ويحرص أبعد أهمية مسعـانا جميعـاً لجعل هـذه العلاقـة تستمر وتتوطد، وذلك يعني أيضاً بأننا نقف سوية ضد كل الذين يحاولون أن يشـوهوا صـورة التاريخ العربي والثقافة العربية والإنسان العربي.. وبكثير من الاعتزاز لا بد من أن أشيـد بما تركت لنا الحضـارة الإسلاميـة من آثار صيقليـة، في المعمار واللغـة وحتى في عادات النـاس، ونحن نحاول الآن أن ندخل الفن النفعي الى كل بيت من بيوت جبلينا ليوظفوه في جـدرانهم وطرز دورهم وستائرهم وأوانيهم وكتبهم وهو فن لم يعلمنا إياه إلا المسلمـون، وبصدق أقـول بأن جبلينا أرض مفتـوحة لكـل جهد يعمق هـذه العلاقـة، وأهلا بمسجـد نسمع الآذان منـه صباح مساء وحسبنا أن أحد شوارع جبلينا سمي باسم الشاعر العربي الصيقـلي بن حمديس، وان كتاباً لفرنشسكا قد صدر مؤخراً وأعتقد أنه قد وصلكم، يحمل ترجمة لخمسة عشر شاعراً عربياً من صيقلية وإننا نفتخر بكونهم جزءاً مهماً من حضارة هذه الجزيرة».

سكت لفـترة، ثم غطى وجهـه طيف ابتسامـة حزينـة، ثم أردف قائـلاً: «أيها الإخـوة لا أخفيكم سراً إن قلت لكم بأنني بقدر ما أنـا سعيد بكم وبمسـاعدة الحكـومة المغـربية الكـريمة وتحملها تكاليف سفر الفرقة الموسيقيـة إلينا وسفـر الشاعـرة مليكة العـاصمي والشاعـر محمد بنيس، بقدر ما أنا حزين من تصرف بعض المؤسسات الدبلوماسية وغير الدبلوماسية العـربية الموجودة في إيطاليا، والتي لم تول أي اهتمام لهـذا المهرجـان، رغم تكرار اتصـالنا بهم وتكـرار دعوتنا لهم، وكانت النتيجة أنه لم يحضر من المسؤولين العرب في إيطاليا غير ثلاثة دبلومـاسيين فقط، وقد أتجاوز حق العتبى عليهم فربما كانت لديهم مشاغلهم التي حالت دون حضورهم، ولكن كيف لنا أن نبرر عدم إسهامهم معنا حتى في إبلاغ الجالية العـربية الكبـيرة الموجـودة في إيطالية بخـبر صغير عن هـذا المهرجـان، وأن اياً من تلك المؤسســات لم تتبرع بتعليق الملصق الإعلاني.. شيء محزن.. أليس كذلك.. محزن لكم ولنا».

وأضاف أحدنا: «بل أكثر من مؤسف عندما يتأكد لنا يوماً بعد يوم بأن الثقافـة لم تعد همًّـا عربياً، وهذا ما يفسر ضخامة هجـرة المثقفين العـرب اليوم من أوطـانهم» هز لـودفيكوكـوارو رأسه مؤيداً ثم قال: «كان الأمراء العرب في الماضي يدركون أهمية الثقـافة ودورهـا في تعزيـز مكانة العـرب حيثما مـرت واستقرت ورحلت، أمـا اليوم فقـد أصبح الهم الـرئيسي أن يكون لكم قنبلة ذرية، إن القنبلة الذرية الجديـرة بأن تستحـوذوا عليها هي الثقـافة وإبـراز دورها، فهذه الثقافة كانت قنبلتكم الذرية بالأمس وهي كذلـك اليوم، وهي التي تضعكم حيث يجب أن تكونوا من العالم والعصر... أيها الأصـدقاء لقـد سمحت لنفسي أن أتحدث مثلكم لأنني اشعر بأنني واحد منكم..».

وعندما كـان يشد عـلى أيدينـا مودعـاً، كان يـردد باستمـرار «سنلتقي مرة أخـرى ومرات أخـرى» ولكن عندمـا سنلتقي مرة ومـرات أخرى تـرى هل ستتحـرك المؤسسات العـربية في إيطاليا لتؤكد أن لها دوراً في تعزيز الثقافة وأن فيهـا من يعرف أن يقـرأ شيئاً، شيئـاً بسيطاً في الثقافة، وبحيث لا يكون لنا أن نخجل منها عندما يحدثنا الآخرون عنها. ١٩٨٧/١٠/٧

المازني: انها ليست قصة حياتي

إذا كـان من شأن بعض الأدبـاء الكبار، أن يشغلوا النـاس بأمـور حياتهم، مهـما صغرت ودقت، ومهما كانت على جانب كبير من الخصوصية، وإذا كان لهم من ذلك ما يفسح المجال وسيعـاً لتأكيـد شخصياتهم وتـأطيرهـا في الأطر الـلائقة بهـا، أو الأطر التي يـرغبون أن يـروا أنفسهم فيها، وليست بعيدة عن متنـاول أيدينـا اعترافـات جان جـاك روسو، ولا اعـترافات تـولستوي ولا زهـرة العمر لتـوفيق الحكيم، ولا العشرات من الآثـار القيمـة، في مثـل هـذا الضرب من أدب السير، أقول: إذا كان هذا من شأن البعض، فإن ثمـة آخرين من الأدبـاء الكبـار، هم في غير هـذا الوادي، ولا يكـون لنا أن نكتشفهم في خصـوصية حيـاتهم الا من خلال جمل عارضة في قصصهم، أو في دراساتهم الأدبية، أو في نفوذهم، وإذا كان لواحد من هؤلاء أن يكتب، بالفعل، قصة حياتـه، لأنها جديـرة بأن تقـوم في قصة، سعى إلى أن يمـوه ذلك، كما هو الأمر مع «قصة حياة» التي ذيل إبـراهيم المازني عنـوانها بقولـه «إنها ليست قصة حياتي»، ثم عز عليـه ان يتنكر لهـا، وفيها مـا يذكـره بأحـداثها، فـأضاف لجملتـه تلك جملة أخرى بقوله «. . . وأن فيها الكثير من حوادثها والأولى أن تعد قصة حياة».

وقد كانت «قصة حياة» هي قصة حياة المازني، وان لم يشر فيها بأرقام ليـوم ميلاده، ويـوم أن صدر له هذا الكتاب أو ذاك، ويوم أن ولد له أولاده، أنها قصة حياته بـأكثر من معنى من معاني تشكله الداخلي، ونضوجه النفسي وقيامه وعياً أدرك به، بأن الحيـاة ليست رحلة جميلة، تستحق الصبر عليها، بل إنها أيضاً عمق الروابط الإنسانية، وعمق في إدراك أن تكون إنساناً محكـوماً بمسؤوليـاته وعليـه أن ينهض بها، وأن يتجـاوز مثبطاتهـا وعوائقهـا، وعلى مثـل هـذا الإحساس كبر المازني، وهو على شديد تماس بواقعه، وفي نهج من القدرة الذاتية، على تبسيط أمور دنياه، متخطياً متاعبها بضحكة مجلجلة، وكأنه ذلك الخلي الذي ما تخطى عتبـة طفولتـه وصباه وشبابه، من حيث صدق ضحكته، وبراءة طـرائفه وسـذاجة نـظرته الى الحيـاة، حتى لتستغرب أن يكون وراء قصصه المستلقية عـلى ظهرهـا من الضحك، طفـل فتح عينيـه «على

دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له: أتظن نفسك طفلاً له أن يلهو ومن حقه أن يرتع ويلعب. . .؟ لشد ما ركبك الوهم. . لا كرة ولا لعب، وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها، الى الكهولة دفعة واحدة. . حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً ايضاً».

وبالفعل يتخطى الشباب وثباً، فلا يعرف أحلامه ولا طيشه ولا حسن طويته، فكل نظرة الى ثيابه الزرية تثيره، وكل ضحكة يلمحها على شفتي عابر به، تحزنه، وأنزوى الى كتابه المدرسي يلتهمه التهاماً ليفرغ من التحصيل «بأسرع ما يستطاع»، وليكسب ما يدفع عنه طائلة الجوع، وبقاءه عائلاً على أهله، وهم على ما هم عليه، من فقر مدقع «وترك هذا كله أثره في نفسي، فاجتنبت أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالي أو يقاربه، وصرت أشعر أني غريب اذا القت بي المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى كأنهم شاكلة أخرى»، وهو في الوقت ذاته يخاف أن يصير ذلك مركب نقص، متأصلاً فيه، يحول بينه وبين أن يكون إنساناً سوياً، يريد أن يستقيم له واقع في دنياهم، فيأخذ نفسه بالحيلة حيناً، والظنة السيئة بهم حيناً آخر، معززاً بذلك من شعوره بالتفوق عليهم، وراح يعد الذين نشأوا في حجر النعمة وظل اليسار، من المنبوذين، لأنهم متكلفون، غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم، ولأنهم مترفون ومتبطرون، لا يعرفون شرف الكد ولا يدركون مزية الكدح والسعي «وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطفل، ولا يحيون حياة صحيحة ملأى بحركة الشعور والعقل، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم، وأنا وأمثالي أحق منهم بالكرامة، وأولى باستيجاب التعظيم».

وإذا كان هؤلاء المترفون قد أوجدتهم الظروف المحيطة بهم، فالمازني وأمثاله قد صنعوا هم ظروفهم. وأبدعوا منذ نعومة أظفارهم لعبهم من أقمشة بالية وقش، وجبلوا حياتهم من قطرات دمهم وعرقهم، فلهم أن يتبجحوا بما صنعوا من انفسهم، ولا داعي للمرارة، خاصة وأنه قد اجتاز مرحلة الدراسة، وصار له أن يتسلم وظيفته كمعلم يقوم فيها نموذجاً بطولياً لهؤلاء الطلبة الصغار، ويرفعون بإعجابهم به من إعجابه بنفسه.

ويتسع لهذا النجاح مرمى في التعاطف مع الآخرين، فلا يعود ينظر إليهم من خلال وضعه الشخصي، بل من خلال مسعاه لإدراكهم في أدق عواطفهم وآلامهم، ويصبح التسامح إحدى خصاله المميزة له، ومن ثم خصلة لأبطال قصصه الذين يحاول أن يفتح لهم «كوى تدخل منها الشمس، فتضيء لهم وجوه العيش وتمنحهم الدفء وتشيع الابتسام والجذل في وجوههم وقلوبهم»، ويخيل الي أنه ما كتب قصة من قصصه، إلا وتخيل قارئه يسأله عما حمل إليه من محبة جديدة للحياة، تعزز من ثقته بها وتقوي من أواصر علاقته بها «وجعلت كدي كلما بدا لي ما يسوء أو يريب أو يسخط من أحد أن أحاول أن اصنع نفسي في مكانه، أو أن أنظر ماذا كنت خليقاً أن أصنع لو أنني كنت محله، فأصبحت فيما أعتقد غير مغرور أو مخدوع فيما أرجو. أعدل وزنا واكثر إنصافاً وأسرع الى تمهيد العذر مني الى سوء الرأي»، وكأنه بذلك كان يتمثل قول إبراهيم ناجي:

وإذا القلب على غفرانه
كلما غار به النصل عفا

والمازني اذ يستعيد بشيء من اللوعة ذكرى ما افتقده في بيته من حب أبيه المنهك بالركض وراء لقمة العيش، وأمه التي أثقلت حياتها، هموم العائلة ومشاغل البيت، يستعيد مع ذلك، ما كانت تهبه إياه نظرة منه الى بنت الجيران التي طالما حلم أن يقفز من سطح بيته الى سطح بيتها، لينعم بحديثها الناعم، وليستعيض بحنانها عما افتقده من حنان أهله، وليوسع في قلبه الصغير مكاناً للحب وآلام الحب، وكثيراً ما كان يحمل هموم حبه الى أمه لتواسيه ولتفرج عنه كروبه، فلا يلقى منها غير اللوم والتأنيب «هذا هو العيب»، أو «إنك طفل وهذا غير معقول»، ولكن ما هو المعقول عندهم، «ولكن النتيجة.. وماذا بعد الحب..؟»، لا يعرف كيف يجيب على كل هذه الأسئلة، التي صارت تطارده صباح مساء، وكل ما يعرفه هو أنه يحب، وأن عليه أن يطوف حيها، ويمر بدارها على أمل أن يلمح خصلة من شعرها من النافذة، أو يسمع ضحكتها، وحتى بعد أن زوجت بفتى من الريف وغابت عنه الى الأبد، فقد ظلت تلك الذكريات، زاده من حبه الأول الذي يتجرعه بكثير من المرارة «.. كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وقد مضى ثلث قرن وزيادة على ذلك الحب الأول، وزحفت المدينة وهدمت الحي الذي كان فيه بيتها، هدمته كله، ورفعت عمائر جديدة وشقت طرقاً، ووسعت ميادين، وغرست أشجاراً، ومدت قضباناً وأجرت تراماً، وإذ بي في يوم من الأيام أزور هذا الحي وأجوبه شبراً شبراً، وأتمثل ماضيه، كيف أهتدي الى الرقعة التي كان بيتها قائماً عليها فأرجع قرير العين وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب».

وتتوالى على ذاكرته صورها، وهي تسرح شعرها أو تضفره، أو تركض وراء الدجاجة في الحارة، أو وهي تنشر الثياب على الحبال فوق سطح الدار، وأحياناً كان يسند رأسه الى حجرها، أو تسنده الى حجره وتسمح ليده أن تداعب شعرها «.. أتخلله باصابعي وألمس خدها الأسيل وأداعب شفتها بأصبعي فتغافلني وتعضه».

هكذا أحب المازني، وهكذا ظل أبطاله يحبون، وبمثل هذا النزوع العفوي، وبمثل تلك النشوة الطفولية الطاغية، ويوم أن التقيته في بغداد وقبيل وفاته بعام وبعض عام، أخذت على إحدى قصصه القصيرة، طبيعة الحدث فيها، فقد كان الزوج يروي لزوجته مغامراته العاطفية وكانت زوجته تضحك لما يرويه، وقلت له بأن الحدث مفتعل وغير مقنع، فرد عليّ بشيء من الغضب «.. بطل القصة هو أنا واللي عملت كده هي امراتك واللا امراتي»، ثم أعقبها بضحكة وهو يقول «خليك شاب يا شاب.. الكبار لا يعرفون الحب». وقد بقي في أعماقه محتفظاً بتلك القدرة الرائعة على اختزان ذكرياته حية، كما لو أنها بنت يومها «.. لن تبهت أبداً ولن تكبر تلك الفتاة أو ترتفع بها السن أو يزداد عمرها عندي يوماً وستظل على الأيام غضة صغيرة»، وأنها وإن اتخذت لها أسماء عديدة وشخصيات عديدة وأعماراً مختلفة في قصصه، فقد بقيت عند المازني تلك الطفلة، ذات الاثني عشر عاماً، والتي لا يريد لها أن تكبر، أو أن تفهم الحب على غير ما فهمته وما فهمه في يوم ما، وهما يضيقان على الدجاجة

كي لا تفلت من بين أيديها، ويهمسان بأنصاف جمل عما يكنّ واحدهما للآخر.

ويكبر المازني ويحس بالوهن يدب الى جسده، وبالشيب يغزو عارضيه ويمتد الى ما بقي من شعره، وأن عليه أن يجمع «حصاد الهشيم»، الذي خلفه وراءه وأن يواجه بجرأة مصيره.

ويصبح الموت هاجسه المرعب الذي لا يكف عن الطنين، وكأنه ذبابة اقتحمت جمجمته «فما غمضت عيني ليلة وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها»، وتستيقظ عبر ذلك مئات الأسئلة التي خامرت الإنسان منذ أن وعى نفسه كائناً محكوماً عليه بالموت، وعبر مئات الأجوبة المبتسرة، كان إبراهيم المازني، يحاول أن يستنجد بشيء منها، فالموت ليس بأكثر من أنه سيفقد شعوره بكينونته، ولكن كيف سيكون له أن «يحيا من لا يعرف أنه حي ولا يحس بنفسه..؟».

وتمر به السنون، وهواجس الموت لا تنفكّ عن التسلل الى كل لحظة من لحظات حياته، فيختار لنفسه أن ينام وهو جالس وقد أطبق إبهامه على رسغ يده اليسرى ليطمئن الى نبضات قلبه، وإذا ما أطل الصباح أسرع الى الطبيب، بحثاً عما يؤكد له سلامة قلبه، فيشتري بذلك راحة ليلة ينعم فيها بنوم هادىء لا تقطعه الكوابيس ولا ترهبه الهواجس المقلقة، وكالكثيرين غيره كان عليه في كثير من الأحيان أن يقنع نفسه، بأن لا شيء يمكن أن ينقذه من الموت، فلماذا يعذب نفسه بما لا يستطيع رده، فيخلد بذلك الى شيء من السكينة التي لا تدوم إلا لبضع ساعات ليعود مرة أخرى الى أسئلته المكرورة وأجوبته المبتسرة.

وشيئاً فشيئاً تأخذ ابتسامته المرحة بالجفاف، وإن ظل يرسمها على ملامح وجهه كلما التقاه واحد من معارفه، وكإعلان باهت الألوان عن كبرياء رجل يريد أن يوحي للآخرين بأنه لا يهاب الموت، وله أن يدفع بها ظنة من يقول بانتهائه ودنو أجله، وأنه ليس بأكثر من «قبر مظلم وانه لا يستطيع أن يضحك ضحكة من القلب.. ضحكة سرور حقيقي وعميق».

ويتعب من البحث في ذلك «وقلت لنفسي أيضاً: يا هذا لقد جاوزت الخمسين، فأنت في المنحدر، كنت على جانب آخر من جهل الحياة، وتصعد وتتوقل، ويصرفك ما في الصعود من مشقة، وما يتقاضاك من جهد، وما تأخذه عينك من صور ومناظر، عن التفكير في الذروة، وما بعدها، فالآن أشرفت على الحياة في الجانب الآخر، ولا مفر لك من النزول، وعبث باطل ليس يجدي أن تخدع نفسك.. الى المصير المحتوم، وهو محتوم.. محتوم، ما في ذلك أدنى شك، فما قولك في رياضة النفس عليه..؟ أن تروض نفسك على الموت، على الاطمئنان إليه، وراقني هذا، فصحّ عزمي على رياضة السكون الى الموت».

إنها الجملة التي انتهت بها «قصة حياة» المازني، وهي جملة طالما كانت من بعض ما نرددها مع أنفسنا كلما قل رصيدنا من الأيام الباقية لنا، ولكن ترى هل استطاع أن يموت كما أراد لنفسه أن يموت.. أن يموت وعلى ملامح وجهه تطفو ابتسامة أبطاله المملوئين بالحياة والذين يرفضون أن يكبروا أو أن تكبر أحلامهم، وأن يظلوا كملوك مصر القديمة المنحوتين في الحجر، شباباً دائماً لا يكبر ولا يشيخ ولا يموت..

١٩٨٨/٢/٩

حسين مردان
وذكريات الأيام السود

التقيت بالصديق السعودي عبد العزيز.. بعد أن تراخى الزمن فيما بيني وبينه قرابة عشرين عاماً، وكنت قد تعرفت إليه من قبل في العراق وكان واحداً ممن تواصل مع أدبائه، أدباً وعلاقة صداقة حميمة، وحفظ عن ظهر قلب الكثير من شعر الجواهري.

سألني عبد العزيز... معاتباً: قد يحق لك أن لا تكتب عن بدر السياب، وإن كان قد قال فيك من المديح ما لم يقله في أي شاعر من جيله، فلأن ما قيل فيه كثير، وجبرا إبراهيم جبرا.. وعبد الوهاب البياتي، ما زالا حيين ومملوءين بفتوة آخاذة، أدامها الله عليهما، ولكن حسين مردان، رفيق طريقك وصديقك الحميم، والذي كان بعض بؤسك من بعض بؤسه، أما آن لك أن تقول كلمة عنه..؟!

وإذ لم يكن الجلوس، ممن ضمتنا زاوية من زوايا الفندق في الرياض، على كثير معرفة بحسين مردان، فقد آثرت أن ألم الحديث الدائر بهمس فيما بيني وبينه وبابتسامة، وأن أشد على يديه، مؤكداً له بأنني سأكتب عنه في يوم ما، وقال: ولكن متى وذكراه على الأبواب..؟!

ورغم أن مئات من الصور لحسين مردان وعصاه وديوانه الذي كان يتأبطه عاشت معي دائماً ولم تفارق لحظة ذاكرتي، فقد أحسست بأنها ليست الصور التي عرفته فيها أبداً، ففي كل صورة من تلك الصور ما تستبطن صوراً أخرى، تخيفني وترعبني واحاول دائماً أن أبعدها عن ذاكرتي، كان يتبجح حيثما جلس والتف حوله نفر من الشعراء والأدباء والصحفيين، بأنه هو الذي نهض بشاعريتي، كنت أكتب من وراء نوافذ قصر العائلة وصيرني أكتب من مقاهي بغداد وأزقتها وناسها البسطاء ومن ليالي التشرد، وكان يكرر على مسمعي دوماً: إذا صار لك أن تصبح شاعراً معروفاً فلا تنس أن ذلك كان بفضلي أنا.. أنا حسين مردان.

ولا أدري الى أي شيء وقعت من ذلك الشاعر المعروف، ولكنني واثق بأن لحسين مردان،

صاحب ديواني «قصائد عارية» الذي صدر في أواسط الأربعينات و «صور مرعبة» الذي صدر عام ١٩٥١ . يدأ طولى في الكثير مما جرت فيها أيام حياتي. وأدلجت في غير ليل من الليالي العصيبة.

يقول إنه ولد عام ١٩٢٦ ، وأنه ليس متأكداً من ذلك، ولعله قال بذلك، ليظل أميناً لجيلنا في تجربة الحداثة، ما دام بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونزار سليم القاص الفنان، وخالد الرحال النحات ورفعت الجادرجي المهندس وبلند الحيدري، قد ولدوا في هذا العام، فلماذا لا يكون معنا، وهو الأكثر من جميعنا زهواً وادعاءً بكونه القدر الذي غير تاريخ العراق الأدبي، وأنه الأكثر إثارة لكل معاني الحداثة والتحدي، وأنه الصورة المرعبة التي تقلق أمن الآخرين من الأدباء التقليديين «اني اعتبر نفسي فيلسوفاً، أكثر مما أعتبر نفسي شاعراً . . إنني مغرور الى حد الهوس لأني أؤمن بنبوغي وتفوقي أكثر مما أؤمن بوجودكم».

كان طموحه أكبر من أن تنهض به قابلياته وضعف جديته في القراءة والمتابعة لكل ما هو جديد، ولذلك لم يستطع أن يحقق لنفسه الفيلسوف الذي كان يدعي بأن ليس بيننا فيلسوف سواه، إلا في ضروب من المعايشة كإنسان منفلت وبوهيمي ووجودي، ولم يستطع أن تحقق لنفسه ما كان أن تحقق لغيره من شعراء جيله كالسياب والبياتي ونازك الملائكة، وإن كان لا ينفك يزعم بأنه القامة الأمد طولاً منهم جميعاً . وانه الشاعر الوحيد الذي عاش حياته وكأنها قصيدة رائعة لن تطولها أية قصيدة من قصائدهم . . أليس الأثر الإبداعي العظيم هو الذي يغير قيم الأشياء جميعها . . هكذا كان وجودي بينكم.

كان حسين ظريفاً الى أبعد حد، حاضر النكتة، يخالف كل ما هو معروف يثير الآخرين ضده، ومع ذلك كان محبوباً من قِبل كل الذين عرفوه، فلن تحلو جلسة إن لم يكن في موضع الصدارة منها، وكانت كل الأبواب مفتوحة ومشرعة لمقدمه، أبواب الوزراء والسياسيين والفنانين والشعراء، حتى إذا ما أخذ مجلسه، تدفقت كلماته يسرة ويمنة، كسيف ذي حدين يجرح حيثما وقع، وما كان لأحد أن يسلم من لسانه الذرب، وكان الكل يتقبل منه ذلك لإيمانهم بصفاء نيته ونقاء سريرته. وحلو مخيلته في نسج الصور المضحكة والطريفة. دخل علينا ذات مرة خالد الرحال وهو يرتدي ثوباً كاكي اللون ـ أخضر فاقعاً ـ فانبرى إليه حسين مردان منكتاً: انظروا . . انظروا إنه يرتدي خيمة خالد بن الوليد، وما كان من خالد الرحال الا أن ترك ارتداءه منذ ذلك اليوم، وكان لنا صديق أبيض اللون وأحمر الشعر، فاطلق عليه اسم «تكني كولور» وشاع اسمه بيننا كذلك، حتى صار لازمة في التعريف به عند نزار سليم: اين «التكني كولور» هل رأى أحد منكم «التكني كولور» الخ.

وذات مرة أمَّ أحد مجالس كبار السياسيين المعارضين، وكانت المناقشة حامية وجادة حول البطالة وكثرة العاطلين عن العمل وسوء إدارة الدولة وتفشي الفقر، وساءه أن أحداً منهم لم ينتبه إليه، فشأن الموضوع المطروح ليس من شأنه، والجماعة في سبيل إصدار بيان سياسي، فما كان منه، وبعد أن صمت كثيراً، إلا أن انفجر بلهجة غاضبة: ما هذا الحديث التافه . . البطالة ضرورية، ولولا البطالة لما كان هناك شعراء كبار ولا فنانون عظام . . خلصنا من هذا

الكلام. . لقد عشت كل حياتي عاطلاً عن العمل ولم أشتك من البطالة، فرد عليهم أحدهم: لأننا يا حسين مردان نعمل كلنا لإعالتك وما مددت يدك في جيبك أكثر مما مددتها في جيوبنا. . وخفت حدة الحوار وتأجلت متابعة الموضوع الى يوم آخر، وضحك حسين مردان لأنه انتصر عليهم: ألم أقل إنني غيرت قيم الأخلاق فأنا الوحيد الذي يمكنه أن يستدين من دون ان يكون له يوم لرد الديون. . فما يستدينه يدخل في قيمة الواردات وسرعان ما تعتبر ديوناً ميتة وغير قابلة الاسترجاع.

وكانت مقاهي بغداد هي مراكز التقائنا الدائم، مقهى الرشيد ومقهى الزهاوي ومقهى البرلمان وغيرها، وكنا نميل من مقهى الى آخر ونحيد عن المرور أمامه، لا رغبة في التغيير، ولكن لأن ما تحقق لصاحب المقهى من الديون بذمتنا ما عاد له أن يسمح لنا بارتياده، فنهجره الى حين نوفر من المال ما يمكن أن نسدد جزءاً من تلك الديون، وفي صفحة من صفحات ذكريات أستاذنا الفاضل إبراهيم الوائلي، يحمل الى ذاكرتنا صورة دقيقة عن مجلسنا في مقهى الرشيد قائلاً:

نحن في أوائل العقد السادس من هذا القرن والمقهى ما زال مزدحماً بالمرتادين والحاج حسين يجلس الى صندوقه عند الباب، والكهل الطيب يفترش الصحف قرب باب المقهى وقد نشر الصحف والمجلات، وهو في كل صباح ومساء يطوف داخل المقهى ويوزع الصحف على الراغبين في قراءتها ويأخذ من كل واحد أجراً لا يتجاوز عشرة فلوس.

انتقل بعضهم الى مقاه أخرى، وبقي رواد الشطرنج والنرد والنرجيله، واصدقاء ما زالوا يترددون صيفاً أو يستدفئون شتاء في أوقات الراحة ومنهم خاشع الراوي وفؤاد عباس وعبد القادر رشيد الناصري، وهؤلاء الشعراء والأدباء ودعوا الدنيا الى ظلام القبور.

ولكنني ما زلت أرى الشاعر شفيق القيماقجي يأخذ مكانه الى جانب خضر العباسي، وقد يرتاد المقهى الصحافي المتنوع عبد القادر البراك، فينتحي جانباً مع عشيقته النرجيلة، وهو يحيي عارفيه بابتسام وتواضع.

«والشاعر بلند الحيدري يسلم ويجلس وهو يمزح الضحكة الخفيفة بالانفعال والتذمر من فراغ الجيب، ولكنه لا ينسى الحديث في الشعر واللغة والأدب، ولعله كان يوافقني في الرأي أن الشاعر بلا لغة كالجندي بلا سلاح، وكثيراً ما يدخل الشاب النحيل بدر شاكر السياب وهو يتهادى في مشيته ويتأبط كتاباً، فيجلس ويشارك في الحديث، وفي مقعد قريب يجلس الشاعر حسين مردان والسيجارة لا تفارق شفتيه وأحاديثه في الشعر والنقد».

وما لم يقله هذا الأستاذ الفاضل، هو أنه كان من القلة من أساتذة الأدب واللغة الذين انتصروا لتجربتنا الشعرية الجديدة، وإن كان لا ينفك يأخذ على البعض منا ضعف لغته، ويشدد بدعوته لضرورة تقويم لسانه وقلمه كي لا ينال من شعره، المترصدون لزلاّته وسقطاته اللغوية.

وفي ١٩٤٦ كانت لنا دار نشر صغيرة، او بالأحرى اسم لدار نشر، نجتمع لها في مطبعة.

وسميناها «الوقت الضائع» صدر عنها عددان من مجلة بهذا الاسم، وأول ديوان شعر لي «خفقة الطين» ومجموعة قصصية لنزار سليم باسم «أشياء تافهة» وسرعان ما قضت نحبها بعد أن شن عليها الآخرون هجوماً عنيفاً لتناديها بالأدب الجديد، وفي بعض الجدران المدرسية كتب البعض جملاً في السخرية منها «وقت ضائع قراءة الوقت الضائع» حتى أن الفنان الكبير جواد سليم كتب لأخيه مازحاً: أسوأ ما في الوقت الضائع الشعر والسعر، وكانت فاتحة العدد الأول قصيدة طويلة لي باسم «الجحيم».

ثم كان لنا مقهانا الذي سميناه «واق واق»، وأضفنا إليه في مجالسنا: ملتقى الأدباء والشعراء والعشاق، وقد أفردنا غرفة في سطح المقهى لسكن حسين مردان، فخلد فيها الى شيء من الراحة بعد أن تعب من النوم في الفنادق الرخيصة ومقاعد الشوارع وأرصفتها ومقاهيها، إلا أن عمر المقهى لم يكن بأطول من عمر الدار، فقد أصبحت ركناً لرجال الأمن الذين يتوجسون الخيفة من هؤلاء الشبان الذين يتحدثون بلغة غير مألوفة ومملوءة بالكلمات الأجنبية التي بدت لهم وكأنها رموز لأشياء خطيرة. السريالية، التكعيبية، الدادية.. بيكاسو.. رمبو انشتين الخ، وأخذ زبائن المقهى من الأدباء والشعراء والعشاق يحجمون عن الحضور إليه، حتى انتهى به الأمر الى أن يكون ركناً لرجال الأمن ولحسين مردان ولشلة من الذين أسهموا بتمويله.

* * *

تعرفت الى حسين مردان في أواسط الأربعينات، وقبل أن ألتقيه وجهاً لوجه، على صفحة من احدى الصحف اليومية التي كانت تصدر آنذاك، وكان اسمها على ما اتذكر «طريق الشعب»، وكان قد اهدى لي من خلالها قصيدة، لم تكن لتختلف بشيء عما كان مألوفاً في الشعر التقليدي، وقدم لها بأنها مهداة «الى شاعر التمرد والإباء بلند الحيدري». فنسجت على منوالها قصيدة أرد بها على قصيدته وأذكر منها:

أما الإباء فلست تعرف صدقه
ومتى فهمت أو استبنت مشاعري
هذي القصائد كلهن مقابر
لا تعجبن بحسن صنع مقابري
فيها دفنت القلب نتن جيفة
وبها أضم اليوم صمت خواطري

* * *

وما تكاد تمضي أيام إلا ويطرق باب البيت شاب ضعيف البنية، كث الشعر، لم يحلق لحيته منذ أكثر من يومين كما يبدو، يرتدي جاكيتة غامقة اللون، ومن دون ان يعرّفني باسمه،

يسلمني رسالة لا تحمل غير عدة سطور كتبها لي أخي الشاعر صفاء الحيدري، الذي كان موظفاً في مدينة «بعقوبة» القريبة من بغداد، يقدم فيها الي الشاعر حسين مردان ويوصيني خيراً بابن بعقوبة، إذاً أنت حسين مردان. نتعانق كما لو أننا صديقان لم يلتقيا منذ سنوات، وأسحبه الى داخل البيت، ثم الى قاعة الضيوف الواسعة والمزينة بصور لفنانين عراقيين، وسرعان ما أحس بشيء من الارتباك وهو ينقل عينيه في أرجاء الغرفة وأثاثها الوثير وطابع البذخ المتسمة به، ثم بشيء من التحدي يهمس قائلاً: إن ما لم يقله أخوك عني هو أنني من عائلة فقيرة جداً، وأبي شرطي، وتكاد كل عائلتنا تعيش في غرفة هي في مساحة نصف هذه الغرفة، ثم يضيف. . أنا لا أعتقد أن شاعراً مهما يمكن أن يخرج من مثل هذا البيت، أبتسم له، وأعده بأن نلتقي مراراً، فأنا أحس بأنه قريب الى نفسي.

وهكذا كان، وصرت أكثر إيماناً بأن أترك دار العائلة، ولذ لي أن أتشرد معه في الشوارع وأنام معه على الأرصفة، ونستدين من آن لآن مبالغ زهيدة من أصدقاء عائلتي، تقوم بأودنا لأيام معدودات. وتتيح لنا أن نجد سريرين في فنادق من الدرجة العاشرة، ثم نعود بعدها الى تشردنا والسهر الى مطلع الفجر ونحن نتسكع في الشوارع، ريثما تفتح المقاهي أبوابها لنجد لنا على مقاعدها ما يوسع لغفوة قصيرة، وكانت سلوتنا في تلك الليالي الطويلة ما نقع إليه من كتب القصص الزهيدة الثمن، وكان حسين مردان مولعاً بقراءة قصص أرسين لوبين التي كنت أنفر منها لحد لا أشعر فيه حتى من رغبة في لمسها، وذات يوم حمل إلي حسين مردان قصة بعنوان «الجوع» وما زلت أذكر اسم مؤلفها، انه «كنوت هامزن» وقد ترجمها أحمد عرابي باشا على ما أذكر، صرنا نتبادل قراءتها، ونتأسى بأحداثها، ونعود إليها كلما انتهينا منها. . وخلال تلك الأيام السود، أو البيض. . لا أدري؟ كنا نضحك كثيراً، ونتعذب كثيراً، ونكتب الشعر على قصاصات الأوراق التي نلمها من هنا ومن هناك، وكان من بعضها أغلفة علب الدخان، ولكنني كنت أشعر دائماً في أعماقي، بأن مثل هذه الأيام والليالي الطويلة من الجوع والتشرد، لا يمكنها أن تقيم مني شاعراً جيداً، ربما عرفتني بالناس أكثر، وربما عمقت إحساسي بمشاعر الآخرين، ولكن لا بد من شيء من الاستقرار، شيء من الوقت والمكان لقراءة جيدة، وتفتح على آفاق جديدة، فسعيت الى البحث عن وظيفة، وتجاوز عمي غضبه علي، فعينني معيناً لرئيس تحرير «مجلة الزراعة» التي كانت تصدر عن المديرية العامة لوزارة الزراعة وحيث كان عمي يشغل وظيفة المدير العام فيها، واستطعت أن أجد لحسين مردان وظيفة بأجور يومية يكون فيها مسؤولاً عن تصحيح المجلة، فهدأت أمورنا لحد ما، وإن كنت قد ازمعت أن لا أعود الى دائرة العائلة، واكتفيت بغرفة في فندق «العاصمة» وحيث تصاقب غرفتي غرفة الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا والذي كان له فضل كبير على إغناء تجربة الحداثة في الشعر العراقي آنذاك.

ثم نفترق، أنا وحسين مردان، وتتغير حياتانا، وتتسع أيامي لحياة زوجية هادئة، ويظل حسين مردان يعيش على منواله، وكنا نلتقي لماماً، ويوم أن صدر ديوان شعري الثاني «أغاني المدينة الميتة»، بشر به وعده «أغاني المدينة الميتة. . أرقى ما وصل إليه الشعر الحديث من التطور. . غير أن هناك شيئاً واحداً في شعر بلند، ذلك هو الوعي الاجتماعي. . إن بلند ما

زال يلتف حول نفسه كالحلزون ولا يطل على العالم الخارجي إلا قليلاً». . وكأنه يعيّرني بأنني لم أستكمل الرحلة معه.

ويوم أن غادرت بغداد الى لبنان في نهاية عام ١٩٦٣، لم يكن في وداعي من كل أصدقائي إلا حسين مردان، الذي همس في أذن ابني: لا تدع أباك يغيب عنا طويلاً. .

ومرة زارني حسين مردان في بيروت، وقبل وفاته بعام تقريباً.

وكان يوم ذاك قد أوكلت إليه مهمة مدير الإذاعة العراقية. . سهرنا طوال الليل ونحن نستعيد ذكريات الأيام السود أو البيض. . لا أدري. . ؟ وأخذ مني ثلاثة احاديث للإذاعة.

ثم افترقنا. . افترقنا الى الأبد، ولم يستطع أن يسكن في البيت الذي شيده، واسهم في مساعدته على تشييده عدد من أصدقائه، لم يستطع أن يعيش فيه غير فترة قصيرة من الزمن. . وحسبه أنه انتصر اخيراً على حياة الفقر والتشرد وأن له في بيته غرفة واسعة. . وكما مات السياب. . ونزار سليم، مات حسين مردان وكلهم في أوج عطائهم.

وحسبه أيضاً، أن حياته كانت مصدر إلهام لعدد من كبار قصاصينا منهم: جبرا إبراهيم جبرا، في قصته «صيادون في شارع ضيق» ومنهم: غائب طعمة فرمان في قصته «خمسة أصوات» وغيرهما.

وإذا لم يكن حسين مردان قد استطاع أن يمد بقامته الى مثل ما كانت عليه قامات شعراء جيله المبرزين في العراق، فإن لشعره ما تميز بخصوصية صوره المملوءة بعنفوانيته ورهافة حساسيته، وعلى الأخص في ديوانه النثري «صور مرعبة» والذي قال فيه الناقد عبد الجبار عباس: «ومهما تكن القيمة الحقيقية لهذه الصور المرعبة، فهي محاولة تجريبية خاصة، في مجال النثر المركز، الذي يعد حسين مردان أحد أعلامه في أدبنا الحديث، إن لم يكن بالمستطاع التدليل على أنه أحد رواد الحداثة فيه، حين نقله الى مرحلة النضج، مضامين وأداء، بما ميز هذه المرحلة عن المحاولات الساذجة الكثيرة منذ أوائل العشرينات».

١٩٨٨/٥/٢٥

استانبول جميلة
عذبها جمالها

لم تعش مدينة في ذاكرتي، وأنا صبي، كما عاشت مدينة استانبول. وذلك لكثرة ما كنت أسمع عنها من والديّ اللذين قضيا فيها ردحاً من الزمن، وكان لهما فيها أيضاً أجمل سني حياتها، فاستانبول أجمل مدينة في العالم ولا يمكن لأية مدينة أن تضارعها جمالاً، في نظرهما، وعبر الوصف للبسفور وآثارها، وحلاوة فتياتها، وسحر شواطئها، وغنة لغتها، ورقة صوت مغنيها المشهور منير نور الدين، ومغنيتها صفية هانم، كانت استانبول تكبر وتكبر في مخيلتي ويكبر شوقي لرؤيتها في يوم ما.

ويشب الصبي عن الطوق، وتصير له مسارب الى الأدب التركي الذي كانت والدتي لا تنفك تتغنى بمقاطع لشعرائه الكبار، وتستعيد صوراً من قصة «الوطن» لنامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨)، ثم يكون لي، وكما كان لغيري من أدباء جيلي، أن نقع الى ناظم حكمت، ونتلمس من خلال قصائده جدته وبساطة صوره وحبه العظيم لشعبه ووطنه، وخروجه على نظام الشطر في الشعر التركي، مما كان يدنينا من أجوائه ويستنفر حماستنا له، وفي أوائل الخمسينات تسلمت رسالة من زوجته، تحثني فيها على جمع تواقيع كبار الأدباء العراقيين لإطلاق سراحه، وكان بصحبة الرسالة إحدى قصائده التي كان قد بعث بها إليها من السجن، والتي سرعان ما قمت بترجمتها ونشرها في جريدة «الأهالي» البغدادية، دفاعاً عن سليل الارستقراطية التركية وابن باشاواتها الذي استنكر مباذلهم فاقتصوا منه بالسجن والتشريد.

وتكبر المدينة في الحلم، وتعمق صلتنا بناظم حكمت ونكثر من تغنينا بشعره، ويصير لاستانبول أن توجز في ذهني كل أبعاد تركيا التاريخية والجغرافية، ولم يتسن لهذا العاشق أن يرى معشوقته إلا في أواسط الستينات، حيث قطعت الطريق إليها بالسيارة من بيروت، ثم صار الطريق الوعر والمخيف، ممراً مألوفاً أعود إليه من آن لآخر تلبية لشوق جديد لرؤية هذه المعشوقة الفاتنة.

هذه المعشوقة التي ربما لم تعش التأريخ أسطورة، كما ولدت فيها يوم أن قام بتأسيسها، حجراً حجراً، وعلى تلة خضراء، اتسعت منافذ على البحر الصاخب تحت قدميها، شاب مفتول العضل، تغرق عينيه زرقة صافية لطول تحديقه في مياه البحر، أشعث الشعر، كثه، وقد ألقى به والده، «سيد البحار» «بوزيدون» على شاطئها، فاتخذها مستقراً له، وشيد عليها الفتى «بيزاز» مدينته بعد ان أتعبه الطواف في البحار. فكانت إستانبول.

أقول: ربما لم تعش التاريخ أسطورة، فقد ولدت وكبرت وهي لا تعرف غير الحرب والقتال، حتى خشن جلد أبنائها وضاقت عيونهم من كثرة ترصدهم البواخر والزوارق العابرة بهم صباح مساء، وكادوا أن لا يفهموا شيئاً غير الوقوف على التلة الخضراء، وقد شدت أيديهم على مقابض سيوفهم المرصعة بالجواهر والدرر، ولم يبق من الأسطورة ولا من بيزاز، غير سحر عناق طويل بين البحر والجبل ووشوشة الحديث المستمر بينهما بلا ملل وهما يكرران عبره قصص الولادة الأولى للأرض، بكثير من السذاجة.

ثم كان أن نسيت الأسطورة، فلم تروها شفة، وحلت الأرقام محلها، بصلابة حدودها وقسوة دقتها، فالتاريخ كما قال صديقي أستاذ التاريخ «محمد باش طاشي»: لا يقبل العبث به، بمثل هذه الأساطير وأحسست به وهو يقول لي ذلك يستجمع في عينيه المتوقدتين، كل التواريخ والتي كان أن حفظها عن ظهر قلب لطول ترديدها.

وكما سره ان يجد فيّ تلميذاً نجيباً له، لا يضيق ذرعاً بمعلوماته كما يضيق بها طلابه عندما يحدثهم عن تاريخ إستانبول، سرني منه أنه كان يلبي طلباتي دون تأفف وإن قضى من نهاره شطراً كبيراً معي ونحن نقلب في سراديب الأسواق العتيقة المخطوطات العربية التي جاء على أكثرها التلف لسوء صيانتها، وكان وجهه يشرق بابتسامة واسعة إن عثرت على مخطوطة ورجوته أن يساوم البائع في ثمنها، حتى إذا ما هبط المساء انتبذنا لنا مقعدين في أحد المطاعم على البسفور وتركت له زمام الحديث عن إستانبول: إنها مدينة من القرن السابع قبل الميلاد، وبالتحديد تعود لعام ٦٥٧ قبل الميلاد، وقد احتلها أول من احتلها «الأرغسيون» وهم من الأقوام اليونانية المنسوبة الى مدينة «أرغوس» أقدم المدن اليونانية، وكان جل همهم أن يجعلوا منها إحدى مدن صيد السمك المهمة في العالم القديم، فكبرت موانىء ومرافىء توصل بين بحرين وتنطلق منها الى عوالم جديدة، ومع تزايد أهميتها ازداد طمع الطامعين بالسيطرة عليها، فسعى لاحتلالها في العهد الروماني الأول فيليب الثاني ملك مقدونيا غير أن محاولته باءت بالفشل، وفي ٤٩٦ ق.م احتلها الروماني «سبيتموس سفيربوس» وأخضع قرنها الذهبي المطل على البسفور لإرادته ردحاً من الزمن لم يدم طويلاً، من ثم احتلها قسطنطين الروماني، الذي عمل فيها تهديماً وتعميراً، ومدها بكل ما يوسع أبوابها للتجارة الى جانب تقوية مركزها الاستراتيجي، ولم يكتف بذلك بل سعى الى ابقاء أثر إبهامه عليها، فغيّر اسمها من «بيزنطية» حلم «بيزاز» الى «قسطنطينية» المشتقة من اسمه، واتخذها عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية.

ويصمت طاهر باش طاشي للحظة من الزمن، ويختلط صوت نفسه بقرقرة أرجيلته،

وتغور عيناه بعيداً عني، ثم يعود إليّ وهو يبتسم إذ يراني ما زلت ممسكاً بالقلم لا تسقط كلماته كلمة.. كلمة.

● **ما أقوله ليس جديداً وقد تعثر عليه في أي كتاب، فلماذا..؟**

ـ أدري.. ولكن قد لا يتسع وقتي لمثل هذه الكتب، ولذا أوثر أن يكون لي من حديثك شيء أحتفظ به.

ثم يواصل حديثه: ورغم مظاهر الاستقرار وطول أمد حكم الرومانيين فيها، والذي امتد الى القرن الخامس عشر، كقاعدة للإمبراطورية البيزنطية، لم تعرف المدينة سلاماً حقيقياً.. الزلازل هاجمتها.. شعوب اخرى هاجمتها من الحدود الروسية، كما تعرضت لهجمات الفتح العربي، وفي حزيران عام ١٢٠٤ اجتاحت أراضيها الموجة الصليبية الرابعة ولغاية عام ١٢٦١، وفي عام ١٤٥٣ توجت الفتوحات العثمانية بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح وانتهى بذلك تاريخ ليبدأ تاريخ جديد، تصير فيه إستانبول الجميلة مقراً لحكم السلاطين من آل عثمان، ثم يؤول أمرها الى قائد تركي من مواليد سلانيك، اسمه مصطفى كمال والذي لقب «أتاتورك» أي أبو الأتراك، وذلك في عام ١٩٢٣، فنقل مقر الحكم منها الى «أنقرة» لتوسطها البلاد التركية ولأهميتها الصناعية، ولم يزل الأمر كذلك وإن بقيت إستانبول المدينة الأولى في تركيا وأنقرة المدينة الثانية.

أغيب عن صديقي عدة شهور ثم أعود إليه، لنواصل حديثنا عن إستانبول وزيارة آثارها التي خلفها الرومان، وعدد من جوامعها التي نيف عددها على ثمانمئة وخمسين جامعاً، بنيت خلال العهود السلطانية الأولى.. وفي ١٩٨٥، كانت زيارتي لإستانبول قصيرة جداً، فاكتفينا أنا وصديقي طاهر، بزيارة جامع «السليمانية» الذي قام بتصميمه والإشراف على بنائه المهندس التركي المبدع «سنان» الذي لقب بمايكل انجلو تركيا لكثرة ما أقام من أبنية رائعة ومساجد ومدارس. وإبداعه، كما يقول طاهر: يقوم على كونه نقل جمال العمارة الإسلامية الداخلي الى خارجها أيضاً، بحيث يكون لها أن يتماثلا من الداخل والخارج.. تأمل هذه المآذن الرشيقة، وهي تحرس القبب الطائرة في السماء بإيقاعات متوازية.. تأمل هذه الألوان الرائعة بانسجامها وتلك الزخارف الأنيقة.. هل تدري يا بلند.. لقد أحالوني على التقاعد لكبر سني بعد أن تجاوزت سن التقاعد بعدة سنوات.. ولعل العمل المناسب لي الآن أن أصبح مرشداً للسياح، خاصة العرب منهم فلقد كان لبغداد التي عشت فيها سنين طويلة ودرست فيها في أيام الحكم الملكي، أن جعلتني أتقن اللغة العربية... وابتسم ابتسامة كئيبة فقلت له: إذن سأكون أول هؤلاء السياح يا طاهر، ومددت يدي في جيبي، فضغط عليها وهو يقول: من كل الناس إلا منك يا بلند.. أرجوك أن لا تخجلني.

وفي عام ١٩٨٧، زرت إستانبول مرة أخرى، ولم يستقبلني هذه المرة طاهر باش طاشي، بل ابنه الكبير الذي خبرني بوفاة والده، واعتذر لي لأنه لن يستطيع أن يقوم بالنسبة لي مقام ابيه، فقلت له: لقد عرفني أبوك بكل روائع إستانبول وسيكون معي دائماً.. رحمة الله عليه.

١٩٨٨/٦/١٥

تعقيب حول حسين مردان
لم يكن شاعرا ولا عبقريا

كتب الأستاذ بلند الحيدري في صفحته «الثقافة والأدب» في مجلتكم «المجلة» الغراء، العدد المرقم ٤٣٣ عن رفيقه «الحميم» حسين مردان بعد أن التقى بالأديب السعودي عبد العزيز السنيد الذي سأله معاتباً: «أما آن لك أن تقول كلمة عنه - أي مردان -؟»، فما كان من الحيدري إلا أن يستجيب للطلب العزيز وكان الأحرى بعبد العزيز السنيد، أن يبادر هو الأول في أحياء ذكرى «مردان» الذي وصفه أصدقاؤه ورفاق «دربه!» بالفيلسوف وهم يشككون بـ «فلسفته» وادعائه الفلسفة. وأين «حب الحكمة» في رجل يقول عن نفسه: «إنني مغرور الى حد الهوس لأنني أؤمن بنبوغي وتفوقي أكثر مما أؤمن بوجودكم». وأين روح التعاطف ورهافة الحس في الشاعر وهو الذي يفرحه موت أحد خلانه حيث يكون في غاية «السرور والارتياح!» حتى إنه ليشعر في أعماق نفسه أنه «الحي المنتصر على الموت، الساخر من الحياة» وانه الوحيد الذي يحيا رغم أنف الموت والقدر، إن لم يكن هو القدر - كما زعم -!

إن حسين مردان نفسه لا يعترف بكونه شاعراً إلا أن معارفه هم الذين يلصقون به هذه الصفة وهو لم يقدم لعالم الشعر إلا «حفنتين أو ثلاثاً» من «الكلمات البذيئة». الأولى أسماها «قصائد عارية» وكانت عارية من «الأدب» بمعنييه الاثنين، والثاني «صورة مرعبة» وقد أرعبت «الشعر» وهزمت «النثر» حيث أن الرعب والهروب قد اوحيا له أن يسمي شعره المنثور! ونثره المشعور! - دونما ادراك ورؤية وروية - «نثراً مركزاً» وكأنه خرج على الأدب بـ «أدب جديد» لا يطاله «أدب!» ونثره المركز كان لا يستوحيه إلا من (. . .)

إن حسين مردان جملة غامضة فقدت معناها، ودخلت أفواه «الشعراء والأدباء» - دونما استئذان - فكاتب «ذكريات مع حسين مردان» السيد عبد العزيز السنيد في باب «الى المجلة» - العدد ٤٤١ - يصف «مردانه» بعدم التبجح فيقول موجها كلامه الى بلند الحيدري: في حديثه الأول معك لم يتبجح وإنما قال لك: إن والده شرطي، وأن عائلته تعيش في غرفة مساحتها نصف مساحة غرفتك، هذا في الوقت الذي يقول عنه الحيدري: كان يتبجح حيثما

جلس والتف حوله نفر من الشعراء والأدباء والصحافيين بأنه هو الذي نهض بشاعريتي وبأني كنت أكتب من وراء نوافذ قصر العائلة، وصيرني أكتب من مقاهي بغداد وأزقتها وأناسها البسطاء، ومن ليالي التشرد، وكان يكرر على مسمعي دوماً إذا صار لك أن تصبح شاعراً معروفاً فلا تنس أن ذلك كان بفضلي أنا. . انا حسين مردان!»

وإنني لأعترف بـ «العبقرية» التي سماها «السنيد» العبقرية المردانية! وذلك لأنه حذق في لم شعث «الكلمات البذيئة» التي خالفت لتعرف ولأنه أجاد صنعته بحيث أثار «المحاكم الجنائية» ليصبح بعد ذلك أول شاعر يحاكم في العراق أواسط الأربعينات.

ويقول الحيدري: «وهو إذا ما اخذ مجلسه تدفقت كلماته يسرة ويمنة كسيف ذي حدين يجرح حيثما وقع، وما كان أحد يسلم من لسانه الذرب» فهل هذا هو الشاعر الحقيقي الذي تتدفق ينابيعه الصافية البريئة لتغسل هموم الآخرين، وتمتلىء أوداجه بالكلم الطيب؟!

وحين أراد «المتشاعر مردان» أن يتعالى على الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري كما تعالى على غيره ممن تقدموا عليه علماً وثقافة وأدباً وتاريخاً وواقعاً، فإنه كان يهدف الانتقاص من «العبقرية» التي افتقدها هو ووجدها في «الجواهري»، فانتخاب «أبي فرات» رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين حز في نفس «العبقري مردان» فاستغل وجود «الجواهري» بين «ذنون أيوب وبلند الحيدري»، وحاول أن يكسر شوكته بمجادلته وإغاظته لأنه - أي حسين مردان - لم يختر رئيساً ولا حتى عضواً في الهيئة الإدارية لأن الاتحاد المذكور كان يأبى أن يحتضن رجلاً متمزقاً!

ولأول مرة في حياته «الصاخبة الضائعة الطائشة» وفقه «الطالع» ان يحظى برعاية وزير الثقافة والإعلام العراقي - آنذاك - شاعر «الفرسان!» شفيق الكمالي حيث أمر بتعيينه معاوناً لمدير إذاعة بغداد - وهو خريج الدراسة الابتدائية! - بعد أن اختلق له نقيب الصحفيين العراقيين سعد قاسم حمودي عشرين سنة وواحداً وعشرين يوماً (خدمة في الصحافة) ليؤهله الى وظيفة «سكرتير تحرير» المتسحدثة آنذاك.

وحسين مردان نفسه لم يخدم الصحافة العراقية هذه المدة بطولها وبعرضها، بل كان يتسكع على دور الصحف والمجلات العراقية باسم «العمل الصحفي أو الأدبي!» وليس أدل على ذلك من قوله في أحد مجالس كبار السياسيين المعارضين، وكانت المناقشة حامية وحادة حول البطالة وكثرة العاطلين عن العمل «ما هذا الحديث التافه؟ البطالة ضرورية، ولولا البطالة لما كان هناك شعراء كبار وفنانون عظام. لقد عشت كل حياتي عاطلاً عن العمل ولم أشتك من البطالة» فرد عليه أحدهم: «لأننا يا حسين مردان نعمل كلنا لإعالتك، وما مددت يدك في جيبك أكثر مما مددتها في جيوبنا» - ويجد القارىء الكريم نسخة من كتاب تعيينه الرسمي بين سطور هذا المقال.

إنني لم أفهم ما كان يقصده الشاعر بلند الحيدري حين قال: «إن عمر المقهى لم يكن بأطول من عمر الدار فقد أصبحت ركناً لـ «رجال الأمن» الذين يتوجسون الخيفة من هؤلاء الشبان الذين يتحدثون بلغة غير مألوفة ومملوءة بالكلمات الأجنبية التي بدت لهم وكأنها رموز

لأشياء خطيرة، السريالية، التكعيبية، الدادية.. بيكاسو.. رمبو.. انشتين الخ، وأخذ زبائن المقهى من الأدباء والشعراء والعشاق يحجمون عن الحضور إليه حتى انتهى به الأمر الى أن يكون ركناً لرجال الأمن ولحسين مردان ولشلة من الذين أسهموا بتمويله!»

هل كان الحيدري يقصد زج رفيق العمر حسين مردان بمهنة «التصعلك» ومراقبة الآخرين!!؟ ولا غرابة فقد كان مردان مولعاً بقراءة قصص أرسين لوبين (البوليسية!) والتي كان ينفر منها بلند الحيدري.

وإنني لأعتب على السيد عبد العزيز السنيد عتباً مراً لأنه قال «إن شخصية حسين مردان تمثل الشخصية العراقية الأصيلة بعنفوانها ـ ولا أدري ماذا يقصد بالعنفوان هنا. وهذا تجنٍّ على الشخصية العراقية التي لا يمثلها حسين مردان ولا من لف لفه لا من قريب ولا من بعيد!

وعبد القادر رشيد الناصري الذي ذكره «الحيدري والسنيد» لا يقلّ ضياعاً عن نده «مردان». ولقد أثار «السنيد» حفيظتي حين لم يذكر من «الناصري» شيئاً إلا قصائده في (المظاهرات) الوطنية في شارع الرشيد وهذه صفة لم يذكرها «ذاكروه القلة!» لأنه لم يكن إلا شخصية «معقدة شاذة».

والأستاذ نجيب عبد الرحمن المانع قد أصاب قلب الواقع حين قال في ذكرياته «ذكريات عمر أكلته الحروف» في صحيفة «الشرق الأوسط»: «كان حسين مردان في مجلس أدبي فأعجبه أن يسيء الأدب فقال لأحدهم بلا مقدمات: طردناك من اتحاد الأدباء فأجابه هذا: أنا الذي طردت نفسي اذ لا أريد البقاء فيه. وأصر حسين مردان على قوله مع انه لم يكن عضواً في الهيئة الادارية للاتحاد. ثم قال: «أتدري لماذا طردناك؟ لأنك لست اديباً، فقال هذا: وهل أنت أديب يا حسين؟ فأجابه حسين مردان: أنا لست اديباً وديواني «قصائد عارية» هو أساس الشعر العربي الحديث كله!!»

ومما يحز في أعماق النفس أن الأخ الأديب عبد العزيز السنيد لم يعترف بكون «مردان» قد أساء الأدب فقال: «إن حسين لم يسيء الأدب كما يتهمه ـ المانع ـ ولم يجابه الرجل بحديثه إلا وهو مقتنع بأن هذا الرجل لم يكن جديراً بعضوية اتحاد الأدباء لهذا السبب او ذاك» فماذا نسمي الذي يحشر نفسه حشراً في الحكم على الآخرين. و«السنيد» في ختام حديثه عن «الراحل حسين مردان» قال: «ويا حبذا لو تشكلت لجنة من أصدقائه لإعادة شعره «المنشور» ومقالاته، وعمل دراسة عن حياته ومواقفه الأدبية تتناول «قفشاته!» وتقويم شعره وأفكاره» ولست أدري! هل قال عبد العزيز ذلك من باب المجاملة ام لا؟

مات «حسين مردان» بعد أن كان يؤمن بأنه هو الموت والقدر، وأنه الشاعر الذي عاش حياته وكأنها قصيدة «رائعة» لا تطولها الروائع؟ ولا تنجب القرائح مثيلها.

كاظم محمد الطباطبائي

اركنساس ـ الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٨٨/٨/١٧

جرش
عبر غياب الأصدقاء
وحضور الشعراء الشبان

لولا حسن ظني بأهل بيتي من شعراء جيلي لذهبت الى القول بأنهم تواطأوا وتآمروا عليّ، عندما أفردوني وحيداً في مهرجان «جرش» لهذا العام، أجوس خلال أماسيه، متميزاً بصلعتي المصقولة وبقية من الشعر الذي وخطه الشيب، وسط جيل من الشعراء الشبان الذين كثف شعرهم حتى اختلط بلحاهم الكثاء، حتى بدا لي من ذلك، وكأن هذا الشعر وتلك اللحى من بعض صفات الشعراء الجدد.

لقد منيت نفسي بالكثير مما وعدني به دليل المهرجان، فثمة نخبة من الأصدقاء سألتقيهم، وسيكون لي من لقائي بهم فرحة الى جانب فرحي بمشاهدة مسرحية «ترويض النمرة» لشكسبير، ومشاهدة أوبرا «ريجوليتا» وسيكون لنا مرة أخرى أن نمد بأحاديثنا الى ساعة متأخرة من بعد منتصف الليل، ونحن نستعيد ما قطعته عنا سنوات الغربة والتنائي، بعد أن شتت ببعضنا بعيداً عن أرض الوطن، ولشد ما كانت خيبتي كبيرة عندما عرفت بأنهم لم يحضروا، فلا البردوني سيجيء من صنعاء، ولا البياتي يقبل بمفارقة مدريد، ولا أدونيس يرضى بالغياب عن باريس، ولا أحمد عبد المعطي حجازي يمهله عمله الجديد ليوسع له باباً لمغادرة القاهرة، ولو لأيام معدودات.. ولا.. ولا.

ومع ذلك وإن كان ما افتقدته بغيابهم كبيراً علي وعلى المهرجان كله، فقد اتاح لي ذلك، أن أكون الهرم المدلل بين هؤلاء الشبان البررة، والذين صار بعضهم يناديني باسمي حافاً ومن دون أي من نعوت المجاملة وكأنني من بعض جيلهم، وصرت عند الشاعر محمد آدم والصحفية منية سمارة «عمو بلند» حتى خشيت من أن يكتشف آخرون ما يمد بي الى أن يكون حفيدي فأكون «جدو بلند»، وكرمني الأخ الشاعر علي الفزاع، بصفته مسؤولاً عن الشعراء، فوفر لي سيارة مرسيدس، وثيرة المقاعد، لتقلّني الى «جرش» ساعة أريد وتعود بي ساعة أريد، فعفاني بذلك من الهلع الذي كان يلازمني سابقاً، وكلما حملنا الباص الكبير الى «جرش» وهو يتأرجح ويتأوه بين دروب الجبل الضيقة، فأشغل نفسي وزملائي في الباص الكبير، بترديد ما

سمـوه «نشيد جـرش»، ونحن نضحك علنـاً ونسأل المولى سراً ان نصـل بالسـلامة ونـرجع بالسلامة:

يــا ســاعـيــاً الى جــرش
وعــقــلـه بهــا انــخـرش
لــو رش قــلـبـي فــيــك رش
مــا هــاب ذا ولا انــكــمش
بــل هش مــبــســمــه وبش
وصــاح في صــوت اجش
نموت ولتحيا جرش

* * *

كما تغيب عن الأماسي الشعرية عدد آخر من أسماء شعرائنا اللامعين، وإن كان حضورهم لم يفارقنا عبر عطاءاتهم، فالساحـة الأدبية في الأردن ثـرية بمثـل هذا العـطاء، فما تكـاد تغيب عنها عاماً وبعض عام، حتى تعـود إليها وقـد امتلأت مكتبـاتها بـالعديـد من دواوين الشعراء الشبان والشيوخ الجديدة والتي سرعـان ما تتحلق حـولها مجـالس الأدب وأقلام النقـاد في نقد متزن حيناً وفي تجريح مغرض في حين آخر، وفي مدح وإطـراء في أحيان أخـرى، ويبقى من ذلك كله جانبه الإيجابي، الذي يدفع بالشاعر الأردني الى مراجعة دائمة لعطائه، ومحاولة دائبة لأن يكتشف خصوصية نبرته ووضوح ملامحـه، وعبر كثـير من الصرامة النقـدية في المـراجعة، وعبر الكثير من التواضع في المحاولة، والكثير من التساؤل عن جدوى جديـده ما لم يكن فيـه إضافة الى ما هو موجود، حتى لتكـاد لا تلتقي بأي من هؤلاء الشعـراء الشبان، إلا ويبـادرك بدعوته لأن تنقد تجربته وتضـع يده عـلى هناتهـا، فهذه شـاعرة أردنيـة، تكرمت فحملت اليّ بواكيرها الشعرية المتسمة بنسيج من الخواطر العاطفية، مصحوبة برسالة منهـا، جاء في بعض فقـراتها: «.. ولأن الكتـابة شعلة متقـدة في ذاتي ترفض الاستسـلام أبـداً لجـأت الى كتـابـة الخواطر الشعرية، فالخاطرة أجمل ما يزينها، أنها ترتدي أي ثوب تريد، فهي ثائرة متمردة على كل القوانين، ولا أكذب إن قلت بأنني أجد فيها متنفسي، ولكن هذا الحنـين القاتـل في ذاتي الى الشعر يأبى إلا أن يشعرني دائماً بضعفي.. هذا الضعف الذي أكرهه وأرفض الاستسـلام له.. أضع خواطري بين يديك، وكلي ثقة بآرائك الحكيمة، وإنني لعـلى استعداد لتقبـل أي نقد كان، علني أستطيع أن أعرف أين أنا على طريق الأدب والأدباء».

ومثل هذا القول حمله اليّ إهداء لديوان من أحـد الشعراء يقـول فيه: «أهـديك ديـواني لا لتشيح بوجهك عنه، بل لتقول لي إذا كـان عليّ أن أستمـر في الشعر أم أنقـطع عنه»، ولهـذه الشاعرة الشابة الملأى بطموح أخاذ، ولهذا الشاعر الذي يـريد أن يحملني مسؤوليـة خطرة.. أقول لهما: إياكما أن تطمئنا لحكمة الشيوخ، فهم إن أخلصوا في قولهم لكما، فلن يقدمـوا غير

ما انتهوا إليه من تجاربهم الخاصة وليجعلوا منكما نسخة مكـرورة عنهم، وعليكما ان تبـدآ من حيث يكون لكما أن تبدآ منه في الجدة. . وأن من رق قلبه عليكما منهم سيضلكما عن غـايتكما بالمدح والإطراء الكاذبين، ومن قسا قلبه، سن نواجـذه وقواطعـه ليغرسهـا عميقاً في لحمكـما الطري، إدلالاً منه على طول باعه وعلو كعبه في اللغة وأصول قرض الشعـر، وكل غـايته أن يرعبكما بالذي أنتما مقدمان عليه. . . أيتها الصديقة الشاعرة وأيها الصديق الشاعر. . كونا في عصركما وخذا منه ما يتواصل مع تراثكما، وكونا في تراثكما على أن لا يصـير سجناً لكـما، بل زاد طريق يغذي خصوصيتكما بذائقته المتميزة. . وكونا في واقعكما المحلي لتستلهما معطياتـه في الصورة والرمز، واجتهدا في أن تطورا إمكانـاتكما الأدائيـة، إن صرتما الى كـل ذلك، فـإنكما واقعان حتماً الى ما يعطيكما فرادتكما. . وسأنتظر أن أسمع عنكما الكثير.

* * *

يرد المفكر الـروسي «بليخانـوف»، نزوع بعض العبـاقرة من الشعـراء الى التجديـد، وكما حصل مع بوشكين «١٧٩٩ - ١٨٣٧» الى أثر الظروف العصيبة التي تمر بهـا شعوبهم، فتـدفع بهم الى الانكفـاء على ذواتهم لاستنبـاط أساليب جـديدة تخـرج بهم عما هـو مألـوف في شعـر غيرهم، وهؤلاء هم المجددون المبدعون الـذين وقعنا الى أمثـالهم في أواخر الفـترة العباسيـة، وقد تدفع مثل هذه الظروف بغير هؤلاء من الشعراء، الى أن يلتصقوا بخيالهم الضيق وذهنهم ليتلهوا بنظم الأحاجي والحزازير، والتنطع بالتصنيع اللغوي والمعميات المفتعلة ومـا يعاضلهـا من مماحلات لا طائل تحتها، وقد تنهض بهمم الشعراء للوقوف ضـد تلك الظروف العصبيـة والخـروج عليها، فـالشاعـر قائـد فكر أيضـاً وأن عليه أن يعمق حس التصـدي لدى النـاس وحس الحث والتحـريض، فنقـع من ذلـك الى أنـه راغب في الشغب، ضمن ضربـين من الشعراء، ضرب وظفته السياسة فتسطحت انفعالاته ليقدم الى العامة من النـاس ما يمكن أن يلوكـوه بسهولـة، وفيـه الشيء الكثـير من الإسـاءة إلى الشعـر، وضرب عـرف كيف يـوظف السياسة في بعد درامي، فيكون لـه منها مـا يصل الى النـاس وما يبقي للشعـر حسن توهجـه وتألقه.

وأيام هذا المهرجان أتاحت لي أن ألتقي بالعديد من هـذه النماذج من الشعـراء، فإذا كـان هناك من أزبد فمه بالخطاب السياسي المباشر، وإذا كان هناك من أكل عـليّ نصف ليلتي وهو يدحرج في أذني صوراً مشوهة لسحال وكلاب بلا أرجل وطيور بلا أجنحة وبحـار وسعادين، على غير ما غاية تنتظمها في صورة أو معنى أو رمز، فقد كـان لي أيضاً لقـاءات مع نخبـة من الشعراء الأردنيين الجدد، والذين لم أفطن من قبل الى أهميـة البعض منهم، وحسبي من ذلك أن أذكر الشاعرة سلوى السعيد في ديوانها الأخير «صرخات على جـدار الصمت»، فهي بحق شاعرة متميزة، ولم يجانب الدكتور خالد الكركي الصواب في تقدمته للديوان عندما قال:

«انها شاعرة تتجـاوز مرحلة الشكـوى من القهر الى مـرحلة الجهر بـالأسئلة الصعبة حـول الاستقـلال الشخصي، وحـريـة القـرار والتضحيـة من أجـل قصيـدة قـد يقف في وجههـا الكثيرون. . فقط لأنها صادقة»، وهذا الصدق الذي يميز تجربتها يهبها فرادتها.

إنها تسير في طريقها على مهـل، ومن دونما تكلّف يشينهـا، وأنها تعرف جيـداً كيف توظف الجزئيات حول بؤرة رئيسية تنطلق منها تلك الجزئيات والتفاصيل لتعود إليها ثانية في الصـورة الكلية التي تتماسك فيها كل أطراف القصيدة.

تبكي نوافذنا العتيقة حين تسألها عصافير الصباح
هل أتى منهم خبر..؟
ويذوب عنقود الدوالي ضامئاً
وتموت أوراق الشجر
وترف نجمات بعتم الليل فوق ديارهم
يا ليل قد سرقوا القمر
أضحت منازلهم بلا أنوار.. أو زوار
ومواقد الأحباب
في تشرين أطفأها المطر..

الصورة تنمو في القصيدة من خلال تحرك الجزئيات، حتى إذا ما وصلت الى قولها «ومـواقد الأحباب أطفأهـا المطر» استقـام لها مـا يمد بهـا الى الرمـز عندمـا يتحول المـطر، رمز العـطاء والإثراء، الى سبب في إطفاء نار القرى.. أليس غنانا اليوم هو من بعض فقـرنا...؟ وكـل ما يمكن أن أهمس به في أذن هذه الشاعرة الأصيلة، هو أنها صاحبة القصيدة القصيرة التي لها أول ووسط وأخير، فالحذار من أن تجرها الرغبة في التطويل الى ما هي ليست بحاجة اليه.

***

«شغب» ديوان صغير، لشاعر أردني لم أره، وعلى كثرة ما جالسته، تاركاً أمره لقارئه، وقـد يذيل إهـداءه لبعض من يعرفهم بكلمـة لا تخرج بـه عن التمني «... وعسى ان يعجبك»، وما أعجبني في ديوان هذا الشاعر كثير من حيث نهوضه بالصـور الحساسـة، ومن حيث انتقاء مفـرداته، ومن حيث بنـاء إيقاعـات القصيدة دون ضجيـج مفتعل، ومـا لم يعجبني فيه يـظل قليلاً، ومن هذا القليل ما كان يطبعه على غرار بعض شعرائنـا المولعـين بالغـرابة والغمـوض المتسم بالقول المنفلت وعلى غير سبب واضح كقوله:

لو لم تكن.. التناسل الوجع المرارة والتشرذم
والعيون
لكنك الأبعاد في وهج التآلف والتشيؤ
وانخراط الكل في عرس التوحد والبقاء

فأين هذا التمحل في القول من غموضه الموحي في قوله:

الشارع المنداح من رأسي الى يافا
سكبت نواشر الوطن المعنون في الجرائد بالسليب
للشارع المنداح. . أحلام الصغار وآهة
البحر المدمى بالنحيب
شجر على الجنبات والأطيار تنتظر
صحو على الشرفات والأعياد
والساحات تفتقر
للفارس المزروع في الامطار
للرايات ترفل في الرصيف

إن موسى حوامده، شاعر جيد في الإمكان، وله من ذاكرته العينية ما يسعفه على التقاط الصور الموحية، وكلي أمل أن لا يجره الشطط الى اعتساف ما هو ليس من طبعه فيختلط الحصى بذهب منجمه.

وفي جهد تجريبي جاد، يصدر محمد الظاهر، ديوانه «قمر المذبحة، يمامة الوطن»، بعيداً عن كل ما تآلف معه الآخرون، هنا مسعى لإدراك العصر في منجزاته واستخدام تلك المنجزات في تكثيف العمل الشعري، وإذا كان العصر عصر السينما والتلفزيون، فعلى الشاعر أن يفاد من المؤثرات المرئية والصوتية لتكثيف المناخات الشعرية، وعلى مثل ذلك يسعى لتوظيف آلة التصوير لإقامة مشاهد تصويرية تتداخل مع المناخات الشعرية، فيكون لكل مشهد ديكوري ما يتعاضل مع المقاطع الشعرية.

المحاولة على جانب من الأهمية، إلا أن ما يمكن أن نأخذه على تجربته، هو أنه أوسع القول لرسم المشاهد وبما لم يوسعه للشعر، بحيث لو كان لنا أن نقيم المشهد بالشكل السينمائي الذي فصل فيه، لبدا لنا شيء كبير من العجز في أن يواكب النص الشعري مستوى إقامته للمشاهد المرئية السينمائية، وبما تتمثله من أبعاد رمزية وإيمائية، وكان بودي، وهو حتماً ما سيقع إليه، لو أنه أوسع للنصوص الشعرية مجالاً للحوارات الدرامية، والتقطيع الجزئي لتركيب الصور، إذن لكنا أمام جهد فريد متميز. . المحاولة مهمة، وشاعرنا على مستوى طموحه فيها، وإنه لأهل لكل ظنة خيرة بجدوى مسعاه:

منذ حين
كانت الأرض راجعة من حصاد السنين
فانفجر كالصواعق
وانتشر كالقرنفل والياسمين

لقد أفرد محمد الظاهر قرابة ثلثي ديوانه لقصيدته السيناريوية، وترك القسم الآخر لمساع أخرى في القصيدة التركيبية التي تتداخل فيها بحور الشعر، ويبقى مهمًا أن نقول إن شاعرنا، عبر جهوده التجريبية، لم ينس مطلقاً كيف عليه أن يظل اميناً لشاعريته، فلا تفت بعضده تنظيراته، بل عليه ان يكتشفها من خلال انفجاراته الشعرية:

لي المداخل، لي هذي الجهات
ولي الخراب
ولي هذي المذابح، لي جيش يحصى الجراد
ولا تحصى خيانته
خرجت من حربة الأعداء منكسراً
رأيت جمجمتي تمضي، وخوذته
ما بين هذي وهذي خندق ودم وساحر حاذق تمتد لعبته

وبعد.. فعلى طاولتي ما زالت عدة دواوين لشعراء أكنّ لهم الكثير من الود والتقدير، وجرس التلفون يرن ويرن بإلحاح في غرفتي رقم ٢٦٦ في فندق «تايكي»، وعليّ أن أتهيأ، فقد إزف موعد الرحلة الى جرش.. فالمعذرة من الشعراء الأصدقاء: عائشة الرازم وعلي الفزاع ومحمد المقدادي وأحمد المصلح.. وإني لعلى موعد قريب معهم.. واشد على أيديهم.

١٩٨٨/٨/١٧

على مشارف أصيلة

ما تكاد تغيب عن أصيلة سنة أو بعض سنة، إلا وتكون قد عدت إليها، وقد اتسعت شوارع وأرصفة وأبنية، وصار لنا فيها غير منتدى للأدب وغير مركز للفنون، وغير متسع لاحلام فنانين وأدباء، يجيئونها من الوطن العربي ومن أفريقيا ومن دول أجنبية عديدة، ليعتقوا أنفسهم فيها من كل متاعبهم وليجددوا الحديث عن جدوى الأدب والفن في الزمن السيء.

وأصيلة، إذ تحلم بميناء يمد بها الى غير ميناء في العالم، وإذ تحلم بالعديد من المشاريع العمرانية، تريدنا أن نظل معها موعداً في كل سنة، ليظل لوهجها أن يتألق مناراً ومرفأ لزوارقنا التي طالما عبثت بها الرياح الهوج، نخاف عليها من تلك الأرصفة القروية، وتخاف علينا بأن لا ندركها إلا في تلك الأرصفة الصلدة، فلا تكون لنا في الحلم الذي يضمنا كل عام في موسمها الثقافي والفني، ولا نكون لها في الواقع الذي يظل لنا منه مرفأ صغير لزوارقنا الملونة التي تحمل إليه كل عام، آلامنا وأفراحنا وتطلعاتنا لأن نكون على مستوى طموح أصيلة بنا.

وكادت هذه البلدة الصغيرة بحجمها، والكبيرة بمغزاها الحضاري، كادت أن تقوم مثلاً على كل ما دارت حوله ندوة المنتدى الثقافي العربي ـ الأفريقي التي احتضنتها «جامعة المعتمد ابن عباد الصيفية» ما بين ١٣ و ١٦ من الشهر المنصرم في البحث عن «أية ثقافة ـ أية تنمية» وبكل أبعاد هذا التساؤل، فهي المدينة التي تحولت كل أزقتها الى شرايين ثقافية، تمد بها من أقصى التراث الى أقصى ما يحمله إليها العصر، مروراً بثقافة الوطن العربي وأفريقيا وأوروبا وأمريكا، وعبر قدرة فذة على إدراك نفسها في خصوصيتها المغربية، وعبر يقينها من أن الثقافة ليست مجرد اختزان للمعلومات، بل هي ممارسة يومية جادة، تتأكد بها كل مشاريع التنمية وعلى مختلف الأصعدة.

وإذا كانت منصة المتحاورين في هذه الندوة قد اكتظت بالأسماء الكبيرة، لمفكرين وأدباء وفنانين، فإن أبناء هذه المدينة كانوا على مستوى مناقشتهم في الكثير مما قالوا به، حتى لم يبد

غريباً عندما قال أحد المنتدبين لهذا الحوار بأنه يقترح أن يكون لنا في يوم قريب لقاء ثقافي آخر يكون الشباب المغربي في موقعنا ونكون في موقعهم، لأنهم يعرفون كيف يحاورون واقعهم اليومي من خلال ما يقرأون وما يرون وما يحسون به إحساساً أصيلاً صادقاً. لقد فجر شابان من أبناء هذه المدينة كل طاقاتها للانتصار للثقافة، أحدهما كان يحمل وهو شاب آلة تصوير ليصور بها كل حياتها، هدير البحر وأزقتها الضيقة، وألوان ألبسة أهل أصيلة، وطبيعة مآكلهم وبساطة مجالسهم ومقاهيهم، ويوم أن وقع الى كتاب المهندس حسن فتحي «البناء مع الشعب» عمق من وعيه بضرورة مثل هذا العمل، وأدرك وزير الثقافة المغربي محمد بن عيسى، بأن ما لمسه من فشل الخبراء في غير مكان من العالم ما كان ليكون لولا أن هؤلاء الخبراء اكتفوا من أمرهم بأن يحملوا للآخرين خبراتهم المكتوبة في حين كان عليهم أن يعملوا مع الشعب ليستنهضوا قدراتهم على البناء، وكان صديق الوزير محمد المليحي على مثل تطلعات صديقه في أن يكون لهذه المدينة شأن آخر، بدءاً من أبسط الإمكانات المتوفرة لها، وهكذا احتضنت جدران بيوت «أصيلة» رسوم محمد المليحي بألوانها الفرحة المنطلقة بعفوية أخاذة، لتعود وتمد بأعناقها من أرصفة الشوارع ومن داخل البيوت أيضاً، وهكذا راح الشبان والشيوخ يوسعون حدقات عيونهم لرموزه وإدراكها في مرمى الشعلة والموجة والحرف العربي، وهكذا أيضاً تنادى فنانون آخرون لمؤازرة ورعاية المدينة الحلم، فكان أن جاورت رسوم المليحي رسوم لفنانين آخرين من المغرب، وسرعان ما تآلف مع كل ذلك، أدباء ومفكرون وفنانون من الوطن العربي وأفريقيا والعالم، فولدت «جمعية المحيط» عام ١٩٧٨، ثم كان «المنتدى الثقافي العربي الافريقي» عام ١٩٨١، ثم «جامعة المعتمد بن عباد الصيفية» عام ١٩٨٤، «وكانت في الأخير مدينة أصيلة، الوسط والإنسان، محترفاً لمداخلات الفنانين التشكيليين على الجداريات والأرصفة والحدائق العامة والمنشآت الإدارية فقد أصبحت أصيلة منذ عام ١٩٧٨، رائدة في تجربة توظيف الفن لتجميل البيئة وتهذيب السلوك الانساني، وصقل أحاسيس السكان، خاصة الأطفال صارت لهم محترفاتهم التي يمارسون فيها هواياتهم المختلفة في الفن التشكيلي، كل صيف من كل عام، وعلى مقربة من فنانين كبار، يشحذون بأعمالهم همم هؤلاء الأطفال ويعمقون من وعيهم بما يرسمون، وفي هذا العام استضافت «هذه المحترفات، إضافة الى مئتي طفل مغربي، خمسة عشر طفلاً من مدينة غرونوبل الفرنسية، في نطاق تبادل بين أطفال أصيلة وأطفال غرونوبل - برنامج أصيلة».

- وإذا كان لنا أن نأخذ على جامعاتنا في الوطن العربي ضعف قدرتها على التواصل مع المجتمع والتأثير به، وذلك بأثر من الظروف السياسية وطبيعة ارتباط الجامعات بمؤسسات الدولة التي تخضعها لتوجهاتها الخاصة، فإن مثل هذه الملتقيات الفكرية المتسمة بالحرية والديمقراطية، والتي نهضت بها هذه المدينة الصغيرة، لتقدم لنا نموذجاً فذاً على معنى وأهمية هذا التواصل ما بين المفكرين والفنانين وأبناء الشعب والذين هم على كثير رغبة في أن يروا مفكريهم يفكرون معهم وفي أخطر قضاياهم المصيرية، لا مجرد حفظة لنصوص ينتهي دورهم منها أثر حملها اليهم، وأن يروا فنانيهم ينطلقون من أبسط وأدق مشاعرهم، لا مجرد نقلة لما أخذوه من هنا ومن هناك ليتشدقوا بمفاهيم الجدة. . إن أصيلة عبر هذه اللقاءات الفكرية

والأدبية والفنية، وعبر ما يتواصل معها من نقاش الجمهور لما يجب أن يعمق وعيه بخصوصية حياته، ليستعيد بشكل من الأشكال المعاصرة دور جامع الزيتونة في تونس وجامع الأزهر في مصر، وحيث كانت الحياة الاجتماعية بكافة مرافقها تتطور من خلالهما. . وهو ما صار لجامعات أمريكا والغرب وغاب عن جامعاتنا في الوطن العربي بعد أن فقدت قدرتها على أن تستمد مواقعها من حيث يجب ان تكون في الحياد العلمي.

* * *

لا أريد أن أقف عند كلمات المتحاورين، بدءاً من كلمة الأمير حسن بن طلال التي أكد فيها «بأن بناء ثقافة إنسانية لأي مجتمع من المجتمعات لا يقل خطورة وأهمية عن بناء صرح التنمية والتطور، وعلينا ونحن نطرق باب القرن الحادي والعشرين أن ندخل اليه ومجتمعاتنا في صحة أكثر وثقافة إنسانية أكثر وعند ذلك فقط يمكننا أن نحقق ما تصبو إليه شعوبنا من تنمية وتطور»، ولا عند ما تبعها من كلمات، لأساتذة كرام كالمختار أمبو - مدير اليونسكو - سابقاً أو بكاري طراروي - وزير الثقافة في مالي - أو الدكتور سعد الدين إبراهيم أو الدكتور يوسف إدريس أو الدكتور لويس عوض أو الدكتور محمد عزيز الحبابي أو الأستاذ محمد بن عيسى أو الأستاذ عثمان العمير. . وغيرهم، فما حملوه الى هذه الندوة لم يكن جديداً على أي منا، فهموم الثقافة من بعض كفافهم اليومي، فان قال بكاري طراوري: بأن علينا أن ننفتح على الحضارات العالمية فنحن معه. وان قال لويس عوض: بأن الحضارة الإنسانية هي واحدة نبدأ منها ونعود اليها بعطاء مستمر، كنا معه أيضاً. وإن قال سعد الدين إبراهيم: بأن على المثقفين أن يحاوروا الحكام بحثاً عن مزيد من الحرية وان على المثقفين أن ينادوا: كفى مستبدين حتى ولو كانوا عادلين، كنا معه أيضاً. وإذا قالت الدكتورة فاطمة الجامعي: إذا كان الغرب عجوزاً فنحن مراهقون ومرحلة المراهقة اخطر من العجز، كنا معها أيضاً. حتى وإن تلكأ البعض في الاعتراف بمراهقتنا. . وإن قال محمد الحبابي بضرورة أن نخرج بثقافتنا من بيئتنا، صفقنا له. . وإن. . وإن. . فكل ما قيل كما قال محمد بن عيسى: قد قيل في المرات السابقة. . نحن مقبلون على عالم جديد ولا بد أن تنتهي فيه الحدود الترابية لتبدأ الحدود الثقافية ضمن منظومات ذات أطر محدودة، كما هي الحال مع المجموعة الأوروبية، ومجموعة آسيا ومجموعة الخليج. . وعلينا أن ندرك أنفسنا في هذا الواقع الجديد، فكيف ومتى. . ؟

أقول لا أريد أن أقف عند كل الذي سمعته خلال الأيام الأربعة في الندوة، وكان لي أن حاورت، وجادلت فيه. . ولكن كان بعض همي أن أعرف ماذا كان يدور في ذهن هؤلاء الشبان الذين واكبوا كل هذا الكلام الكثير بصبر وجلد مشكورين عليهما.

سألت واحداً من أبناء أصيلة عن انطباعاته عن هذه الندوة، فقال: ما لم يكن جديداً عليكم لم يكن جديداً علينا أيضاً، فنحن نقرأ ما تكتبون، وعندما يكون لكم أن تقبضوا ثمن ما تكتبون فلا بد من أنكم تكررون ما تكتبون حتى صرنا أحياناً نعرف محتوى مقالاتكم من السطرين الأولين. .

● وغير ذلك. . ؟

ـ شعرت بأن ليس بينكم من كان يصغي إلى الآخر، إلا للحظة عابرة يتصيد فيها جملة عرضية ويذهب الى محاكمتها ومناقشتها حتى إذا ما تبين له خطأ مناقشته للموضوع لأن الجملة جاءت في سياق بحث متكامل، أعتذر وسكت. . ويبقى المهم لدى كل منكم هو كيف سيستأثر بالمنبر ولأطول وقت ممكن، متجاوزين طرقات مطرقة الرئيس المنبهة للإلتزام بالوقت المحدد للمتكلم. . وكان بينكم من شهر سيفه ضد الحكام وهو من أكثر من عرفناه وقوفاً عند أبواب الحكام. .

● وغير ذلك. . ؟

ـ كان المفكرون الأجانب أكثر دقة في تحديد موضوعاتهم، لأنهم ينطلقون من الثقة بالنفس لا من الشعارات الجاهزة ولا من الخوف. . وبمثل هذه الثقة استطاع الإسلام أن يغزو العالم كله في يوم ما. . شعرت أحياناً أن اللغة العربية، توحي بالخطابة والخطابة لا تخلو من رغبة في الإيهام البلاغي، نيلاً لتصفيق أكثر. . وقد يصحب ذلك استخدام الصوت العالي والتشنج في الالقاء، فهما من بعض ضرورات الخطابة أيضاً.

● وغير ذلك. . ؟

ـ كان جميلاً أن نراكم معنا وأن نلتقيكم في زوايا مقاهينا وباحات ساحات أصيلة، حيث الحوار أعمق وأدق وأكثر صدقاً وأبعد من انفعالات المتحاورين. . وكان جميلاً أن تعرفوا مدينتنا في النموذج الفذ للتنمية الثقافية. . لقد أتاحت لنا هذه المدينة أن نتعرف الى الكثيرين من أدباء العالم العربي الكبار. . وأدباء العالم. . هل رأيت الشاعر الإسباني الكبير أنطوني جالا. . ؟ وتعرفنا الى كبار الفنانين العالميين وسمعنا موسيقى جاءت إلينا من غير مكان من العالم، وشهدنا رقصات شعوب مختلفة، لقد أصبحت الثقافة هاجس كل طفل وشاب في هذه المدينة، وهذا من بعض فضل عزيزينا محمد بن عيسى ومحمد المليحي، وفضل الإخوة الذين أحبوا أصيلة، وأصيلة لن تنساكم. . لقد كان الشاعر السنغالي تشكايا اوتامسي أول من مد يده الى أصيلة. . وأصيلة لن تنساه، لقد مات قبل أسابيع قريبة، وسيكون له تمثال في هذه المدينة. . وجائزة للشعر تمنح مرة كل عامين باسمه. .

سكت. . وسكت. . ثم سحبني من يدي وهو يقول: هيا. . بنا. الى رجل آخر. . الى فنان مصري. . أحب هذا البلد حباً جماً. . إنه جورج البهجوري. . إنه الآن. . لا بد أن يكون قد انتبذ مقعده قرب المسرح ليصور الجوقة المغربية. .

وهكذا كان. . وعندما افترقنا شد على يدي وقال: سنراك بلا شك في العام القادم. . قلت: ربما ستراني واحداً من سكان أصيلة. . من يدري. . ؟

١٩٨٨/٩/٧

مات المرشح المزمن
لجائزة نوبل

لا أدري كيف كان للحديث أن مال بنا الى ذكر الموت، عندما قال لي وهو يبتسم ابتسامة باهتة، بأن ثمة متاعب صحية صارت تلاحقه، وأن قلبه لم يعد الصديق الذي عليه أن يطمئن له كثيراً.

قلت يا تشيكيا العظيم، قبل أسابيع فقط، كنت في غرفة العناية الفائقة في أحد مستشفيات هملتن بكندا، وبقيت فيها مدة خمسة أيام، أترصد طوال الليل الخطوط الرمزية التي تنقلها الي شاشة التلفزيون المعلقة الى جانب سريري، وهي تحدثني بلغة لا أفهمها جيداً، عن قلبي الضعيف ونبضي الضعيف ومجرى الدم في أوردتي وشراييني الضيقة، ولكي أتجاوز مشاعر الخوف التي كانت تحملها اليّ شاشة التفزيون، قلت لنفسي أن القلب ليس قلبك والنبض ليس نبضك والأوردة ليست أوردتك والحديث الذي لا تفهمه ليس عليك ان تقلق منه.. والأطباء الذين كانوا لا يكفون عن التطلع الى الشاشة لم يبد عليهم ما يثير خوفك.. وهكذا كان يا تشيكيا فقد أفرجوا عني في اليوم السادس.. ونحن المسلمين نؤمن بأن الأعمار بيد الله فلا تقلق مما هو محتوم عليك.

وعلى الرغم من حديثينا المقتضبينْ عن سوء الصحة، فلم يكن ليبدو على أي منا بأنه جاد في الحديث عن الموت.. قال لي: هكذا ينتصر الشعراء على الموت.

ولكن تشيكيا أوتامسي، صديقي الشاعر الكونغولي الذي كنت ألتقيه غير مرة في السنة وهو يملأ باحات الفنادق التي كانت تضمنا في أصيلة أو في الرباط أو في مراكش، بمرحه وصخبه وضحكاته المجلجلة ومفرداته المعدودة من اللغة العربية.. تشيكيا مات وأن قلبه، صديقه الحميم قد خانه في لحظة حرجة، ولعله تعب من مغامرات هذا الشاعر الذي لا يعرف أن يهدأ أبداً.

ولكي يؤكد واحدنا للآخر بأن الطب كذبة، مد يده الى علبة سجائره ليخرج منها سيجارة

جـديدة، سيـتركها متهـدلة مـا بـين شفتيـه أو مخنـوقـة بـين إصبعيـه السـودأوين. ويقـدم لي سيجـارة. . أخذهـا منه، كـما لو أنني كنت أتـواطأ معـه فيها ضـد صحتينـا وضـد صـدرينـا المنخويين، ويعبث صبياني، كنا نضحك من حكمة الطب، وهكذا كان الحديث يستمـر معنا ونحن نخنقه بالدخان الكثيف، ولم يـدر في خلدي أبداً أنني سـأزور «أصيلة» الذي كـان من بعض أصـالتها، وأنـه لن يكون معنـا فيها في مهـرجانها السـنوي لهذا العـام، وأن صـديقنـا المشترك الأستاذ محمد بن عيسى، سيفرد له صبيحة يحدثنا فيهـا عنه وكيف كـان من أوائل من مدوا إليه يـده لاقامـة جمعية المحيط قبـل ما نيف عـلى عشر سنوات. . ثم يسكت ويغـرق في البكاء. . ثم يجفف صوته بصعوبة ليعلن عن قرار «أصيلة» وأبنائها بـإقامـة تمثال لتشيكيـا في المدينة، إيماناً منها بعبقريته الأدبية، وتثميناً لدوره فيها. . وان جائزة ستمنح مرة في كل عامين باسمه لواحد من شعراء أفريقيا أو الوطن العربي. . فتخرج القاعة عن صمتها الرهيب بدوي التصفيق العالي، وبتصفيق أكثر علواً عندما قرر أيضاً، ترجمة أعماله كافة الى العربية.

* * *

حملت إليه في لقائي الأخير به في مراكش، ويوم كان لقاؤنا بمناسبة توزيع جوائز الكتاب في الشهـر الثاني من هـذا العام، ديـوانيّ المترجمـين الى الإنجليزيـة «حوار عـبر الأبعـاد الثـلاثـة» و «أغاني الحارس المتعب» مع نسخة من الكـاسيت المعد بصـوتي، ووعدني بـأن يرسـل لي ما ترجم من أعماله الى الإنجليزية إلا أنه لم يفعل، وربما على أمل أن نلتقي في شهـر مهرجـانات أصيلة لهـذا العام والـذي وفاه الاجـل من قبل أن يتحقق لنـا هذا اللقـاء. . ولـذلـك ظلت معلومـاتي بخصوص نتـاجه الأدبي لا تتجـاوز، ما أحـاطني بها بعض أصـدقـائـه الخلص من المغـاربة الـذين تحدثـوا لي طويـلا عنه خـلال لقاءاتنـا بهم، عن مجموعـاته الشعـريـة التسـع ومسرحياته الثلاث ورواياته الأربع، وعن العـديد من قصصـه القصيرة والتي صـدرت جميعها بالفرنسيـة، فهو في نـظرهم من أكثر الأدبـاء الزنـوج ـ عفواً كـان فيليب تيشكيا يـرفض هذه التسمية ـ الأفارقة غزارة في الإنتاج وكان كغالبية الأدباء العرب المعاصرين، مشدوداً الى محنة شعبه الكونغولي والى نضاله من اجل وحدته وحريته، ومنتصـراً لإنسانيـة إنسانـه المسحوقـة، ومنتصراً لتحرير أفريقيا كلها، وكان كما يقـول الأخ الصديق المشـترك محمد أوجـار بأنـه «كان من مؤيدي باتريس لومومبا ١٩٢٥ ـ ١٩٦١ الزعيم الكونغـولي ونسج معـه علاقـات نضاليـة خاصة لدرجة استدعاه لتسيير جريدة «الكونغو» الناطقـة باسم لـومومبـا وحزبـه. . ولقد تـأثر بالمأساة الكونغولية التي انتهت بفاجعة اغتيال الزعيم لومومبا، ولقد كان رثاء تشيكيا للومومبـا من أجمل وأحسن وأنضج ما كتب من شعر ومن أروع ما قيل في رثاء هذا الزعيم الأفريقي».

* * *

في صالة الفندق بمراكش انتبذنا أنا وهو، زاويـة منها، وكـان على مقـربة منهـا الطاهـر بن جلون، فعنّ لي أن أسأل تشيكيا عن رأيه بأحقية بن جلون بجائزة الكونكورد الفرنسية:

ـ هنـاك من يدعي بـأن القصاص المغـربي ادمون عمـران المليح والـذي يكتب هو الآخـر بالفرنسية، كان أحق من بن جلون بها فما، رأيك أنت. . ؟

غاضت بسمته عن وجهه وإجاب بشيء من الانفعال:

● **أي صحفي صغير دس عليك هذا السؤال.. إن كلا منهما قصاص بارع، وسواء أخذها بن جلون أو المليح، فالأمر سواء بالنسبة لي ما دامت الجائزة قد نالها كاتب مغربي.. فللناس أذواق مختلفة.. وما يقال هنا قد قيل ايضاً عندما نال الكاتب النايجري وول سنيكا جائزة نوبل.. هل هو أحق بها من الشاعر السنغالي ليوبولد سنغور أو الكاتب التنزاني نجوكي أو تشيكيا الكنغولي.. كلام صحفي عادي لإثارة القراء فقط.. المهم أن سنيكا قد حصل عليها بجدارة وهو افريقي وهذا ما اعتز به كل الاعتزاز.**

ـ ولكنك إنسان يا تشيكيا.. وربما شعرت بأنك أحق بالجائزة من سنيكا.. ألم يشعرك ذلك بشيء من الخيبة.. من الغيرة.. من الإجحاف لأنك لم تنلها..؟

● **أبداً.. لقد بعثت اليّ من قبل من حمل الي مثل هذا السؤال وأظنه كان حاتم البطيوي الذي أوده كثيراً.. وقد قلت له في حينه.. ما اكرره الآن.. إن وول سنيكا من أعز اصدقائي وعلاقتي به وطيدة جداً، ويكفيني سروراً واعتزازاً به بأنه حال تسلمه لجائزة نوبل بعث اليّ برسالة حميمة، ما زلت أحفظها عن ظهر قلب: «لا تحزن يا صديقي الكونغولي فهذه الجائزة لن تجعلني أكبر من أصدقائي، لأنني أتفق معك على أن الجوائز لا ينالها الذين ينتظرونها فهي تذهب الى حيث يقررون أن يبعثوا بها.. وما زلت أذكر قولك لي ذات مرة.. إن من حسن حظ أفريقيا أن لا يكون بين أدبائها مرشح بامكانه أن ينافس ليوبولد سنغور على الفوز بها، مرشح على مستواه في القوة ولكنني نسيت أن أقول لك في حينه بأنني أخاف ان لا يحصل سنغور لا على جائزة السلام ولا على جائزة الأدب».**

ـ هل تعتقد بأن هناك أملاً في أن ينالها كاتب عربي، أي كاتب عربي يكتب بالعربية..؟

● **لا أدري، فاطلاعي على الأدب العربي يكاد يكون صفراً، بل إنه صفر بالنسبة لمثل هذا الحكم، ولكن كثافة الحضور العربي في مشاكل العصر تستوجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار، كما لا يمكن لأمة بمثل هذه الضخامة أن لا يكون فيها من هو جدير بجائزة نوبل.**

ينهض وأنهض معه وعندما مررنا بالطاهر بن جلون ابتسم له وقال: لقد كان يريدني أن اقول شيئاً ضدك.. وتبادل بن جلون معه الابتسامة ومن دون أن ينبس بكلمة وكأنه كان يقول في سره.. حسبي أن نلت الجائزة وأنني كفؤ لها فليقولوا ما يريدون أن يقولوه.

***

لقد مات فيليب تشيكيا أوتامسي، وقيل إن يدي جيبته قد تكفلتا بإسناد رأسه، مات وهو دون الثامنة والخمسين من عمره، مات وهو في عز حيويته وأوج عطائه.. وشاركت وفود عديدة في تشييع رفاته وفي مقدمتها وفد من المغرب برئاسة صديقه الحميم محمد بن عيسى، نقل جثمانه من فرنسا الى الكونغو بطائرة خاصة، وفي الكونغو أعلن الحداد الرسمي عليه ونكست الأعلام.. وسنبقى نتذكرك أيها الإنسان الكبير.. أيها الصديق.

١٩٨٨/٩/١٤

حول حسين مردان

قـرأت باهتـمام ما جـاء في «المجلة» وما كتب عن حسـين مـردان ومـا نشره الأستـاذ بلنـد الحيدري وعبد العزيز السنيد، وكذلـك ما نشر أخيـراً حول (مجمـوعة اتهـامات حـول حسين مـردان: لم يكن شاعـراً ولا عبقريـاً) وأود هنـا أن أورد مـا كتبـه عنـه زميله مـاجـد صـالـح السامرائي:

«ومات حسين مردان. . ورغم الأصدقاء الكثيرين، فإنه كـان يعيش وحدة قـاسية، ظلت تلازمه، حتى أنه نفر، وبسببها من ذلك الشيء الذي اسمه «الحياة العائلية» ينسج بدلاً عنها، أوهام حب لكثيرات. وكان «نداء السفر» الذي يلح عليه باستمزار، هو التعويض الوحيد له عن كل تلك الإحباطات النفسية والإرادية. لكنه عـوض عن تلك «الأحلام المفقـودة» بحب غريب، هو حبه لبغداد التي عرف فيها الجوع والتشرد والتسكع والنفي داخل المجتمع. كـان يلتصق بها كما يلتصق النائم بحلم جميل. وكأني به قد اتخذها أمًّا ورفيقة وحبيبة».

كان حسين مردان يكتب ما يعيش ويرى، وما يعتقد، الشيء الذي يقوله في المقهى أو مع الأصدقاء، كان يقوله في شعره، وفي كتاباتـه. . فهو قـد استقر عـلى شيء، ولكنه ظـل يطور مفهـومه. ولهـذا عرف (اليقـين). . ولكن أي يقين؟ يقـين الثورة والتمـرد والرفض. . لا في السياسة وحدها، وإنما في أمور الحياة الاجتماعية، من تقاليد وأعراف. وهـو في كل هـذا كان صاحب (نفس بركانية) لا تهدأ على شيء، ولا تقر. عنيف، صريح، لم يعرف المهادنة.

لم يهادن أحداً سوى الموت الذي بدأ منذ سنوات يتخذ خطاه وهو يسير إليه. حسين مردان كان يعيش بنفس تمتلىء حباً، وأملا بالتغيير. كـان يعرف مـاذا تريـد منه الحيـاة، وماذا يـريد منها. لم تكن رؤاه غامضة. ولهذا جوبه بتـآمر خفي من نـوعه. وحسـين مردان يؤكـد وجوده الشخصي، والأدبي، والشعري حتى بلغ به الأمر حد الاستهانة بسواه. فكان دائم الإحساس بأنه الوحيد الذي يمتلك التبرير لوجوده، ولما يكتب، أو يفعل (لمجرد أنه كان يعلن عن أفكار غريبة على مجتمعه، وعلى ناس مجتمعه) على عصره، وعـلى أدب ذلك العصر وشعـره. . هذا

«الإحساس بالعظمة» وهو الداء الذي أصيب به حسين مردان منذ بداية حياته الأدبية وجعله في موقف المتعالي على الكثير مما حوله. . من ناس، وأفكار وأعراف معلناً تفوقه عليهم. وهو حين يتحدث عن أديب أو شاعر سواه فإنما بنوع من الأستاذية. . وذلك هو ما قاده الى أن يعزف عن «الحياة العائلية» التي كان يمكن أن يكوّنها لنفسه. . وسببه الذي كان يعلنه باستمرار هو انه لم يجد المرأة التي يقتنع بها، على كثرة من عرف! . . أو أنه لم يجد المرأة التي يمكن تكون لرجل عظيم، أو عبقري مثله! وبفعل احساسه بتفوقه الذاتي، كان برغم ما يحاول أن يضيفه على شعره من أبعاد تحمل خصائص (الغيرية) هناك شيء واحد يعنيه وهو تأكيد العنصر الذاتي أو تأكيد «الأنا»، ولكن على نطاق فيه بعض الشمولية. وبرغم انقطاعه عن النشر فترة من الزمن لم يواجه بأي نوع من أنواع النسيان.

ويقول حسين مردان في كتابه «الازهار تورق داخل الصاعقة»: «لقد حاولت في قصائدي الأولى والتي ظهرت في ديوان (قصائد عارية) ان أكشط الجلد، وأرفع جميع طبقات اللحم مخترقاً صلابة العظام للوصول الى حركة الدم. لقد ظل الحب خيمة مغلقة ينظر إليها الشعراء كشيء له علاقة ما بالسماء، ولم تبلغ الجرأة بهم حد اقتحام الجو الداخلي للتفرج على ما يوجد هناك. ولذلك كنت صريحاً وعنيفاً في وصف هذه العاطفة الإنسانية. لقد أردت للحب أن يبدو كما هو في الطبيعة، وليس كما يبدو من خلال التقاليد والمثل الاجتماعية القديمة. وبما أنني كنت معاصراً لعدد من الشعراء الذين استجابوا لمتطلبات الجماهير. . فلقد وجدت نفسي في وضع شاذ وغريب بالنسبة للاتجاه العام. وهنا قررت أن أتخذ موقفي الخاص. وكانت قراءتي وثقافتي تتنوع يوماً بعد آخر. واكتشفت أنني أدور حول نواة واحدة، وأني أربط وجودي كله بوتد واحد، بعيداً عن العوالم الأخرى من الحياة. فاتجهت شيئاً فشيئاً الى الناس ثم بدأت أعبر عن مشاعري الفردية عن طريق الآخرين. وهكذا ولد شعري.

وانقسم الناس حول حسين مردان الى فريقين. فريق يقبل على ما يكتب حسين مردان أو يقول بشغف ولهفة. ويتحمس لآرائه. وفريق يقابله باستياء بالغ وعميق. هذه الحال لم تكن له مع معاصريه فقط. . وإنما كانت حتى مع أبسط القراء. وقد تجلت حدتها مع ما كان يكتبه في مجلة «الغرباء»، فقد بدأ حسين مردان متمرداً، رافضاً، ثائراً، لم يكن (ينقذه) من حالات الرفض، والتمرد، والثورة هذه غير الشعر، والمحاكمة، والسجن، ليخرج أشد، وأقوى، وأعنف، وأكثر يقيناً بتلوث الأشياء من حوله. كان كثيراً ما يقترب من حافة اليأس، ونتيجة لذلك كان كثير التفكير بالموت.

ثم يقول ماجد صالح السامرائي: «. . وكنا زملاء في عمل واحد (مجلة ألف باء). . وفيها عرفت حسين مردان سنة ١٩٦٨. وكان في الفترة الأخيرة بالذات كثيراً ما يردد على سمعي أنه سيترك العمل في المجلة، وسيترك الكتابة ليرتاح. ولكنه كان يكذب. فالكتابة أقوى منه، إذ لم يكن يستطيع فكاكاً منها. ولم يمنع رعشة القلم في يده غير الموت. . حيث رحل صاحب القلب الكبير. .»

محمد العائش القوتي ـ تونس ١٩٨٨/١١/٩

ذنون أيوب
مات في الغربة وحيدا

كان الزمن بيني وبين هذا الصديق الذي التقيته، قبل أسابيع في لندن، قد تـراخى كثيراً، على ما ظل واحدنا يذكر الآخر، ويستعيد ذكريات الصداقة الحميمة التي نشأت بيننا كلما عنّ لنا ذلك وما سعدنا به من جلسـات طوال نتجادل فيها في الأدب الـذي نقرأه والأدب الـذي نريد أن نكتبه، ونحلم بإصدار مجلات، ثم كان له غير ما كان لي، فقد زهد في الأدب الذي لا يطعم خبزاً، وسعدت بالخبز الذي لا يشبع بطناً، وافترقنـا، إلا من زيارات رسميـة يحاول فيها أن يؤكد لي بأنه يتابع نشاطي الأدبي، وأنه قد قرأ آخر كتاب لفلان وآخر قصيدة لفلان، وأن التجارة لم تلهه كلياً عن القراءة، ثم كـان أن اختلفت ظروفنـا، إذ شددت الـرحال الى لبنان إمعاناً في البحث عن الخبز الذي لا يشبع بطناً، وظل هو في بغـداد يحرس أمـواله ويمـد بأملاكه الى غير أرض جديدة.

زارني غير مرة في لبنان في فصول السياحة، وسعيت الى تعـريفه بعـدد من أدباء لبنـان ممن كنت ألتقي بهم دائـماً، ثم صار يـزور لبنان ولا يـزورني وانقطعت أخبـاره عني، إلا من نتف يحملها إليّ صديق من أصدقائنا القدامى، حتى كان هذا اللقاء.. تأملته طويلاً وتأملني طويلاً وتعانقنا مرتين.. قال انه قدم من أجل المعالجة الطبية، وبدا لي بالفعل بأن المرض قد أوهى عظمه، وقد وخط الشيب عارضيه والكثير من شعر رأسه، كما ازدادت عدستـا نظارتـه سمكاً ودكنة، ومع ذلك فقد بقي صوته على مثل مـا كان بـالأمس مملوءاً بالحيـاة وقد خـالطتـه بحة جذابة، وكانت ضحكته عـلى مثل مـا كانت مجلجلة وصـافية، وقلت في نفسي إنها من بعض فضائل العمل في التجارة.. وفي زاويـة من مقهى في شارع «الكـوينس وي» انتبذنـا مقعدين ورحنا نسترجع الذكريات ونترحم على من مات من أصدقائنا ومعـارفنا: جـواد سليم.. نزار سليم.. خالد الرحال.. ألبير أديب وحسين مروة ومحمد عيتاني ورضوان الشهال، وكان على علاقة شخصية ببعضهم.. ثم مات أيضاً ذنون أيـوب. وما كـدت ألفظ اسمه حتى فـوجئت بوجه صديقي يكفهر وببسمته تغيض وبصوته ينشف وهو يقول:

● أين هذا من هؤلاء. . يا رجل.

ـ لم لا . . ألم يكن من رواد القصة في أيامنا . . أوتنكر دور مجلته «المجلة» في أدبنا الحديث، كان معنا وشد من عضدنا وآزرنا يوم تعرضنا للحملات العنيفة ضد شعرنا، ثم كان له دور كبير في الحياة السياسية والاجتماعية. . أنا أستغرب ما تقوله.

● تستغرب ما أقوله، اقرأت سلسلة مذكراته؟! أكان لأحد من الناس ان يمس أكثر المقربين إليه بمثل ما مسهم ذنون أيوب لم يبق أحدٌ منهم لم ينله بكلام هجر.

قلت له: لم أقرأ إلا بعض الصفحات من مذكراته. . وربما كان فيها شيء مما قلته، ولكنني لن أذهب مذهبك في المغالاة. وإذا كانت لذنون سيئاته فله حسناته أيضاً وعلينا أن نذكر حسنات موتانا. .

وانقطع الحديث فجأة، صمت وصمت وكأننا أدركنا على حين غرة بأن كل ما يمكن أن نتحدث به لم يعد له معنى. . وبيد باردة ودعني وبيد أكثر برودة ودعته.

● آمل أن لا تكتب عنه.

ـ آمل ان يتسع لي الزمن لأكتب عنه.

***

كان أول مرة طرق سمعي اسم ذنون أيوب، في أوائل الأربعينات، عبر ما شاع من لغط في الصحافة اليومية، وفي مجالس الأدباء عن قصته «الدكتور إبراهيم» الذي زعم البعض بأنها تعني الدكتور فاضل الجمالي، الذي كان يشغل آنذاك وظيفة المدير العام لوزارة المعارف، وهو شخصية معروفة بحبها للموسيقى والمطالعة وعلى ثقافة عالية، فانتصر له الكثيرون مسفهين قصة «الدكتور ابراهيم» وتألب ضده آخرون، وزاد اللغط، عندما أقام الجمالي دعوى قذف على ذنون أيوب، ونال عقابه الذي أسهم الجمالي نفسه في أن لا يكون عقاباً قاسياً، فاكتفى بنقل وظيفة ذنون من بغداد العاصمة الى مدينة أخرى. وكان لأصحاب النيات الخيرة ان خففوا من الأزمة، فلا علاقة للدكتور إبراهيم بالجمالي وما هي إلا فتنة بعض المناوئين للدكتور الجمالي ولذنون أيوب. . وهناك من تناول القصة بالنقد الجارح فهي في نظرة خالية من الأصالة، ومنهم من راح يستجمع خيوطاً واهية ليقول، بأن «الدكتور إبراهيم» تحريف غير ناجح لقصة إبراهيم المازني «إبراهيم الكاتب» ومن دون كبير أو صغير حجة تنهض بدعواه.

وفي الحرب العالمية الثانية، تعاون ذنون أيوب مع نخبة من المثقفين على إصدار مجلة «المجلة» في بغداد والتي سرعان ما كان لها أن تبوأت مركز القمة بين المجلات العراقية، وسرعان ما صيرت داره التي تصدر عنها المجلة، منتدى للأدباء والمفكرين والسياسيين. وكنت الصغير الذي يحضر هذا المنتدى من آن لآخر، وأذكر مما نشره لي قصيدتين كانت الأولى منهما عن غرفة الفنان المرحوم جواد سليم، والتي كنت أقضي فيها أكثر ساعات يومي. . لا أحفظ منها إلا بيتين فقط:

أما الثانية فقد خصت بهجاء هتلر وفاشستيته، جرياً مع ما كان ينشر في ذلك الحين ولا أحفظ منها غير بيتين علقاً في ذاكرتي:

قل لذئب الرين إنا امة
لم تذق طعم هجوع أو هجود
أمة قد سبقت في سيرها
موكب التأريخ للصبح الوليد

وشيئاً فشيئاً قلّت زياراتي لمجلسه والاستئناس بنكاته وصار لشعري متسع في غير مجلته، وظل ذنون أيوب الفارس الأول في حومة القصة العراقية، وظل له من أية قصة يكتبها ما يثير ضجة واسعة، كقصة «الأرض واليد والماء» وأقصوصة «رفش»، ولم تستطع الأسماء التي صاقبت اسمه من القصاصين أن تنال من وهجه، رغم ما كان لتلك الأسماء من شأن كبير في المجال الأدبي كعبد المجيد لطفي وعبد الحق فاضل وأنور شاؤول، وظلت معاركه السياسية والأدبية تدور في غير ساحة من ساحات الأدب والسياسة، وأبرزها تلك التي دارت بينه وبين الدكتور صفاء خلوصي وعبد المجيد لطفي الذي انتصر لقصص ابن اخيه الدكتور صفاء. والتي لم تنل إعجاب ذنون أيوب، فجدتها مستوردة وباهتة وأسلوبها لا يؤبه به، فكان رد عبد المجيد لطفي بأن مثل الحكم الجائر لا يأتي إلا من «كاتب الصعاليك والجهال والحفاة».

ولم يخفت وهج ذنون أيوب لدى القراء المثقفين، إلا يوم أن برز اسما عبد الملك نوري وفؤاد التكرلي الى الواجهة وبأثر ما كان لهما من جدة ورؤية واضحة للنهج القصصي الأوروبي، ومن خروج على «القصة المقالية» التي كنا نطلقها صفة لقصص ذنون أيوب المتسمة بالمباشرة والخطابة والتوجيه السياسي.

وفي عام ١٩٤٦، صدر ديواني الأول «خفقة الطين»، تلاه في عام ١٩٤٧ ديوان نازك الملائكة «عاشقة الليل»، وقد أثار الديوانان موجة من النقد وموجة مماثلة من السب والشتم، لما كان فيهما من جنوح الى خلق الصور الجديدة التي لم يألفها الآخرون من قبل، ومن ميل الى استحداث لغة شعرية لا تلبس لبوس شعر الرصافي أو الزهاوي أو الجواهري. وكان ذنون أيوب من أبرز من انتصر لنا، وان كان قد اتخذ من مدحه لنا مسرباً لهجوم سياسي ضد السلطة «هذه الصور القاتمة واليأس المريع والأنّات المؤلمة، والنظرة السوداء للحياة هي بلا شك صدى لهذا المحيط العراقي، هذا المجتمع المنهار هو كل ما يملأ عين الشاعر وسمعه، ذمم فاسدة، قد تفسخت وتحللت حتى فقدت أصلها، واستحالت الى عناصرها الأولية، وأقوال فارغة تعبر عن أفكار جنونية ووحشية وبالغة القسوة والشراسة، تكذب على الناس وعلى نفسها في غير ما حياء ولا خجل، تكذب حتى على الكذب نفسه، هوس وجنون واستهتار، شعاره اللاقاعدة، تجده حيثما سرت وأينما ذهبت».

وبقدر ما كانت الظروف تهادنه، وبقدر ما كان بإمكانه أن يهادنها أو لا يهادنها، بقدر ما كانت احواله تتغير من شأن الى شأن، فمن أستاذ للرياضيات الى مدير لثانوية، الى معاون مدير الى نائب في مجلس النواب، الى عميد لمعهد الفنون الجميلة، الى مزارع فاشل، الى عاطل عن العمل، يقضي جل وقته في نادي «وزارة العدل» الذي كان يعمل فيه اخوه، ويبكر في ارتياده «بل من ساكني جناحه الخلفي. . وتعرفت فيه بنهاد التكرلي رئيس الهيئة الإدارية ـ للنادي، وكان مثقفاً ثقافة عصرية عقلية عميقة، وكان أخوه فؤاد التكرلي في مطلع حياته الأدبية، وارتاد النادي عدد كبير من الشعراء والأدباء ممن أعرف ولا أعرف، فكنت أستضيفهم وأقدم لهم ما يشتهون من طعام، وتكون إحدى الغرف منتدى أدبياً أو شعرياً أو فنياً، وفي هذا النادي تكاملت معرفتي بالرباعي الشعري الحديث الذي لفت نظر الأدباء حينذاك: بلند الحيدري وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة، والأخيرة لم أرها شخصياً إذ ما كان من الممكن أن ترتاد نادياً للرجال، ولعلي أول من كتب عنهم في «الأديب» اللبنانية، مشيداً بفنهم، متوقعاً لهم مستقبلاً رائعاً في عالم الشعر، وخامس هؤلاء حسين مردان الذي قدمه لي أحدهم لأول مرة، وكنت قد سبقت بقراءة بعض شعره، جاءني بلمته المسدلة على رقبته، كان طليعة الهيبي في العراق، بزيه وهندامه وقد ترك ذلك بعد أن أصبحت التقليعة عالمية».

وتبقى جماعة أصدقائه، ومهما تغيرت الظروف، هي هي نفسها لا يزداد فيها إلا واحد ولا ينقص الا واحد، حسب أجواء وظائفه وعلاقاته الجديدة، وهي خليط من شعراء وأدباء وفنانين وسياسيين وظرفاء ولصوص مهذبين ايضاً، وقد ازدادت هذه الجماعة التحاماً ببعضها البعض يوم أن أوكلت اليه عمادة معهد الفنون الجميلة، فتآزر معه اساتذته مما جعل تلك الفترة من أخصب سني معهد الفنون الجميلة.

ويوم أن جاءت ثورة ١٤ تموز، عهدت الى عدد كبير من المثقفين وظائف مهمة في الدولة، فمنهم من صار وزيراً، ومنهم من تسنم وظيفة مدير عام في هذه الوزارة أو تلك، واحتل ذنون أيوب مركز المدير العام لوزارة الثقافة والإعلام، وصارت مشاغله وعداواته وظروفه الصعبة في مماشاة السلطة أو التأرجح بينها وبين المعارضة التي تعددت وتشنجت أطرافها، لا تتيح له، ولا لنا ان نلتقيه إلا لماماً، وعادة في الدعوات الرسمية، ولكن مع ذلك ظل كل منا يتسقط أخبار الآخر، ويوم أن سمع برغبتي بالاستقالة من وظيفتي كمدير اداري لمعرض ١٤ تموز، بادرني بدعوتي لأن أعمل معه في وزارة الثقافة والإعلام، ولوح لي بوظيفة مهمة، فشكرته معتذراً عن العمل في وزارة المشاكل، وككل المثقفين آنذاك، كنا نقترب من بعضنا البعض ونفترق عن بعضنا البعض بأثر من الظروف السياسية المتشنجة، والتي مست كل العلاقات الاجتماعية حتى داخل العائلة الواحدة، ويوم أن تفاقمت مشاكل ذنون مع الأطراف المتناقضة، آثر أن يسعى للحصول على عمل في السفارات في الخارج، حتى ولو كانت الوظيفة دون مقامه، وهكذا رضي بوظيفة ملحق صحفي في فيينا «والواقع انني ما كنت أشتهي أي منصب، وخصوصاً في تلك الظروف غير المستقرة وإلا لسعيت سعيي الخاص لاحتلال ما كان يقدم لي، دون أي طلب مني، وما كنت ضعيف الحول، وكانت خطتي أن

استكمل تقاعدي، بأن أبقى مدة في الخدمة لأعين أولادي على إنهاء دراستهم، ثم آوي الى ركن مكين لأتابع دراسة الحياة في الناس وفي الكتب حتى ينتهي العمر بسلام».

وما حلم به كان متواضعاً جداً وأبسط ما يمكن أن يتحقق لرجل مثله، وهكذا صارت فيينا مستقره الدائم، ولم يتسنّ لي أن أراه إلا في أوائل السبعينات يوم زار لبنان على أمل أن يجد داراً للنشر تتكفل بنشر اعماله القصصية الجديدة «ورأيت الدكتور سهيل إدريس لأول مرة، جاء زائراً، فور علمه بوجودي في بيروت»، ولكن الدكتور سهيل إدريس، اعتذر عن نشر قصصه لاعتبارات خاصة تتعلق باختلاف وجهتي نظريهما المتمثلتين بيمينية ذنون أيوب ويسارية سهيل إدريس، «وكان ثاني من فرحت بلقائه بلند الحيدري وكنت قد كاتبته من فيينا وأوكلت اليه امر محاولة نشر قصتي «مسالمون ومعتدون»، بعد أن رفضها سهيل إدريس، كان لقاؤنا حارا، وبلند يفيض من حرارته على برودة غيره حتى يشعله معه، ووجدته قد زاد حنكة وخبرة في الحياة، بل وثقافة ممتازة، وأعجبني أنه كان يترأس تحرير مجلة علمية، لم تستمر بالصدور لأن فيها عقلاً وتفكيراً ذا مستند علمي وذلك أكثر مما يطيقه من يقرأ المجلات. . كان بلند قد أقنع أحمد سعيد محمديه، صاحب «دار العودة» بنشر الكتاب، وكان شرطه أن أقبل ثلاثمئة نسخة من الكتاب بثمن التكليف، فقبلت على الفور، وطبع الكتاب. . وكان أحمد سعيد محمديه على عداء مع الناشر الثاني سهيل إدريس، سببه التنافس على التجارة، ولم يغضب د. إدريس من تعاملي مع خصمه، فقد كان قد رفض البضاعة التي قدمتها له، وكان لبلند الفضل بتقديمي الى سيد شعراء الشعر الحديث نزار قباني، وصارحت الشاعر عند أول لقاء معه بأن شكله ووجهه وحديثه، كل ذلك جميل كشعره، وكنت وما زلت معجباً بشعر هذا الشاعر، إذ وضعته على رأس شعراء العصر الحديث في الشعر المتجدد».

وفي طريقه الى فيينا، يمر بالقاهرة لعدة أيام، وتصلني منه رسالة طويلة جداً، يتحدث فيها عن أصالة القاهرة وجمال النيل ونكات المصريين وعن مقهى الفيشاوي، وما بقي منها، وعن نجيب محفوظ، وقال إنه وبصدفة عجيبة التقى بصديقنا المشترك ـ أبي علي، ويعني به الأستاذ عبد اللطيف الشواف، وروى في الرسالة ما جاء بمثله في مذكراته، ويكاد يكون حرفياً «وكان من أغرب ما سمعت من أحاديث أبي علي على أنه كان الشفيع لرعاية بدر شاكر السياب عند قاسم، وبلغت الرعاية أن أرسل الزعيم الشاعر للاستشفاء على نفقته الخاصة خارج العراق، فصاغ الشاعر قصيدة مدح له سماها الزعيم ـ وحدث أن قتل قاسم وهو ـ أي بدر ـ في المستشفى فبدل الزعيم بالزنيم وأحالها الى قصيدة هجاء، ثم لحق بقاسم بعد وقت قصير دون أن يجد رعاية من أحد».

ومرة أخرى تنقطع الرسائل فيما بيننا، وكل ما كنت أسمعه عنه لا يزيد عن أخبار موجزة تقول بأنه فتح مطعماً في فيينا. وان وضعه الاقتصادي لا بأس به، وأنه يحاول أن يواصل ترجمة بعض الآثار الأدبية، على مثل ما كان قد بدأها في الأربعينات بترجمة رواية «الأم» لمكسيك جوركي، وأنه. . وأنه. . وطالما منيت نفسي بأن أزوره في مطعمه وأراه بقامته الفارعة وصلعته اللماعة ووجهه الأحمر الممتلىء وهو يدير المطعم ويسجل طلبات الزبائن

ويغازل العاملات في المطعم. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث وكل الذي صار هو أنه عثر على عنواني في لندن، قبل قرابة أربعة أعوام، فبادرني برسالة مشحونة بالشوق، واعلمني فيها بأنه في سبيل كتابة مذكراته وستكون صريحة كل الصراحة وقد صدر الجزء الأول منها مكتوباً بخط اليد والذي سرعان ما وصلتني بعد عدة أيام من رسالته. وهكذا تواصلت الرسائل فيما بيننا والمحادثات التليفونية من حين لآخر، وإذا ما تباطأت في الرد على إحدى رسائله، عاد عليّ بالعتب الشديد، وقد ذهب به الظن الى انني ربما أكون غاضباً عليه لما كان يكتبه من نقد لبعض اصدقائنا في مذكراته، التي ظلت أجزاؤها تصلني تباعاً ومصحوبة برسالة قصيرة ينهيها بلازمة يتمنى فيها من الله أن يمد بعمره الى حين يتم كتابة مذكراته، وكانت رسالته الأخيرة لي مؤرخة في ١٩٨٨/٣/٢٣، وجاء في بعض فقراتها: «ما عتبت عليك، وإنما أحببت أن أتأكد من مودتك، فأنا أقاسي عزلة مؤلمة وأنا في مغتربي، وقد بلغت من الكبر عتياً، لا شغل لي الا الاجابة على رسائل أعزاء بعيدين من امثالك، وزدت انت كرماً بأن ارسلت صوتك العذب المعبر الفخم، وقد بقيت استمع اليه خلال ساعة ونصف، وحبذت لو كان على مسرح، وأمثال ذلك كثير في عالم التمثيل.. اخي أبا عمر إن الشعر الحديث قد طغى على القديم، ولكن اغلب الشعراء الجدد غلب عليهم حب الشهرة، وبأن يأتوا بما لم تستطعه الأوائل، فهذوا وبالغوا في الغموض، فخابوا عند القراء، إلا من لا يفهم فيقرأ ما لا يفهم، وشذ عن هراء هؤلاء شعراء عظام من أمثال نزار وأنت وبعض الشعراء المصريين ومحمود درويش، فأحدثوا حديثاً في الأسلوب والمحتوى، وكم كنت أود، ولا حق لي أن احرضك، أن تقلل من تشاؤمك، مع أن ما في هذه الدنيا كلها لا يبعث على التفاؤل، فإن العالم منقسم الى معتد مجرم ومظلوم معتدى عليه، أفليس من واجبنا نحن الأدباء والشعراء أن نكون مع المظلوم على الظالم.. أنا الآن في ضيق مالي بسبب قطع العون بدفع تقاعدي لي في مغتربي بسبب الحرب..»

ومات ذنون أيوب بعد تلك الرسالة بأشهر قليلة، وقد نيف على الثمانين بعد ان أخترع له يوماً وشهراً وسنة لميلاده، وإن كانت شهادة ميلاده العثمانية تقول بأنه قد جاوز الثمانين بعدة سنوات ولكنه لا يريد أن يصدق ما جاء فيها.. وأمس أنهيت قراء الأجزاء الستة من مذكراته، وما ألحق بها من كتاب سابع خصّه بتعليقات متفرعة عن تلك المذكرات، فان الله قد منّ عليه بما أراد، واعترف لصديقي الذي ود لو أصرف النظر عن الكتابة عنه، بأنني على مثل رأيه، لا في الذي كتبه في مذكراته بل في محاكمة بعض ما جاء فيه محاكمة عادلة، وأن أصدقاءه وأهل بيته حقيقون بمثل هذه المحاكمة التي لا بد وأن تنتصف لهم، وأنه كان جديراً به أن لا يكتب ما كتب بحماسة الشباب وعفويته واندفاعه.. ولكنها العزلة والزمن الصعب.. ويبقى ذنون بعد كل ذلك رائداً من رواد القصة العراقية، وإن سبقه اليها أحمد محمود السيد، وصاحب مجلة كان لها دور مهم في تاريخنا الأدبي هي «الحاصد» لأنور شاؤول، وأنه إذا كان قد مالأ تحت ظرف ما أحداً فياطالما كان في ظروف اخرى المدافع العنيد عن الحق، وإذا كان قد عادى بغير حق في لحظة ما، فيا طالما كان الصديق الصدوق لكل من ارتبط بهم، وإذا كان قد ساوم من أجل منصب فما أكثر المناصب التي رفضها ليبقى

مع الناس الذين أحبهم وآمن بهم.. فيا صديقي الغاضب عليه وعليّ.. لكم أتمنى أن نلتقي مرة أخرى لنستعيد بمحبة ذكريات من فقدناهم.. ولنذكر حسنات موتانا.. ولنترك للآخرين أن يكونوا أحسن منا.

١٩٨٨/١١/٢٢

سميرة عزام

.. الى متى سننساها؟!

ما نكاد ننفض أيدينا مما علق بها من تراب دفنه، حتى نأخذ على أنفسنا بأن نمعن في هيل التراب على ذكراه، الا من قيض له من أدبه الكبير ما يبقيه حياً، أو من قيض له أن يكون منسوباً لهذا الحزب او تلك الجهة التي لا تريد له ان يموت الا بأمر منها وبأثر من ظروف طارئة، وقد نتعاون جميعاً على هيل التراب على بعض ادبائنا ومفكرينا وهم أحياء، بأثر من علاقات سياسية أو طائفية وطبيعة حكم سائد، ويبقى لنا أن نعزي انفسنا بأن التاريخ لن ينسى من هو حقيق بأن لا ينسى، غير أن من ضعفت ذاكرته ضعف وعيه بالتاريخ، ولذلك فقد يمر زمن طويل وطويل جداً ونحن في سبات عميق، وتاريخنا في غيبوبة عن رفع الإجحاف الذي لحق بالعديدين ممن كان علينا أن لا ننساهم.

عنّ لي ذلك وأنا اقرأ على ظهر الغلاف الخلفي لواحد من الكتب التي أصدرتها إحدى دور النشر ببيروت للكاتبة الفلسطينية سميرة عزام، التي توفيت منذ ما نيف على عشرين عاماً، ومع ذلك فمن النادر أن تقع الى أكثر من اشارات سريعة لدورها في الأدب الفلسطيني خاصة والأدب العربي عامة، حتى حق لكاتب تلك النبذة على ظهر الغلاف الخلفي لمجموعتها «أشياء صغيرة» ان يتهمنا جميعاً بقوله «لم تظلم كاتبة في الوطن العربي كما ظلمت سميرة عزام، هذه المرأة الخضراء الظل، المبدعة المناضلة، الشامخة، المقاتلة.. هي رائدة القصة القصيرة، ولم تأخذ حقها من النقد والنقاد ولم تنشر أعمالها كما ينبغي لكاتبة في مثل مقدرتها.. وهي العربية الفلسطينية الصميمة، الودودة قلباً، الصلبة موقفاً، والتي لم يذكرها أحد في تاريخ نضالنا، مع أنها أول من اسهم في تأسيس وتشكيل تنظيم فلسطيني في نفس الوقت الذي كان فيه أبو عمار يؤسس مع رفاقه حركة التحرير الفلسطينية».

وسميرة عزام التي عرفتها منذ عام ١٩٤٨، أي قبل أربعين عاماً، لم تكن تريد أن تعرفني بنفسها الا بتلك الفتاة الفلسطينية التي كتب عليها أن تحمل أرضها في قلبها ومن مكان الى مكان، وأن تحاول أن لا تنسى ولو للحظة واحدة انها مشدودة الى أرض فلسطين وعبر

ذكريات صغيرة لا يمكن ان تتخلى عنها، واذا كان غيرها من أدباء جيلها قد تحدثوا عن الكثير من تطلعاتهم النضالية، كانت هي تسعى لأن تعمق حسًّا بالانتماء لتلك الأرض التي أحبتها وعرفت فيها أول تجربتها مع الوعي بمسؤوليتها عن جيل من الطالبات اللواتي قيض لها إن تعلمهن وهي دون السابعة عشرة من عمرها، وذلك يوم ان مارست التدريس في إحدى مدارس البنات في عكا.

وإذا كان غيرها من أدباء جيلها قد آثر أن يأخذ نفسه بلغة الشعراء تعميقاً للمناخ الانفعالي الذي تستوجبه اللافتات الكبيرة لقضية إنسانية كالقضية الفلسطينية، فإن سميرة عزام، كانت ترى في رصد الواقع من خلال الملاحظات الواقعية الدقيقة، ما يهب قضيتها بعدها الانساني [عالم الآخرين هو عالم بطلاتها وأبطالها، لا تكاد الدموع تفر من عيونهم حتى تسيل على صفحاتها بعد مآقيها. . «فرحات» القروي البسيط وهو يستعد لركوب الطائرة الى المهجر ومن حوله عالمه الصغير من المحبين، هو السمكة التي ستنتزع من البركة لتتخبط بتشنج في مكان ما من العالم. في «فرحات» تتجمع استلابات الهجرة وأوجاع الغربة وحين يشهق محبوه بالبكاء يتشقق عالم ويتصدع وجود وتنتقل الدموع من أقرباء فرحات ومعارفه الى البطلة التي أخذها فرحات وهي لا تعرفه، ولكنها تتعرف فيه على الوجه الكالح للهجرة العامة لريفيين نحسّ استحالة تكيفهم وانشتالهم خارج عالمهم الصغير الدافىء ـ عفيف فراج].

في اقاصيص سميرة عزام يعيش كل ما هو عام وكل ما هو خاص في تلازم مكين، ومع ذلك تظل للشخصية فرادتها الأخاذة التي تشدنا إليها بأثر من خصوصيتها وخصوصية معاناتها، ومن دون ان تفقدها إطاراتها الإيجابية الشديدة، الشيء المهم منها والشيء الدال عليها، وذلك بأثر من تعميق العلاقة ما بين السرد الذي يجسد الحدث، والحوارات الداخلية السريعة جداً، التي تفترض التناقض وتبرز شكل الأزمة، أو التساؤلات وهي الغالبة دوماً، وما بين التداعيات التي تتواصل مع كل ما يحيط بها «وجاءت النهاية يوماً. . استيقظت العمتان مرة على صوت الجيران يودعون فتاهم المسافر الى أمريكا للدراسة. . واستيقظت سعاد بعد ليلة حلمت فيها بفهمي، فهي في أحلامها أجرأ منها في يقظتها على بناء القصور. . استيقظت على صوت شفيقة القديم يصيح: ـ ألم تستيقظ بنت الباشا. ؟!. . أتراها ستظل نائمة الى الظهيرة. . ؟! ومن يكنس الشرفة ويسقي أصص الزرع. . ؟!. . أنا؟ ـ حكايتها لسميرة عزام».

إن هذا التمازج ما بين الداخل والخارج يشكل عنصراً مهماً في غالبية أعمال سميرة عزام، ومن خلال ما نستلهمه من خصوصية حياتها الذاتية ومعطياتها، فالأفكار العامة ممتزجة، وبكثير من التماسك العضوي، بكل ما هو واقعي ومجازي في الآن ذاته، وبذلك تصير الأشياء الصغيرة، أشياء كبيرة. وحيث يختفي دور الكاتبة وراء قدرة البطل على رصد الأحداث المختلفة ونسج التآلف فيما بينها، وبلغة على جانب كبير من الشفافية الموحية بغير بعد من الأبعاد، وبما يعطي للكلمة أهمية متميزة، لا تقف مجادلتها ومحاكمتها عند الكاتبة، بل تبدو وكأنها من بعض معاناة أبطالها «ـ انني أمها وأبوها. . ولكن ما لها لم تقل إنها وفية لذكرى

رجلها الراحل . . ؟ . . الوفاء . . وشعرت بـالكلمة تخـرج من فكرهـا ، باردة الملمس ، خـافتة الصدى ، هذه الكلمة التي كانت في يوم ما ، قيدا يحول بين شفتيها البسمـة ويشدهـا شدًّا الى قبر زوجها ، فلا تنشق من الدنيا إلا رائحة الـذكريـات . . فما للقيـد قد تـراخى والكلمة قـد تلفعت بالبرود . . ؟ ـ «أمومة خيرة» ـ لسميرة عزام» .

إنها كاتبة واقعية تقودنا الى حياة حقيقية ، بحيث يكون للكلمة أن تخرج بكـل حميميتها من لغة صاحبها ، ولذلك تكتسب قوتها التعبيرية من ظلالها وإيحاءاتهـا وقدرتهـا على التلون ، ومما يتشكل بها معجمها المتميز بفرادته ، والذي يستوجب الوقوف طويلاً عنده «وطالت بيني وبـين المعلم لعبة القط والفأر ، ومـرضت أعصابي وأنهكهـا طول المـلاحقة ، ثم وقعت فـريسة مـرة لتخرج بعد قليـل إذ طردهـا النذل الى الشـارع مطعـونة الكـرامة ، سليبـة الاباء . . وجـلى ، حيري ، باكيـة ، محطمـة . هناك تعلمت ان أكـره تعلمت ان انتقم وتعلمت اشياء أشيـاء . . وصرت تاجرة» . . لاحظ كلمة مرضت أعصابي ، ثم لاحظ انتقال اللغة ما بين السرد وما بين الحوار الداخلي . ثم لاحظ كيف تستخدم الكليشيهـات الجاهـزة عندمـا تتحدث عن تصـوير المجتمع «مطعونة الكرامة ، سليبة الإباء» . . ثم وجـلى ، حيرى ، بـاكية ، محـطمة ، فحـالتها لم تعد تتسع للوصف والرسم والتصوير ، بل لألفاظ موجزة ومطلقة تستمد الكلمـة فيها قـوتها ، لا من معناها فحسب ، بل من مؤثرات أخرى عديدة ، كالصوت مثلاً ، وكالتداعيـات الملحقة بهـا أيضاً . فلماذا آثـرت أن تستخدم كلمـة «وجلى» بـدلاً عن «خائفـة» . . ؟ ذلك لأن كلمـة «خائفة» ستحمل لنا تداعيات مألوفـة ولحالات كثيرة عشناهـا معاً ، أمـا «وجلى» فهي تـوحي بالمعنى ذاته ، ولكنها تتسع لما هو أبعد مما هو مألوف ، عبر مسعانا لأن ننتـظمها في مـرمى ذهني صاف وواع . . انها توحي بضرب من الخوف غير المألوف .

وللمرأة حضور متميز في غالبية أقاصيص سميرة عزام ، المرأة في الواقع الاجتماعي ، والمرأة في العمل ، والمرأة في التراث ، والمرأة وهي محكومة بـالتقاليـد والعادات ، والمـرأة الأسيرة لكـل روابط الأسرة ، والمرأة في أدق صفاتها الخلقية والنفسية التي تلاحظ التفاصيل الـدقيقة «وقفت طويلاً أمام البذلتين اللتين أملكهما ، كان عليّ أن أختار واحدة ، آثرت الـرماديـة فقالت أمي : لقـد لبستها حـين قابلت المـدير فـالبس الأخرى ، عجيب كيف تسـتطيع النسـاء تذكـر هـذه التفاصيل ، لقد نسيت أنا أيهما كنت لابساً» وامثال هذه المقارنات ما بين الرجل والمرأة توضـح رؤية تجسيدية لطبيعة كل منهما ، بل إن الرجل يبدو في الكثير من اعمالها القصصية وكأنـه ليس بأكثر من مجرد مؤثر خارجي لتفجير كوامن المرأة العـربية وهي في واقـع اجتماعي يميـز الرجـل بكينونة متفوقة ويوليه دوراً لا تكون المرأة فيه إلا من بعض ظلالـه التي تتحرك وتكـبر وتصغر بأثر من تحركه «وتولى أبو شوقي شؤون أخته المالية فباع واشترى وحط وشال وغير وبدل وبلع ما بلع وظل يترحم على مسعود كلما قام أو قعد» «إن رجلي فقير ولكنه قوي وطيب وسأبدو الى جـانبه قـوية فـلا أشعـر بضـآلتي كـما أحس الآن حـين تمـر بي واحـدة من اولئـك المعـطرات الأنيقـات» . . وتظل فلسـطين تطل بـرأسها من خـلال كل هـذه الصور المتعـانقـة بحميميـة صادقة ، لتجسـد بها المـرأة كبؤرة تنبثق منها خصـوصية الأرض التي نمت وكـبرت فيها ، والتي يبدو التعلق بها أشد عمقاً وكثافة ، كلما أحـاط بها محيط جـديد «لم تستـطع أن تهضمه وتتمثله

وتمتصه في كيانها لتلبس به كياناً آخر ـ د. محمد يوسف نجم».

وفي هذا الواقع الجديد عرفتها، يوم أن قدمت الى العراق في أواخر عام ١٩٤٨، على ما أذكر، وضمن نخبة من الأساتذة المتعاقدين مع وزارة المعارف العراقية، وكان من بينهم جبرا إبراهيم جبرا، الذي أخذ بأيدينا ونحن نبحث عن وجهنا الحديث في أدبنا وفننا، وكان من بينهم الدكتور حلمي سمارة ومحمود الحوت وفهد الريماوي وغيرهم وغيرهم، وقد عهد لسميرة عزام أن تقوم بالتدريس في مدينة «الحلة» الجميلة والواقعة على نهر «الفرات» حيث زاولت مهنتها في مدرسة للبنات فيها.

لم أكن قد سمعت آنذاك باسمها، ولا أعتقد أنها كانت قد نشرت شيئاً ذا بال يعطي لاسمها وهجاً يلفت النظر اليه، وكان جبرا ابراهيم جبرا أول من حدثني عنها، حديثاً موجزاً عن فتاة في الحادية والعشرين، وأنها حريصة على التعرف الى أدباء العراق الشبان الذين يعملون لتجديد وجه أدبهم، وفي يوم آخر اقترح ان نقوم، في عطلة الأسبوع، بسفرة الى الحلة لزيارتها، قال انها تسكن في شقة مع معلمتين أخريين هناك، واتفق محمود الحوت معنا على هذه الرحلة ولم يكن من الصعب ان نعثر على عنوان الشقة. طرقنا الباب فانفتح نصف انفتاحة، عن وجه زميله لها، سرعان ما غاب عنا، ونحن نسمع خفق نعلها على السلم المواجه للباب، عادت بعد ذلك بقليل لتعلمنا بأن من الصعب عليهن أن يستقبلهن الرجال في شقتهن، فالحي محافظ كما تعرفون ونحن في انتظار أحد أقربائنا ليكون لنا ان نخرج سوية الى أحد المطاعم لتناول الغداء معاً، فالرجاء الانتظار. كان الحديث يجري بين جبرا وبينها وكنت أقف متكئاً على عمود في مواجهة الباب، وظلت هذه الصورة عالقة في ذاكرة جبرا، يرددها، كلما كان لنا أن نتذكر هذه الزيارة: «لقد كنت يا بلند تبدو بمعطفك الطويل وأنت متكيء الى العمود الضخم وكأنك تمثال إغريقي يعبر عن الخيبة».. وبعد أن طفنا لمدة من الزمن في أرجاء مدينة الحلة، عدنا الى طرق باب الشقة، وكان كل شيء قد اعد، فالقريب قد وصل، والآنسات الثلاث خرجن لاستقبالنا واصطحابنا الى مطعم قريب، تناولنا فيه الغداء، ثم عدنا سوية الى الشقة لتناول الشاي.. كان الحديث في جله، عاماً.. فلسطين أولاً، ثم دار عن وضعهن ومعاناتهن، وعن طموحات صغيرة وذكريات، وكان لكل منا أيضاً حديثه في الأدب.. كانت سميرة تسير بترنح، ظننته في البدء ضرباً من الغنج إلا أنني علمت بعد ذلك أنها تشكو من عرج لازمها منذ طفولتها.. وكنت أحمل معي نسخاً من ديواني «خفقة الطين» ونسخاً من مجموعة قصصية لنزار سليم «أشياء تافهة» والعددين من المجلة التي أصدرناها عام ١٩٤٦ باسم «الوقت الضائع» والتي صدر عنها الديوان والمجموعة القصصية، وزعتها عليهن، وفي المساء قفلنا عائدين الى بغداد، وعلى أمل أن نلتقي مرة أخرى بهن، ونأمل أن يكون ذلك في بغداد. إلا أن ذلك لم يحصل، وكل ما حصل هو انني تسلمت رسالة من سميرة عزام تبدي فيها إعجابها بديواني واعجاباً كبيراً بأقصوصة من أقاصيص مجموعة نزار سليم يتحدث فيها عن فتاة صغيرة فلسطينية تقف أمام المذياع لتخبر أهلها في فلسطين بصحتها الجيدة وترسل التحيات لأبيها وأمها وإخوتها.

ولم يطل مكوث سميرة عزام في العراق، إذ غادرته بعد عامين الى لبنان، ثم انضمت بعد

ذلك الى أسرة محطة الشرق الأدنى، وبعثت لها بديواني الجديد الذي صدر عام ١٩٥١ باسم «اغاني المدينة الميتة» ونسخة منه الى المرحوم عبد الله المشنوق، وسرعان ما كان لعدد من قصائده أن نشرت في المجلة وأذيعت في الاذاعة، وكان لي أن أتسلم ثمن ما يذاع وما ينشر، كانت كل صلتي بها انذاك، هو أن أنتظر برنامجها الخاص بالمرأة، وان أستعيد من خلاله صورة اول لقاء كان لي بها.

وفي عام ١٩٥٧، فوجئت بها في بغداد، بعد أن تعاقدت مع الإذاعة العراقية كمذيعة، وزارتني في بيتنا، وهي تتأبط نسخة من باكورة اعمالها القصصية «أشياء صغيرة» وقالت: انها صغيرة وليست «أشياء تافهة» وكان معها شريط غنائي لفيروز، سجل على بكرة كبيرة، وقيض لي بعد فترة من الزمن أن أسهم معها في برنامج اذاعي صباحي باسم «تحية الصباح» حيث أوكل لي أن أعد مادته، وأن تقوم هي باذاعته. ولم يدم البرنامج طويلاً، فقد ألغي بعد عدة حلقات، واعلمني أحد الأصدقاء العاملين في الإذاعة بأن المسؤول عن الاذاعة لم يكن راضياً عنه: إنه برنامج تعاز، فأية تحية هذه التحية المملوءة بالحزن وبهذا الصوت الأكثر حزناً.

وبقينا نلتقي لماماً طوال تلك الفترة التي استمرت الى عام ١٩٥٩ حيث استغني عن خدماتها، ولم تنفع شفاعتي لها عند عدد من المسؤولين الكبار الذين كانت تشدني إليهم صداقة حميمة، فقرار الاستغناء عن خدماتها كان أكبر من أن يسمح لهم بالتدخل لصالحها.

وتمضي الأيام سراعاً، وتمتلىء بعض الساحات العربية بالأحداث الجسام، وصار كل منا مشغولاً بالبحث عن نفسه وسط ما كان يجري ويقع ويحدث، الى يوم التقيتها في لبنان عام ١٩٦٤، وهي قاصة معروفة، صدرت لها عدة مجموعات الى جانب ما كانت تكتب وتترجم، ولم يمنعنا اختلاف وجهات النظر في العديد من المشاكل السياسية، من أن نلتقي من حين لآخر، أقرأ لها وتقرأ لي، ونستعيد شتاتاً من الذكريات، التي لونتها أيام الغربة بالكثير من الأحاسيس الداكنة.. وفي عام ١٩٦٧، تسافر بسيارتها الصغيرة الى الأرض المحتلة.. وماتت وهي في الطريق.. «تستمع الى ترتيل القرآن الكريم كعادتها، فالإسلام حضارتها، كما كانت تقول، وهي النصرانية الغسانية، ولم تمت سميرة بداء أو مرض، فقد ماتت نتيجة الجرح النازف من خاصرتها» ماتت وهي في أوج عطائها.. وكان لي أن أسهمت بقصيدة رثاء لها في ذكراها الأربعين، برغبة مني وبدعوة من الصديق العزيز شفيق الحوت.

١٩٨٨/١١/٢٢

إنه حديث لا ينتهي

إنه الكتاب الثاني الذي تصدره وزارة الثقافة والإعلام العراقية عن الفنان المرحوم نزار سليم، وكلا الكتابين اللذين صدرا كانا بقلمي صديقين حميمين له، الأول منهما صدر غب وفاته عام ١٩٨٢ وبمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته واحتفال الوزارة بذكراه، والثاني صدر قبل فترة وجيزة، بل وبعد مرور ست سنوات على ذكراه، كان الأول قد قام بإعداده إعداداً سريعاً الصديق شوكت الربيعي، أما الثاني فقد أعده الصديق خالص عزمي، وفي كلا الكتابين ما يؤخذ عليهما، لا لأنهما لم يستوفيا حقهما من الدراسة الدقيقة فحسب، بل لأنهما افتقدا تلك الحرارة التي طالما كانت تشع من نزار سليم على جميع أصدقائه، وأنهما كانا من بعض اصدقائه المقربين إليه، وأنهما طالما سمعا قهقهته المجلجلة وطالما ضحكا طويلاً أمام صوره الكاريكاتورية، وطالما قرءآ له وطالما . . وطالما . . فلماذا آثرا ان يقفا منه موقف المؤرخ المعني بتاريخ ميلاده وتأريخ وفاته وبتدوين دوره في الحياة الفنية العراقية تدويناً موجزاً؟ فذلك ما كان بإمكان أي واحد ممن عرفوه أو لم يعرفوه أن يقوم به، أما هما فقد كنت أمل أن يتحدثا عن خصوصية علاقتهما به، وعن خصوصية أهل بيته وأصدقائه ومن عملوا معه في السلك الخارجي ووزارة الثقافة يوم ان شغل فيها منصب المدير العام للفنون، وكلهم على مد ذراع منهما، بل إنهما كانا معه في غير فترة من تلك الفترات.

ورغم ذلك، فلهذين الأثرين أهميتهما لمن يريد أن يعتمدهما مدخلاً لدراسات اوسع واشمل، وكلي أمل أن يكون ذلك من بعض طموح الأخ الصديق خالص عزمي والأخ شوكت الربيعي. ويبقى لي من الكتابين ما أثار حماستي لأن استرجع الكثير من ذكرياتي مع نزار سليم، الذي ظل دائماً الصديق الأقرب الي من جميع أصدقائي الآخرين، وحسبي من ذلك أننا بدأنا سوية، ونحن نتلمس طريقنا الى الفن والأدب بمعنى في الجدة ومعنى في الحداثة، يتجاوزان كثيراً تلك الجملة التي استلها خالص عزمي من كلمة موجزة لعدنان رؤوف يقول فيها: «. . هي المرحلة التي توثقت علاقتنا ببلند الحيدري وعن طريقه بعدد ممن كسبنا من الأصدقاء».

كان تعرفي بنزار سليم عن طريق أخيه الفنان الكبير جواد سليم «١٩١٩ ـ ١٩٦١» والذي كـان قد عـاد تواً من رومـا في ١٩٤٠، بعد أن قـطع دراسته فيهـا، بأثـر من نشوب الحـرب العالمية الثانية، واسس مع نخبة من الفنانين العـراقيين «جمعيـة أصدقـاء الفن» والتي لا ادري كيف كـان لي أن أنحشر بينهم فيها وأنـا دون السادسـة عشرة من عمري، ولقـد كـان لجـواد سليم تـأثيره الكبـير عليّ، ورغم الفـارق الكبير، آنـذاك، بين عمـرينا فقـد نمت بيننـا مـودة أوصلتني الى بيتـه وعرفتني بـأهل بيتـه كلهم، بـل انني صرت واحـداً منهم، واذا كـان لي أن اتغيب يوماً أو يومين عن زيارتهم كانت أمـه تبادر بسؤالهم عن سبب انقـطاعي عن زيارتهم، وتحثهم على الاستفسار عن السبب، وكثيراً ما كنت اقضي جـل نهاري وليلي في دارهم متـأملاً في أعمال جواد، ومتصفحاً في مجلة «الصبا» الخطية التي كان يصدرها نزار سليم ويقوم لوحـده بكتابتها ويرسم رسومها الكاريكاتورية، وقد نشر لي فيها بعض ما كنت أقرزم من الشعر.

كان كل أهل البيت من الفنانين المبرزين، فالحاج محمد سليم رسام، وسعاد رسم، وجواد يـرسم وينحت، ونزيهـة ترسم، ونـزار يرسم ويكتب القصـة، وتتوزع الكتب وإسـطوانـات الموسيقى والرسوم على كل زوايا الـدار وجدرانـه. ويكاد الحـديث لا يدور في تلك الـدار الا عن الفن والأدب والموسيقى، وكان جواد اكبر من أن يكون صديقـاً لي، وأكبر من أن يكـون الأخ لإخوته، كـان أستاذنـا جميعاً، نتحلق حـوله ونستمـد منه همتنـا على البحث عن كـل ما يفردنا في الجدة، ولفترة من الزمن كنا نخرج ـ أنا وهـو ـ سويـة، لهذا المقهى أو ذلـك الملهى لأكتب انا مقاطع من الشعر مستوحاة من جو ذلك المكان، وليرسم هو تخطيطاته، عـلى أن لا يطلع أي منا الآخر على ما يعمل لكي لا يكون عمل اي منـا شرحاً لعمـل الآخر، وقـد قام ديزموند ستيورت بترجمة عدد من تلك المقاطع الشعرية ونشرها مـع تخطيـطات جواد سليم في مجلة أمريكية معروفة يومذاك هي مجلة «نيو رايتنك» عام ١٩٥٢.

أقول كان جواد أكبر من أن يكون صديقي، فقـد ظلت له صفـة الأستاذ الـذي أطمح أن أستـوعب ابعاده وأحقق لـه ظنته بي، وكنت أصحب اليـه من وقت لآخـر بعض أصـدقـائي لأعرفه بهم: شاكر حسن آل سعيد وبدر شاكر السياب وجبرا إبراهيم جبرا.. والذين سرعان ما توطدت بينهم صداقة حميمة.. «فمنا سيولد عراق جديد»، كما كان يقول ويكرر دائماً.

ولكن نزار بقي أكثر قرباً إليّ، وكنت أكـثر انسجاماً معه في طمـوحاتنـا المتواضعـة، وكان الزمن أفسح مجالاً للالتقاء به، كـما صرنا أكـثر التصاقـاً ببعضنا البعض بعـد أن غادرنـا جواد سليم الى لندن لاستئناف دراستـه الفنية فيهـا وذلك في عـام ١٩٤٦، وخلا الجـو لنزار سليم ليخرج قليلاً عن سيطرة جواد عليه، وإن بقي دائماً مشدوداً اليه، وموزعاً رغبتـه بين القـاص والكاريكتوريست والرسام، وصاحب مجلة تنهض باحلامه واحلامنا، والتف حـولنا نخبـة من الطلاب النابهين المأخوذين بهوس الأدب والفن آنذاك. وذات يوم ونحن نقـوم بزيـارة لقريـة صديق لنا، عن له أن يثير موضوع اصدار مجلة. وتحمسنا لها، واستعرضنـا عدداً من الأسـماء لها، ثم وقفنا عند «الوقت الضائع» وعلق احدنا بأنه اسم ليس جديداً. فهناك كتاب لمارسيل بروست (١٨٧١ ـ ١٩٢٢) باسم «البحث عن الوقت الضائـع»، وعلينا أن نختـار اسماً أكـثر

إثارة، إلا أننا أجمعنا على أن يكون اسمها «الوقت الضائع» إمعاناً في السخرية ممن يظنون بأن الأدب والفن مضيعة للوقت. وما كدنا نعود لبغداد حتى باشرنا بالعمل من أجلها كنشرة لا تخضع لطلب حق الامتياز الرسمي، وكلفت بمراجعة المطابع لدراسة كلفة طباعتها، فاخترت مطبعة صغيرة هي مطبعة «الزمان» لطباعتها فيها. وجمعنا ثمن كلفتها بنسبة خمسة دنانير من كل واحد منا. وتحمل نزار سليم أمر تدبير المبلغ من صندوق «جمعية حماية الأطفال»، حيث كان يعمل فيها صباحاً، ريثما نستطيع أن نوفر المبلغ له، ولا اعتقد أن أحداً قد سدد حصته سواي، وذلك بعد قرابة اثنين وعشرين عاماً، واصر على ان يكون المبلغ الذي ادفعه له مضاعفاً بسبب فارق العملة، وصدر العدد الأول وقد افترشت صفحته الأولى قصيدتي «الجحيم» وأثرنا إن لا يكون للمجلة ما يؤرخها بزمن معين، فالوقت الضائع لا تاريخ له، كما أثرنا إن يكون سعرها سعراً عالياً جداً وليس مألوفاً لمجلة بحجم نصف جريدة وتباع بأضعاف أضعاف أية جريدة عراقية. . وشمل العدد الأول مقالاً لنزار عن جواد سليم، ومقالاً للفنان البريطاني كينث وود. خص به «الوقت الضائع». وقد تحدث فيه عن مجيئه لبغداد ضمن من جاؤوا إليها من جنود الحلفاء آنذاك، ومقالاً عن السيمفونية الحزينة لتشايكوفسكي للمهندس سعيد مظلوم، وقصيدة مترجمة عن طاغور. وقصيدة نثرية لحسين هداوي. وأخباراً أدبية وفنية أشرف على إعدادها نعيم قطان، ثم كان هناك إعلان عن العدد القادم انتظروا ١ + ١ = ١. . سعر النسخة ٥٠ فلساً. . تعنون المراسلات باسم: مطبعة الزمان ـ نزار الحاج سليم»، وأعقب العدد الأول عدد آخر، كان أكثر إثارة، فصورة الغلاف صورة بائخة لتمثال لخالد الرحال، وشكل المجلة بحجم كتاب متوسط الحجم، ولكن يفتح بعكس ما هو مألوف، وفي العدد قصة «دودة» لعدنان رؤوف، وقصائد نثرية ذيلت بأسماء أجنبية مخترعة وكانت كل تلك القصائد مملوءة بالصور الغريبة مثل: «ثم وضع قدميه في جيبه وسار». . الخ.

لم تدم المجلة طويلاً رغم ما أثارته من ضجة معادية، وأصدرنا من خلالها كتابين على أساس أنهما من منشورات «الوقت الضائع»، كان الأول منهما مجموعة قصصية لنزار سليم باسم «اشياء تافهة» والثاني منهما «خفقة الطين» وهو مجموعة شعرية لي، والتي قال عنها في عام ١٩٥٣ بدر شاكر السياب «هناك عدة شعراء أكنّ لهم كل تقدير وإعجاب ومنهم بلند الحيدري الذي كان ديوانه «خفقة الطين» اول ديوان صدر عن ثلاثة دواوين كانت فاتحة عهد جديد في الشعر العراقي هي: «عاشقة الليل» لنازك و «أزهار ذابلة» للسياب وكان صدوره في أواسط عام ١٩٤٦.

ولم يفتّ ذلك في عضد نزار ولا في عضدنا، إذ سرعان ما تحمس لفكرتي في أن نفتح مقهى. وقد علمت بأن ثمة موقعاً رائعاً يصلح لهذا المقهى، من قبل طباخ عمل في بيتنا لسنين طويلة، وأنه مستعد لأن يقوم بإعداد الطعام والقهوة والشاي لزبائنه ومرة أخرى نقوم بجمع المال اللازم لفتح «واق واق» لتكون منتدى الأدباء والشعراء والعشاق، الذين يجتمعون فيها كل مساء ليتحدثوا عن الفن والأدب وفتيات الكليات الجميلات، وقد أفردنا في المقهى غرفة للشاعر حسين مردان تكفيه مغبة التشرد في شوارع بغداد. . كنا نلتقي فيها كل مساء.

نتحلق فيها حول منضدة واسعة الى ساعة متأخرة من بعد منتصف الليل، وقد نتعصب لهذه المدرسة الفنية أو تلك لحد الشجار، وكان نزار دائماً حمامة السلام التي تصلح ذات البين بنكتة، وقد ينزوي أحياناً بقلمه ودفتر تخطيطاته ليرسم صوره الكاريكاتورية للجالسين والمتناقشين. وإذا كان هذا المقهى قد نال إعجاب بعض المثقفين الذين صاروا يؤمونه ليشاركوا في النقاشات، فقد كان عند غير فئة من الشبان السياسيين، مقهى للوجوديين وحملة الأفكار الأوروبية الهدامة، ولم يتوان بعضهم من أن يمروا بها بسياراتهم في الأماسي ليرجموها بالطماطة وسبها وسب أصحابها، وكان أيضاً بالنسبة لرجال الأمن مقهى لا بد من مراقبته. ويصف خالص عزمي انطباعاته عنه في كتابه عن نزار سليم بقوله «.. كنت حينما امر في طريقي من بيتنا في محلة السفينة في الأعظمية الى النادي الأولمبي حيث كنت أمارس لعبة التنس هناك، ألاحظ مقهى يقابل النادي من الجانب الآخر تدور فيه أحاديث الشباب من جهة ولعب الشطرنج من جهة أخرى: كان المقهى على بساطته يستهويني حقاً، وكان يستهويني فيه أكثر مما سمعته عن رواده من إطراء وتقدير لما كانوا يتمتعون به من مواهب أدبية وموسيقية وتشكيلية، لقد حاولت التعرف الى بعضهم ولكن كان تعرفاً شكلياً ولم يمكث هذا المقهى طويلاً إذ أغلق ابوابه فغابت بغيابه نجمة من نجوم التجمع الثقافي والفني لمعت في الأفق البغدادي وأعطت شعاعاً يرمز الى جهاد شباب أرادوا أن يحققوا في دنيا الحياة الثقافية مطامحهم المشروعة في جو من الالفة والمحبة والتقارب في الأفكار والأماني وبخاصة في مجالي الأدب والرسم».

وما لم يقله الصديق خالص عزمي، هو أن هذا المقهى اصبح ملتقى لرجال الأمن الذين يقصدونه عشية كل مساء ليمدوا بآذانهم الى احاديث رواده من الشبان الذين يتحدثون بلغة عجيبة بالنسبة لهم، يتحدثون عن السريالية والتكعيبية والدادية والرومانسية والوجودية الخ، وكان أن أثار حضورهم الدائم خوف العديدين من روادها الذين بدأوا يهجرونها حتى اضطر أصحابها الى إغلاقها.

ويسافر نزار من أرض الى أرض وفي كل أرض لقاء مع مسؤوليات جديدة ولغات جديدة «... فالداعي كما تعلم كوماندو وزارة الخارجية وبذلك أكون قد اشتغلت في تأسيس أربع مؤسسات لوزارة الخارجية، الأولى في ألمانيا والثانية في السودان والثالثة في الصين والرابعة في السويد - من رسالة خاصة لنزار سليم في ٦٤/٥/١١» ولكن نظل على صلة عبر الرسائل العديدة فيما بيننا، وكان ما يضايقه من رسائلي هو قصرها، وكثيراً ما كانت تصله على بطاقة مصورة، وما كان يضايقني من رسائله هو طولها، المحشو بكل ما يتداعى الى ذهنه من أمور دنياه وما يتسلل بينها من تخطيطيات، وإذا كانت هموم الغربة قد نالت الكثير مني فإن هموم الانتقال من مكان الى مكان قد أتعبته وخلقت له اجواء غير مريحة، وصارت داره مدرسة لعدة لغات من إنجليزية وألمانية وعربية. وسألته في إحدى رسائلي عما إذا كان قد تعلم الصينية فكان رده «يوم أن غادرت الصين أخذت معي كتاباً بعنوان كيف تتعلم الصينية بسبع سنوات».

ويوم أن عدت لبغداد في عام ١٩٧٧، وبعد أن تركت بيروت، كنا على لقاء دائم كل

مساء تقريباً، وكان لنا مرة أخرى أن نعمل معاً في مجلة جديدة تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام، مجلة خصت بالفن التشكيلي وعهد لي برئاسة تحريرها، وكان احد اعضاء لجنة التحرير واكثرهم نشاطاً وحركة فيها.. ولم تدم لنا هذه المجلة طويلاً، فقد تقاعد نزار سليم عن العمل في الوزارة، وقررت انا السفر الى لندن وقبل ليلة سفري كنت عنده وكانت داره في صخب ومرج فابنه رشاد سيتزوج قريباً ولا بد من أن يفرد له غرفة، وريا وربى بحاجة الى غرفة لكل منهما، وحتى سليم الصغير صار يطمح بغرفة له، وعلى نزار ان يجد لكل منهم غرفة ولا بد في هذه الحالة من أن يقوم ببناء غرفة جديدة في الدار، وأن يتنازل عن غرفته الكبيرة ليكتفي بواحدة صغيرة جداً.

وعند الباب.. شد أحدنا على يد الآخر بحرارة، واغرورقت عيناه بالدموع، وإن كانت ضحكته قد بقيت مجلجلة وصاخبة كما كانت دائماً.. المجلة القادمة سأكرسها للأطفال.. انها حلمي.. قلت له: عسى أن يكون بإمكاني أن أساعد في تحقيقها في لندن عبر الشركة التي عهد لي ان اكون مديرها العام، ولكن الشركة لم تدم هي الأخرى طويلاً فقد تعرضت لظروف صعبة أغلقت على أثرها أبوابها، وكان نزار قد مات قبل ذلك بعدة اشهر.. مات في ١٣/٥/١٩٨٢، ولكني، وأنا المدمن على محبة آل سليم، صار لي من ابنه العزيز، رشاد الفنان، ككل أهل بيته، صديقاً جديداً، فما أن التقيه مرة الا ويتواصل فيما بيننا حديث الذكريات الطويلة عن جده وجدته وعن جواد سليم، العبقري الفذ، وعن أبيه.. نزار سليم.. الحالم الكبير.. الذي اجتمعت له من روحه المرحة وحبه للنكتة، ومن ميوله الأدبية ما اغنت إبداعاته وفي غير مجال، وعلى الأخص في كاريكاتيراته الشخصية التي تعتمد على إبراز وتضخيم الصفات الذاتية المميزة للشخص، وذلك ما وهب أعماله فرادتها التعبيرية المنطلقة من خصوصية الموضوع، لا من الشخصيات النمطية، وقد اختير واحد من رسومه، ليعرض في المعرض الدائم لدار الفكاهة المشهورة في بلغاريا ضمن أحسن مئة رسم كاريكاتوري في العالم.. ومن آثاره الأدبية مجموعتان قصصيتان، كما أصدر مسرحية بعنوان «اللون المقتول» اعتمد فيها الكثير من المعطيات الادائية التشكيلية في الدلالات الرمزية، كما ترجم نخبة من المسرحيات والقصص العالمية.

قد أنهى نزار سليم ما كتبه عن اخيه جواد في العدد الأول من مجلة «الوقت الضائع» عام ١٩٤٦ بقوله: «وبعد فهل هذا كل شيء أعرفه عن جواد..؟ إنه لحديث طويل لا ينتهي».. والحديث عن نزار حديث طويل لا ينتهي واملي ان يتسع له في يوم ما المجال.. فقد كال الرجل كيله ولكنه لم يستوف حقه منه.

١٩٨٨/١٢/٧

كلما انطفأت نجمة
ازدادت سمائي عتمة

ساعة أن نفقد أصدقاءنا الواحد تلو الآخر، عندها فقط نشعر بالهرم.

قالها انطوان اكسوبري في قصته «أرض البشر»، وهو يتذكر صديقه «جيوميه» ويوم أن التقطت عيناي هذه الجملة قبل ما نيف على أربعين عاماً، لم تكن لتعني الشيء الكثير بالنسبة لي كشاب أعيش حياتي بطموح كبير، أنا وبدر السياب ونازك الملائكة والبياتي وآخرون من أبناء جيلي، وإن كان الموت قد تسلل الى الكثير من قصائدنا كضرورة رومانسية، وكما ألفناها عند «كيتس» وغيره من الشعراء الرومانسيين.

كنا نمارس الموت في ضرب من الرفض الاستفزازي لواقع نسعى لتهديمه، كنا نمارسه أحياناً لاثارة عطف الآخرين، أو لنتأمل عطف الآخرين علينا من خلاله كما يقول الياس ابو شبكة:

طوفت بي ميتا بأروقة اللظى
فحملت تابوتي وسرت بمأتمي

وكنا نمارسه في أحيان أخرى، كرفض للحياة من أجل الحياة، وفرحنا فرحاً داخلياً عميقاً بموت الآخرين من أجلنا، فصيّرنا الشهداء رايات تملأ شوارعنا، وركضنا خلفها ونحن نهتف لها ونتغنى بعظمة موتهم، بل صرنا نتمنى أن يكون لنا شيء من موتهم.. وخلال ذلك مات الكثيرون من أصدقائنا وأعزائنا وأدبائنا وفنانينا.. مات جواد سليم من قبل أن يرى جداريته الرائعة تنتصب شامخة في الباب الشرقي من بغداد، ومات بدر السياب في الغربة ملبياً نداء والدته:

يمدون أعناقهم من ألوف القبور
يصيحون بي: أن تعال
نداء يشق العروق،
يهز المشاش، يبعثر قلبي رماد

جدودي وآبائي الأولون
سراب على حد جفني تهادى
وتدعو من القبر أمي:
بني احتضني
فبرد الردى في عروقي
ودفئي عظامي بما قد كسوت
ذراعيك والصدر واحم الجراح

ولم يكن جواد قد جاوز الأربعين يوم مات، وكان السياب في الثامنة والثلاثين من عمره يوم اخترم حياته الموت.. وكان بعضنا يمارس الموت برؤية شخصية انتحارية، لا ينفك يطعمها موت الآخرين من أبطاله انتحاراً كما كان يفعل «ستيفان ستفايج» وكأنه كان يريد أن يقتنع بضرورة انتحاره من خلال أبطال قصصه، وهكذا ايضاً انتحر خليل حاوي.. وكانت لي قصيدة بهذا المعنى كتبتها وأنا في الحادية والعشرين من عمري:

وتشبثت بالموت عينان
وتشبثت بالأرض رجلان
وأظل أزحف في الصراع
يهوي شراع
وتموت في جنبي ذراع
وأكاد اومىء بالوداع
يا للجبان.. يا للجبان
وخجلت من ضعفي المهان
ما زال يضحك في ارتياع
ويظل يضحك في ارتياع
وهناك في البهو المغبر بالزمان
كانت تعد لي الثواني
تلك العجوز بلا حنان
تك.. تك..
ويدور فيها العقربان
يا للجبان.. يا للجبان.. متى سيومىء بالوداع..؟!
وأظل أزحف في الصراع.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية ينتحر ستيفان ستفايج، هو وزوجته، تاركاً وراءه قصاصة صغيرة يقول فيها بأن لا عزاء له بعد اليوم وبعد أن فقد وطنه المانيا وفقد مكتبته وبعد أن استسلم العالم «لأولئك الناس الذين لا همّ لهم غير ايقاظ الشرور في العالم»، ومات أيضاً اكسوبري وهو يقود طائرته الحربية، واختلفت الاراء في موته، وقيل انه قاد طائرته الى أقصى ما تستطيع صعوداً في الفضاء ثم فجرها وانفجر معها. . أترى احسست بالهرم وأنت يا اكسوبري في عز فتوتك. . انت الذي أخذت على صديقك جيوميه مغامرته عندما أراد أن يجتاز جبال الأنديز بطائرته فاصطدم بها ومات، وقلت ان موته كان ضرباً من الانتحار ولكنه ليس كانتحار هؤلاء الذين ينتحرون «وليس وراء جماجمهم سوى شبح امرأة كباقي النساء». . احقاً انك انتحرت. . لقد شعرت اذن بالهرم بعد ان جاءت الحرب على العديدين من زملائك. . ربما كان هذا هو السبب. . لقد كتبت اشياء رائعة في كتابك «الأمير الصغير» وفي «الطيران الليلي» وفي «أرض البشر» وما زلت اذكر وصفك الأمين لذلك العربي الذي مد يد العون إليك وأنت في اشد الحاجة إليها. . كنت تفهم الأدب على انه مسعى لأن يغمرنا بالفرح المتأتي من محبة الإنسانية. . كنت مؤمناً بأن الحياة جميلة بقدر ما يمكننا أن ندرك قيمة ما تعطيه لنا. . فلماذا. . ولماذا. . ؟! وماذا كان وراء جمجمتك. . حتماً ليس شبح إمرأة كباقي النساء. . لكننا لم نهرم آنذاك وإن كنا نستعين بكلمتك من آنٍ لآن، وكلما فقدنا صديقاً من أصدقائنا، وبشعور يخالجه الأسف والوفاء. . لم نهرم لأننا كنا لا نزال نملك القدرة على إيجاد أصدقاء جدد يمدون بحياتنا غير أننا اليوم، وأنا. . ومن صاروا في مثل سني التي يصعب فيها اكتساب أصدقاء جدد. . بدأنا بالفعل نشعر بالهرم، ونزداد شعوراً بالهرم كلما فقدنا صديقاً آخر من أصدقائنا وما أكثر ما فقدنا خلال الأعوام الأخيرة: خالد الرحال. . كاظم حيدر. . حسين مروة. . ناجي العلي. . يوسف الخال. . الشيخ صبحي الصالح. . ذنون أيوب. . إنهم أكثر من أن تتحمل أصابع يدي أن تعدم أو أن تفي بعدهم لأنهم لم يكونوا أبداً مجرد أرقام تتسلسل في أرقام.

***

ولأن جاري صحفي لامع جداً، ولأنه متفائل جداً فهو لامع جداً، وقد تعود من سنين أن يفرد الأيام الأخيرة من كل سنة لتأطير الأسماء التي توهجت خلال العام، ولا أدري كيف عن له أن يتواضع فيسألني، وبعد أن أتى على ذكر نخبة من أسماء الممثلين والمغنّين والرسامين ولاعبي كرة القدم، ليسألني: وماذا في ذهنك من أسماء أدباء وشعراء هذا العام. . طبعاً لا داعي لذكر اسم نجيب محفوظ والطاهر بن جلون وغيرهما من نجوم الجوائز العالمية. . قلت له: أنا والله مولع اليوم بالنجوم المطفأة. . النجوم التي ازدادت سمائي ظلمة بانطفائها. . ولأنه متفائل جداً فلم يعن له شيئاً أن أحدثه عن نجوم انطفأت، فهم المتفائلين هو المستقبل، وهمي كان العودة الى الماضي، وإليهم لأنهم من بعض مستقبلي القريب.

في زحمة ما تنقله الأخبار عن لبنان وحرائق لبنان ودولتي لبنان، لا يصير لنا أن نسمع شيئاً عن أخبار اصدقائنا الذين هناك وسط تساؤلاتهم وتمنياتهم وصعوبة حياتهم، حتى اذا ما التقينا

بواحد من القادمين منه فوجئنا بما يحمل الينا من الأنبـاء. . بعض أصدقـائنا مـا زالوا بخـير، الدكتور عـلي سعد انتخب رئيسـاً لاتحاد الكتـاب اللبنانيـين. . انه في مكـانه المنـاسب، فؤاد الخشن واحمد ابو سعد ومحمد دكروب وعلي شلق، كلهم يسألون عنك يا بلند ويعتبون عليك لأسباب لا أعرفها. . الحق معهم. . وماذا. . وماذا. . ، ويصمت صديقي العابر بلنـدن لمدة قصيرة، ثم يقول: ماذا أيضاً. . لقد توفي رضوان الشهال وتوفي محمد عيتـاني. . هل سمعت بذلك. . ماتا ميتة طبيعية. . طبيعية جداً.

مـاذا بقي لهما في لبنـان ليعيشا لأجله، ولأنهما لا يمكن أن يعيشـا إلا في لبنان فقـد آثرا أن يموتا فيه وأن لا يعيشا في غيره. . كيف يمكن أن يظلا حيين بعد ان اعتـدت رصاصـة مجرمـة على حياة اعز صديق لهما على حياة حسين مروة، ومن دون أن تأبه بسنه الكبيرة وبعقله الكبير وبضخامة ما اعطى للأدب والفلسفة والنقد. . لقد عشت مـع هؤلاء الأصدقـاء قرابـة أربعة عشر عاماً، وكانوا من بعض لبنان الذي عرفته دافئاً وحميماً وألوفاً من خلالهم، ومن خلال مـا أبدوا لي من كرم ومعزة وصداقة، وما زلت أذكر يوم زرت لأول مرة رضوان الشهـال بصحبة محمد دكروب، ودلفنا إلى غرفة الضيوف، حيث تصدر واجهتها حسين مروة والى جانبه محمد عيتاني وثمة أدباء وفنانون ومحبو أدب وفن يتوزعون أطراف الغرفة أسبوعياً في جلسة حـوار في الأدب والفن والسياسة، ولأن رضوان الشهال شاعر وقـاص ورسام، فقـد اتسع مجلسـه لكل هؤلاء، ويبقى لنا من أبي نزار، حسين مروة، ما يمد بنا الى أحاديث متشعبة الأطراف ويكون لنا من أحكامه الجادة في النقد والتحليل ما تقوم حجة تخرج بنا من حديث الى آخـر. . وأقرأ قصيدة ويرينا رضوان صورة تخطيطية رسمها مؤخراً، ويتحـدث محمد عيتـاني عن آخر عمـل يقوم بترجمته، ويتصل الحـديث طويـلاً عن الفلسفة والأدب، فقـد كان الـرجل مملوءاً بثقـافة مـوسوعيـة ممتازة لكـثرة ما قـرأ وما تـرجم وما كتب، وقـد يحتدم النقـاش في بعض الأحيـان وتختلف أوجه النظر، ولكن يبقى لفضيلة الود والصداقة ما يجمع بينهم، وتبقى غرفـة رضوان الشهال الملتقى الدائم لهؤلاء الأصـدقاء. فهـذا الفنان «المتعـدد المواهب، المتنـوع القدرات، كـانت تسكنه صفتـان كأنهما متنـاقضتان، روح الـطفولـة والدهشـة وروح الإتقان في أعـمالـه الفنية، عين الطفل التي ترى جديد الكون بدهشة الاكتشـافات المتـواصلة، تتبدى في نسيـج فني شـديد الإتقـان. وصارم احيـاناً في تشـدده الكلاسيكي الجميـل. . رضوان يحب بشغف لوحات رمبرانت، مأخوذ بقدرة رمـبرانت العجيبة في إلقـاء بؤرة الضوء في مـركز الـظلمة من لـوحاتـه المعجزة. رضـوان طوال حيـاته الإبـداعية وفي احلك الفـترات، وحتى في معـالجتـه الموضوع المأساوي في بعض أعماله الأدبية والفنية، يركز على بؤرة الضوء، والانتصار في حركة العمل الفني وفي الحياة ـ محمد دكروب».

كانت صفة رئيسية تجمع بينهم، هي تلك العقلانية التي تؤكـد على ضرورة أن يتفقـوا على ايجـاد التناسق بـين ما هـو عقلي وبـين حركـة الكـون وبـدءاً من أبسط أشكـالها في الـواقـع الاجتماعي، عقلانيـةُ في تأكيـد الانسان وتعميق وعيـه بإنسـانيته، ولكن عنـدما يتخـذ العقل شكل ديكتاتور كما يقول ماركوز «إن العقل أكثر استبداداً من أي نظام آخر»، فإنه قـد يدفـع بنا للثورة عليه، ولو لفترة زمنية قصيرة، وذلك ما كان يحدث مع محمد عيتاني من حين لآخر،

فيغيب عن عالمه كله، وتنقطع كل أسباب التواصل ما بين العلة والمعلول في عقله، إنه يحرر نفسه من ديكتاتوريته، وحيث يكون له أن ينـدفع عـبر تلك السواقي التي طـالما كـانت ملاذه النفسي في العديد من آثاره الأدبية المملوءة بهمساتها الرومانسيـة، ثم كان للحـرب ان دخلت بيننا وصار الانتقال من مكان لمكـان ضرباً من المجـازفة غـير اللائقـة بالعقـلاء، ولكننا بقينـا نتسقط أخبارنا، وظـل لي من ود محمد دكـروب الذي لم ينقـطع أبداً، مـا يوصلني الى أخبـار هؤلاء الأصدقاء الأعزاء، وظل لنا أن نحلم بلبنان الذي عرفناه صديقاً حميماً لنـا جميعاً «بعض الهـزات الأرضية قـد تؤثـر عـلى الينبـوع فيجف او يجـد لـه مسـارب أخـرى. ولكن الهـزات المضادة: الجهد الانساني المضاد، يعيد الينبوع الى تدفقه السخي.. هـذا الكلام ليس وصفـاً لحـالة محمـد عيتاني فقط، بـل وصف لحالـة كنت أنا أيضـاً تحت وطأتهـا وما زلت اعـاني من أثارها.. ستعود الينابيع الى التدفق يا محمد.. الضباب ثقيل الوطأة يا صديقي، ولكن هـذا الضبـاب نفسه لا بـد أن ينعقد أعمـالاً فنية تنضجهـا شمسنا، وهي كـما تعلم، غير بعيـدة ـ محمـد دكروب». لكن الشمس لم تشرق، والـظلمة ازدادت كثـافة، وسرق مني عـام ١٩٨٨ صـديقان عـزيزان، سرق مني، بـل منا كلنـا، بل ومن الفكـر العربي المعـاصر، سرق محمد عيتاني ورضوان الشهال.

وقبـل أربعة أسـابيع كنت في «الـدار البيضاء» بـالمغرب، وأنـا على كثـير شـوق لأن ألتقي بصديق العمر الفنان الدكتور خالد الجادر، الذي اكتشف في المملكة المغربية راحتـه النفسية، ومنـذ عدة سنـوات، فخلد إليه وارتـاح اليه، أرضـاً وناسـاً وأصدقـاء، واكتفى من أمره فيـه بالتدريس والانصراف الى الـرسم وإعداد المحـاضرات وجمع الأصـدقاء في داره بـالربـاط من حـين لآخر ليـذيقهم ما تـطبخ يـداه من المآكـل العراقيـة.. وما كـدت أدلف الى غـرفتي في الفندق، إلا وباشرت بضرب ارقام تلفونه.. عجيب.. عجيب.. لا أحد يرد علي.. أعيـد الكرة غير مرة، وفي ساعات مختلفة من النهار ولكن من دون أن احظى بغـير أنين السـماعة.. وأسأل عنه أحد معارفه فيعلمني بأنه سافر الى المملكة العربية السعودية، وانها تكفلت بكل ما يتطلبه اجراء جراحـة له في القلب.. وأن العمليـة تكللت بالنجـاح والحمد لله.. وأنـه ربما سيبقى هناك، معاوداً تدريس الرسم في إحدى جامعاتها، وعلى مثل ما كان له قبل أن يستقـر في المغرب، وحديث خالد الجادر عن قلبه طويل، رضخ لأمره مراراً وانتصح بنصائح الأطباء مراراً وصرت كلما فتح لي سيرته، اغلقها بابتسامة، مطمئناً ايـاه بأن لا خـطر عليه من قلبـه، وأننا في الغربة كثيراً ما نخترع امراضنا لنتسـلى بها، أو لنستثـير مشاعـر عطف القلة ممن معنـا نحو انفسنا، ولكن يبدو أنني كنت مخطئاً، فأمس نقلت اليّ صديقة نبأ كانت قد نشرته جريدة «الشرق الأوسط» عن وفاة خالد الجادر.

كـان آخر لقـاء لي به في عـام ١٩٨٧ في مدينـة الـربـاط، زارني وهـو يحمـل العـديـد من تخطيطاتـه الجديـدة ويطلب مني أن ننتبـذ زاوية من حـديقـة الفنـدق، بعيـداً عن ضـوضـاء الآخرين، فأنا مشتاق جداً لك يا بلند.. وما لديّ كثير من الحديث معك.. وعلى غير عادته تدفق في الحديث.. هل تذكر اول لقاء لنا بعد تخـرجي من كلية الحقـوق ومن معهد الفنـون الجميلة.. لقد تخرجت منهما في سنة واحدة.. شهادة الفن لي وشهادة الحقوق لأهـلي، فالفن

لا يطعم خبزاً، فإن لم أجد خبزاً بالفن فسأمتهن المحاماة.. هل تذكر..؟ التقينا في مقهى الرشيد.

● يا خالد.. لقد هرمت ذاكرتي.. لا.. لا.. أذكر ذلك ولكنني أذكر لقائي بك بعد عودتك من باريس وانت مزهو بشهادة الدكتوراه في الفن الإسلامي، وبمن تعرفت إليهم من المستشرقين والفنانين الفرنسيين والأجانب. كان لقاؤنا في دار صديق أقام دعوة عشاء لك.. كنا متحلقين حولك ونحن نسمعك تتحدث عن «ليل» و«باريس» وليالي باريس.. كانت فرنسا آنذاك حلماً كبيراً لا نتواصل معه الا من خلال ما نقرأ من القصص الفرنسية المترجمة وإلا من خلال عدة أصدقاء يعودون الينا منها ما بين فترة وأخرى.

ـ لكنك لم تعجب برسومي أبداً. كان الفن لديك هو جواد سليم فقط.. ولا احد غير جواد سليم.

● هذا حديث تطرقنا إليه قبل عشرين عاماً. ونشرته في مجلة «العلوم» اللبنانية التي كنت أشرف على رئاسة تحريرها.. فلماذا نعود إليه..؟

ـ نعود إليه لأنك لم تعط الآخرين حقهم.. حافظ الدروبي وعطا صبري وأكرم شكري.. لقد الغيتنا كلنا من أجل إبراز اسم جواد سليم.. وهذا ما فعله جبرا إبراهيم جبرا أيضاً.

● يا خالد إنك تتجنى علينا، فقد كتبت عن معرضك ببغداد عام ١٩٥٧، وأشدت بتخطيطاتك الجميلة، إنها مملوءة بالحياة ومعبرة جداً. ولكن ما جرى بعد ذلك.. إنها نفس التخطيطات التي عرضت في معارضك الشخصية في برلين وبراغ وبوخارست والدنمارك، ونفسها في معرضك الشخصي في السعودية عام ١٩٦٨.. لم تتغير فيها غير الأماكن والمشاهد، أما المستوى فقد ظل هو.. هو. وقل مثل ذلك عن لوحاتك الملونة التي بقيت فيها أميناً لأسلوبك الانطباعي وكأن لا شيء قد حدث في العالم.

ارتجفت شفتاه باحتقار لما أقول.

ـ أصبحت الأمانة خيانة.. هكذا تفهم الفن.. لعب على الذقون باسم السريالية والتكعيبية والتجريدية.. الفن تعبير عن واقع معين عن عاطفة معينة.. الفن ليس هذا العبث الصبياني.

● لقد كان جواد سليم أميناً يوم تأثر ببيكاسو وبول كليه وجون ميرو وغيرهم، وكان أميناً أيضاً يوم أن أعجب بالفن الإسلامي ومدرسة بغداد والواسطي، ومن خلال هذين الاتجاهين كانت أعمال جواد تتطور وتتخذ لها نمواً مرحلياً. أما أنت يا خالد.. أرجو أن لا يغضبك ذلك، كنت تتعامل مع فرشاتك واقلامك، كما لو أنهما آلة تصوير وثائقية، لم يهمك أبداً أن تتأثر بأساليب عصرك الفنية.

ولأول مرة أراه يغضب ويشتد بريق عينيه وترتجف يده وهو يقول:

ـ بعض الناس عميان وأنت منهم.. ليس بالضرورة أن يكون كل الفنانين مثل بيكاسو،

يغير جلده كل يـوم . . هناك أيضـاً فنانـون مثل «مـاتيس» أن التعرف الى تـطورهم يحتاج الى معرفة حقيقية بفنهم، يحتاج الى دراسة خاصـة لضربات فـرشاتهم وتحـرك أقلامهم، إلا يمكن أن نقول نفس الشيء عن شعركم . . أنا لا أستطيع أن أعرف كيف تطور شعر بلند الحيدري لأني لا أملك الإلمام الكافي باللغة وباسلوبك . . ولـو تدرس أعـمالي لعرفت بـأن ألواني ليست هي دائماً كما كانت، إن تخطيطاتي في السعوديـة هي اطلاقـاً لا تشبه تخـطيطاتي في المغـرب . . هل تأملت كثـافة الخـطوط وتوزيـع الفراغـات . . الخطوط القصـيرة . . الخطوط الـطويلة . . عميان .

وأحس بفرح يغمره بعد أن أفرغ غضبه عليّ، وأحسست أيضـاً بشيء من الفرح وأنـا أراه غاضباً، ثم نضحك دفعة واحدة .

● سأكتب عنك يا خالد . . وسأذكر هذا اللقاء .

ثم عدنا الى حديث الذكريات والمتاعب، . . يا بلنـدكان عـليّ أن أتزوج ولكن بعـد فشل زواجي الأول خشيت وبشكـل مرعب من فكـرة الـزواج، وكـان عـليّ أن أبقى في بغـداد . . ولكن ها أنا في الغـربة . . ومن غـربة الى غـربة . . وانت كـذلك يـا بلند، وربمـا سنموت في الغربة ونرجع بتوابيت لبلدنا .

ـ هل سمعت شيئاً عن الدكتور مهدي المخزومي . . انه عالم كبير .

● لا والله . .

وتذكر قول المتنبي :

وكـثـير من السـؤال اشـتـيـاق
وكـثـير من رده تـعـلـيـل

وافترقنا على أن نلتقي . . ولم نلتق . . وما زال يحز في نفسي أننا افترقنا وفيه شيء من العتب عليّ لأنني لم أفهمه كفنان وكما أرادني أن أفهمه . . لكني فهمته إنساناً كبيراً وفناناً أميناً وصـادقاً مع نفسه ومع الناس ومع التاريخ وفي ذلك شيء من كبره في الفنان أيضاً . . .

١٩٨٩/١/٤

حاشاه أن يكون لصا

مـا كان ليـدور بخلدي أن ما كتبتـه عن المرحـوم الشـاعـر حسـين مـردان، من خـواطـر وذكريات، واستجابة لـرغبة صـديق عز عليـه أن تمر ذكـراه ولا يسن واحد منا قلمه ليتـذكر حسين مردان، الذي كانت لأخباره وضحكاته ونكاته واشعاره أن مـلأت حياتنـا في يوم مـا. أقول ما كنت أحسب حساب ما سيثيره الحديث عنه، وما سيتسع له من صدى بين من أحبوه انساناً ظريفاً وشاعراً له فرادته، وبين من جافوه ممن عرفوه فلم يـروا في ظرفـه الا سماجـة ولا في شعره إلا كلامـاً هملاً، فـما هو في نـظرهم إلا رجل أدرك ضيق فكـره وقصر باعـه شاعـراً وناثراً، فاستنجد بكل ما يلفت الأنظار اليه، من خلال تصرفاتـه ومن خلال ملبسـه وأسلوبه في التهجم على الآخرين.

وكان أن وصل «المجلة» الكثير من هذا الكلام الذي نشرت منـه ما رأتـه جديـراً بالنشر، وكان أن وصل إلي شخصياً بعض من مثل ما وصل «المجلة». ولأني لم أجد في كل ما وصلني إلا كلاماً مكروراً لا يضيف جديـداً لما قيـل عنه، سـواء من الذين انتصفـوا لي أو من الذين انتصروا لما كتبه الأخ الاستـاذ نجيب المانـع في جريـدة «الشرق الأوسط» عن غـير مثلبـة من مثالب حسين مـردان الذي «مـات فأراح واسـتراح» على حـد قولـه فيه.. وقلت في نفسي إن فصل القول بشأن حسين مردان متروك لذمة الصديق الناقد ماجـد السامـرائي، الذي علمت منه أنه في سبيل اعداد دراسـة شافيـة وافية عنـه، وأن ما اجتمـع لديـه عنه لكثـير جداً، ولا عجب في ذلك فقد عرفه عن كثب وعرف أصدقاءه وكاتبهم وشافههم في العديد من شؤونهم وشؤونه وذكرياتهم عنه، بالإضافة الى كونه قد زامله في مجال العمل لسنوات عديدة.

وكدت أن أرمي برسالة اخرى وصلتني قبل أيام جانباً، لولا مـا استوقفني فيهـا من عنوان توسطها. يقول فيها كاتبها بجزم مخيف (حسين مردان لص) وظننت الأمر يتعلق بلصوصية في الشعر، ومثل ذلك صار مألوفـاً في الشعر وغـير الشعر، إلا أن كـاتب الرسـالة الـذي آثر أن يختفي وراء حرفين من اسمه «م. ص». كان يعني بعنوانه أن حسين مردان كـان لصاً حقيقـة

وأنه سطا على بيوت الناس، وهو ما دفع بي لأن أعود إلى الموضوع، فبعض التهم التي نطلقها جزافاً لا بد من الرد عليها، خشية ان يصير الكذب حقيقة، وما اكثر مثل هذا الكذب في تاريخنا القديم والحديث، خاصة وأن كاتب الرسالة قد أقحم اسمي كشاهد على ما روى، واتهمني بتزوير الحقائق لأنني عرفته لصاً وقد ألقي القبض عليه «وهو يقوم بالسرقة، وأن بلند الحيدري هو من اخرجه من مركز شرطة البتاوين، وأنا كنت في الموقف بتهمة سياسية، وسمعت من غرفة التوقيف المقابلة لغرفة معاون الشرطة كل الكلام الذي دار.. ولأن بلند الحيدري هو إبن أخت داود باشا الحيدري، وزير العدلية، فقد استطاع ان يخرج حسين مردان من الموقف حتى بدون كفالة». ويضيف، وبعد سيل من السباب الموجه للعهد البائد ولِي ولعائلتي «وهكذا خرج حسين مردان منتصراً بصحبتك وخرج صاحب الدار وهو يعتذر لك».

كنت أتمنى على هذا الوطني الغيور، أن يفصح عن اسمه وعن عنوانه، الذي لم أعرف عنه شيئاً، إلا من طابع البريد الذي دل على أنه لا بد وان يكون في مكان ما من قبرص، وكنت اتمنى عليه وهو الوطني الغيور على الحقائق، أن لا يسمح لوطنيته أن تجره الى إتهام الآخرين، فحسين مردان وطني أيضاً، وله من سنوات عمره التي قضاها متشرداً ومسجوناً ما هو كفيل بالشهادة له، وحسين مردان لم يكن لصاً أبداً، وأن الحديث الذي سمعه والذي ادعى أنه سمعه كله، لم يكن كله مطلقاً، فهناك حديث طويل دار همساً وبين شخصين فقط، وحسين مردان لم يخرج منتصراً، بل خرج بصحبتي وهو شديد الألم، وأن صاحب الدار لم يخرج معتذراً، بل كان انساناً فهم ظروف حسين مردان، فهب لمعانقته وصار واحداً من معارفه المقربين، كما روى لي ذلك حسين مردان نفسه في رسالة بعث بها إليّ، مصحوبة بخواطر ذات طابعٍ شعري، لنشرها في مجلة «العلوم» اللبنانية التي كنت اشرف على رئاسة تحريرها، وقد عنْوَنها «ليلة في الموقف وليال في السجن»، وجاء فيها على سرد أحداث تلك الليلة، إلى جانب ذكرياته عن أيام طويلة في السجن وهو البريء الذي لقطوه من احد المقاهي واتهموه بأنه كان يقود مظاهرة ضد الحكم، ثم تحدث عن اهتمامه بالسياسة من خلال أيام سجنه، وفي تلك الخواطر أسماء صريحة ومعروفة واسماء مستعارة، وكنت راغباً في نشرها، إلا أنه بعد فترة من الزمن، كتب إليّ مشيراً علي بعدم نشرها، وما زالت، كما أتمنى أن تكون، ضمن أوراقي التي خلفتها في داري في بيروت والتي آمل أن يكون الذين احتلوا الدار غير مرة، لم يأتوا عليها تلفاً أو حرقاً،.. وكان أن بعث إليَّ بعد ذلك بديوانه «طراز خاص» الذي سعيت لنشره عن طريق «الدار العصرية» في بيروت ومن دون الغلاف الذي صممه له الفنان المرحوم نزار سليم، إذ وصلني متأخراً.

ولنعد لتلك الليلة.. حدث ذلك في أواخر الأربعينات، على ما أذكر، وكنت يوم ذاك أسكن في دار خالي داود الحيدري، الذي كان يشغل منصب وزير العدل.. رن جرس التلفون في ساعة متأخرة من الليل، وكنت الوحيد الذي هرع إليه من أهل الدار، فالساعة قد جاوزت منتصف الليل والكل نيام، سأل محدثي عني، فاجبته بكوني اياه، فاعتذر طويلاً عن الإزعاج في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأن الموضوع لا يستحق ذلك كله.. الا

ان شخصاً موقوفاً في مركز الشرطة في البتاوين بتهمة السرقة ويدعي انكم تعرفونه: العفو بالتأكيد أنكم لا تعرفونه.. اسمه حسين مردان.. حسين مردان.. رددت عليه: كيف لا أعرفه.. طبعاً اعرفه.. حسين مردان لص؟! غريب.. هل بإمكاني أن أحدثه، فتناول حسين السماعة ليسألني أن أذهب إليه بأقصى سرعة ممكنة «تعال خلصني من هذه الورطة». وما هي إلا دقائق معدودات حتى كنت في غرفة المسؤول الصغيرة، وقد بالغ بالترحيب بي وعرض علي أن أجلس في كرسيه، فاعتذرت عن ذلك واقتعدت كرسيًا مكسوراً إلى جانب مكتبه، وقد شغل الكرسي الذي في مواجهته رجل على شيء من الترهل وكان لا يزال بملابس النوم، وعند باب الغرفة يقف حسين مردان وإلى جانبه يقف شرطيان ويبدو أنهما اللذان ألقيا عليه القبض.. كان أصفر اللون وكانت السيجارة ترتجف عند حافة فمه، وحاول أن يبتسم بسخرية وهو يردد: «تصوّر يا بلند أنا لص.. لو كنت لصاً..»، وحاولت أن أغير الجو المتجهم فقلت وأنا اضحك «لصرت وزيراً للعدلية» فابتسم المسؤول وهو يكرر: العفو.. العفو.. ثم التفت الى الشخص المترهل أن يروي الحادث بتفاصيله.. فاعتذر الرجل بأدب جم عن إزعاجي.. وعرفني باسمه ولعل اسمه كان «حقي»، على كل لنسمه «حقي»، وعرفني بشخصه وبوظيفته في دائرة السكك الحديدية، وأقسم غير مرة على أن هذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدماه مركزاً للشرطة، فأنا صاحب عائلة وأولاد ولا علاقة لي مطلقاً بالشرطة، سكت للحظة ثم قال: كنت قد عدت توًّا من سهرة في دار صديق، وذكر اسمه، وما كدت أغير ملابسي حتى استيقظ ابني الرضيع، فاخذته بين ذراعي، ثم اخذته من يدي أمه وحاولت أن تقوم بارضاعه.. وأن غرفة نومنا تطل على حديقة الدار الأمامية، وعندما قمت لإحكام سد الفجوة الصغيرة في ستارة الشباك، فوجئت بوجهه ملتصقاً بزجاج الشباك وسرعان ما اندفعت الى خارج الدار وأنا أصرخ: حرامي.. حرامي.. ركضت وركضت وراءه ثم تعاون معي هذان الحارسان الليليان فألقينا القبض عليه.. هذه هي باختصار كل القصة.

قلت له: ولكن هل المعقول أن يجتاز حديقة الدار لص وهو يرى كل أهلها مستيقظين؟!

أجاب: هذا ما حدث.. ماذا كان يريد أن يفعل اذن؟

وهنا طلبت من المسؤول أن يأذن لي، بأن أنفرد بحسين مردان لاستجلاء حقيقة القصة، فرحب بذلك، ولم يعترض السيد حقي، فخرجت معه الى باحة الدائرة لأستمع الى روايته. قال: كنت في المقهى المعهود لوحدي فقد تغيب عن الحضور باقي الاصدقاء كنت حزيناً جداً ووحيداً جداً، وعندما خرجت من المقهى بعد أن غادرها كل زبائنها، رأيت أن أفرج عن حزني بالتسكع في الشوارع لفترة من الوقت، فدلفت من شارع إلى شارع ومن زقاق إلى زقاق. كانت كل البيوت مطفأة الأضواء وكل الشوارع والأزقة خالية من المارة، مما زاد من شعوري بالوحدة والحزن، وفجأة وقعت عيناي على شباك مضاء، وكانت هناك فسحة صغيرة في الستارة، فدلفت من باب الحديقة، وهي ليست بأكثر من ثلاثة امتار، ودنوت من الشباك، واسندت رأسي الى زجاجه البارد وأنا أتأمل بحنين غريب الرجل وهو يغازل زوجته

وهي ترضع ابنها، إنه حنين إلى مثل هذا الدفء الذي طالما حلمت به ولم يكن لي سبيل اليه. . وكدت أن أغفو وأنا على هذه الحال لولا الصراخ الذي سمعته، فاندفعت راكضاً. . وركض. . وامتلأ الجو بأصوات صفارات الشرطة، وأحسست وكأن كل المدينة قد نهضت فجأة من نومها لتطاردني وهي تصرخ: «حرامي. . حرامي» والنهاية تعرفها.

● هل شرحت موقفك لهم؟

ـ وإن شرحته فهل من يفهمه أو يصدقه؟! لقد اتفقوا على أنني لص. ! إنهم لا يعرفونني ولا يريدون أن يعرفوني الا كلص. !

انتحيت جانباً بالسيد حقي، ودنا منا معاون الشرطة، وأعدت عليهما ما رواه حسين مردان الا الغزل ومضيفاً اليه ما يمكن أن يحرّك عواطفهما معه، وبالغت بأهميته كشاعر معروف وكصحفي معروف عمل في العديد من الصحف العراقية الكبيرة، وأن ما دفعه الى أن يقوم بعمله هذا، ليس سوى إحساسه المفاجيء بحاجته إلى مثل هذا الدفء الذي شعر به في غرفتكم. إنه مجنون بالأطفال ـ وبالفعل حسين كذلك ـ وإنه كان يحلم بأن تكون له عائلة كعائلتك وابن كابنك. وأنا واثق كل الثقة بصدق روايته، ورجائي أن تفهم الموضوع كما فهمته، وككل العراقيين المعروفين بشدة انفعالاتهم وطيبتهم، التفت إلى معاون الشرطة راجياً منه أن يقبل تنازله عن دعواه، ثم اندفع إليّ وعانقني، واندفع بحماسة أكثر الى حسين مردان فعانقه ايضاً. وأصر على أن نكون ضيوفه على العشاء بعد غد، فاعتذرت له لأنني كنت على موعد حدد مسبقاً، ولا أدري أن كان حسين مردان قد لبى دعوته. . ولعله قد قبلها، وهو ما يمكن أن استنتجه من العلاقة التي شدته إليه فيما بعد.

وبعد. . فهل لكاتب الرسالة «م. ص». أن يتحسس مثل هذه العواطف وكما تحسسها السيد حقي، وأن يتفهم عمق حاجة الواحد منا إلى الآخرين. . آمل ذلك.

لقد عرف حسين مردان من صنوف البؤس والتشرد والعذاب والنوم في الشوارع والمقاهي ما عززت أحاسيسه الإنسانية، ومن خلال ذلك كله كان يرى نفسه كبيراً بإنسانيته. . وفي ذلك الشيء الكثير من اهميته التي ربما قصر عن التعبير عنها شعره ونثره. . وإذا كان الكثير من أصدقائه وأعدائه لم يعرفوه إلا في الرجل اللاهي والساخر والمدعي والماجن، فإنهم لم يعرفوه إلا من خلال قشرته الخارجية، ولم يعرفوه في الشخص الذي بكى طويلاً من أجل نفسه ومن أجل الآخرين ومن أجل كل الذي آمن به في صدق الإنسان وصدق الشاعر، وحسبه فخراً انه لم يكسب عشاء ليلة واحدة من وراء مدح أحد أو من وراء ذم أحد، وفي مثل هذا الزمن السيء الذي ندر فيه الشعراء الذين لم يستأجرهم فيه أحد لمدح أو لذم.

١٩٨٩/٢/١٨

حدود التصرف بالرسائل

لا نكـاد، ويشق النفس وعذاب الغربـة ووحشـة الشيخوخـة، أن نـطمئن الى شيء من يومنا، حميناه من ذلة اتجار بأدب وشعر، وأن نطمئن الى شأن في غدنـا يبقينا عـلى شيء من حسن ظنة الآخرين بنا، حتى يفاجئنـا صديق ممن عشنـا معهم سنوات شبـابنا وصبـانا، بـأن يطلب منا أن نعود معه الى أمسه لنهذب في أحداثه ونشذب في الذي كان له فيـه، علـه يكون على غير ما كان.

هذا ما أحسست بـه، وأنا أتـأمل وجـه صديق لي يعـود بنا عهـد مودتنـا الى ما نيف عـلى أربعين عاماً، وقد احتقن وتجهم، وتردد غير مرة قبل أن يطلب اليّ أن أعيد إليـه رسائله التي كنت قد أخبرته بأنني مـا زلت أحتفظ بالعـديد منهـا وأنها لتحمل الكثـير الكثير من حكـايـاتـه ومغامراته وما لقي من عذاب وآلام قبل أن يصـير رجلاً معـروفاً ولامعـاً وممن نشير إليـه بكل أصابعنا العشر اعترافاً بما أعطى وما أضاف وما أبدع.

وكدت أن أسأله عما يدفعه الى ذلك، لولا أن بادرني وهو يبتسم ابتسامة باهتة، بأنه يخاف من أن يصار الى نشرها في يوم ما، فينتقل عن البحث في فكره وعطائه الى البحث في سلوكـه ومثـالب صباه ونبش اسراره الخـاصة، التي لـه كل الحق أن يصـونها بعيدة عن أيـدي الناس ومذاهب أقوالهم فيها.. ثم اردف قائلاً:

ـ لقد أصبح مثل هذا النشر دأباً عندنا. ثم ما الفائدة من ذلك؟! فالقصيدة التي لا تجترح قيمتها من ذاتها، والصورة التي لا تملك من نفسها ما يفردها في الجودة والإبـداع، فليس لأية رسالة أن تشفع لهما بشيء.. قد تبرر.. قـد تفسر ولكن ما قيمـة ذلك؟ ولـذلك امتنعت عن إعـطاء رسائـل أصـدقـائنـا لمن سعى لأن يؤرخ لهم.. بـل إنني لم أسمـح لنفسي أن اتحـدث بخصوصياتهم وما أئتمنوني عليه من أسرارهم، سواء في رسائلهم أو في أحاديثهم أو في الذي سمعته أو عرفتـه عنهم. لقد احـرقت رسـائـل من ماتـوا من اصدقـائنا كي لا تقـع في يد من يسيء التصرف بها. ومعي الآن ما عثرت عليه من بعض رسائلك. اقرأهـا ثم قل لي عـما إذا

كنت ترضى لها أن تنشر ذات يوم، ليصيب أصدقاءك وأهلك الكثير من شررهـا.. إسم فتاة هنا.. كانت صديقة لك ثم أصبحت زوجة أحد أصدقائك.. هنا شك بـواحد من أصـدق أصدقائنا قلت عنه انه «شرطي سري».. وفي إحدى رسائلك تمنيت أن يموت. ثم أية اضافة لأدبك ستكون لك من نشر هذه الرسائل؟!.

وعلى الرغم من أن اكفهرار وجهه لم يتح لي أن أجري بحديثنا الى مناقشة جادة للموضوع، فقد اكتفيت بان اعيد لذاكرته العديد من إشارات الى رسائل فنانينا وأدبائنا مما كان لها دورها في تصنيف أعمالهم وتعميق أثرها.. وعالمياً.. غوركي.. جيكوف.. فان كوخ.. ديستوفسكي، ومئات الآخرين. وحتى بالنسبة لنا، فقد أماطت.. رسائل جبران خليل جبران لماري هاسكل اللثام عن تفاصيل في غاية الأهمية في حياة جبران، وقل مثل ذلك، ربما بالنسبة لبدر السياب وربما لجواد سليم أيضاً. لقد وهبتنا هذه الرسائل وسائل جديدة لتفحص أثارهم وإعادة تقويمها، وامدتنا بالكثير مما يعين على فهم أكثر دقة واكتمالاً لبعض أعمالهم الفنية والأدبية.. فكيف لا يعني ذلك أي شيء بالنسبة لك..؟!

حاول أن يبدو على شيء من الهدوء على أمل أن يستدرجني الى أن اقتنع برأيه فأرد إليه رسائله.

- أجل لا يعني شيئاً البتة.. فقد كان لهم من أدبهم وفنهم ما يكفي لبقاء أسمائهم خالدة، ولم يكن هذا البقاء بحاجة الى رسائل يتناظر فيها جيكوف وغوركي في شؤون أدبهما، ويتفاضل بها أحدهما على الآخر. وماذا قالت رسائل ديستوفسكي غير أنه كان يكذب في كل سطر من سطورها كذبة لا تغتفر؟! وهل كانت إنسانية فان كوخ في رسومه في شديد حاجة الى ما كتبه الى أخيه من رسائل يستنجد به كلما أعوزته الفاقة اليه.. ورسائل جبران هل كانت أكثر من مجموعة اشارات عجلى الى كذبه يوم ادعى لصديقته بأنه ابن ثري لبناني، ويوم قال لأصدقائه بأنه «دون جوان» زمانه، ولم يكن غير إنسان عاجز وثمة رسائل صممت لتكذب ساعة كان يخيل لكتابها، بأنهم سيصبحون في يوم ما عظماء فحق لهم أن يزوّروا في تاريخهم بروايات كاذبة تصفهم عباقرة وهم في المهد.. أتريد أن أذكرك بشيء من ذلك أيضاً..؟

● قد يكون ذلك حقاً. واذا استثنيت القيمة الأدبية لتلك الرسائل فإن النقد الحديث في كل مكان من العالم يولي اهتماماً كبيراً بها. أليس مهماً أن نعرف أن بيكاسو كتب مرة لماتيس يسخر من أولئك الذين لا يشترون من صوره إلا التي لا يفهمونها، وأنه صار يلبي غباءهم ورغبتهم الغبية هذه؟ الا يتهم ذلك العديد من أعمال بيكاسو بالزيف ويتهمه أيضاً بالفنان الزائف.. أليس شيئاً مهماً أن نعرف من رسائل رامبو كيف كان يعيش غريباً في وطنه. بل يعيش منفياً في وطنه؟!

أجاب ببرود:

كلا.. مرة أخرى كلا. فالأعمال الفنية والأدبية لا تدوم أو تزول برغبة من الفنان أو

بادعاء منه بشأنها. ومتى كان هؤلاء على معرفة تامة بأهمية اعمالهم؟ إنها باقية ولو رحل أصحابها بقناعة الناس بها، وبعد درسها وربما بعد زمن طويل.. ألم يصرح «ت. اس أليوت» بأن أعظم قصائده وأعني «الأرض الخراب» كانت مجرد عبث، وأنه ليستغرب من كل الذين استقرأوا فيها معاني لا يعرف من أين أتوا بها.. ومع ذلك فمن الذي أولى تصريحه هذا أية أهمية.

ثم نهض.. ونهضت.. وشد على يدي وانتظر، وهو يحدق في عيني.. فقلت له:

● لكن رسائلك هي ملكي الآن.. ولي فقط حق التصرف بها.

رد عليّ:

- ولو كنت قد أودعتني سكيناً وجئت لتستردها، وذلك من حقك بكل تأكيد، ولكن من حقي أن لا أردها إليك اذا كنت قد عرفت بأنك نويت على شر وانك.تريد استخدامها لشر مبيت. هكذا يقول ارسطو. وأنا أريد أن أمنعك من أن تؤذي أحداً من أهل بيتي أو من أصدقائي بل أن تنال مني أنا بالذات ومن حياتي. هناك أشياء كثيرة قلتها في رسائلي لك وأنا اتنكر لها كل التنكر الآن.. انها ملكك ضمن طبيعة خصوصيتها، فان خرجت عن ذلك بما اعتقد انه يسيء إليّ، جاز لي أن أعتبرها من بعض حقي فيها.

ثم كان أن سألته أن يمهلني لفترة من الزمن ريثما استقر على رأي في شأنها.

وافترقنا بعد أن ترك بين يدي مجموعة من رسائلي اليه. ولم أعد إليه رسائله لحد الآن لأنني على كثير ثقة بأن حياة الفنان والشاعر والمفكر والسياسي هي من بعض أثاره أيضاً.. فهل أنا مخطىء؟ لا أدري.

١٩٨٩/٢/٢١

مراكش عبر الناس والتاريخ

كدت أن أقول: لا، معتذراً لأخي وصديقي الأعز الأستاذ محمد بن عيسى، وزير الشؤون الثقافية في المغرب، عن قبول دعوته الكريمة لحضور حفل توزيع جوائز الكتاب، ساعة أن قلت: نعم.

وإذا كنت قد أخذت نفسي في الآونة الأخيرة بالرد: بلا في الإجابة عندما أتلقى أية دعوة، حاسباً ومدققاً في وعثاء السفر وكبر السن واشكالات تغير المناخ والأطعمة والأمزجة، أقول إذا كنت كذلك، فإن ما للمغرب في نفسي يخرج بي عن كل هذه التحفظات، وما يغري ويثير الهمة، وفي مقدمة ذلك كله، تلك العلاقة الحميمة التي تشدني بأبنائه الكرام وذلك الدفء الذي تحمله إليك يد كل فرد تلتقيه هناك، ناهيك عمّا أكنّه من ودكبير لمفكريه وأدبائه وفنانيه، وناهيك عما تستظهره مدن المغرب من آثار وزخارف وطرز معمارية وفنون شعبية لا يمكن للعين أن تكف لحظة عن التأمل العميق فيها.

كانت محطة لقائنا هذه المرة مدينة مراكش التي قيض لها أن تستضيف حفل توزيع جوائز الكتاب لعام ١٩٨٧، كما قيض لها أن تفتح ذراعيها لاحتفالات عيد التتويج، وهكذا اكتظت الفنادق بنخبة متميزة من الأدباء والفنانين والسياسيين، على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، والذين توزعتهم حلقات في هذا الفندق أو ذاك، وسرعان ما تنتقل من فندق إلى آخر، لتتسع وتتسع ولتتداخل في الأحاديث الدائرة عدة لغات تتقاسمها العربية والفرنسية والإنجليزية، وقد يستقطب كل حلقة موضوع رئيسي أو شخصية رئيسية، فهنا الطاهر بن جلون، وهناك ميشيل جوبير، وهنالك الشاعر السنغالي تشكايا، وقد ينفرد إثنان من الجلوس في حديث هامس خاص عن مشروع ما، وقد تسقط إلى شيء منه بصورة عفوية، فتنشد إليهما مرغماً. . فها هما وزيرا الثقافة في كل من المغرب وتونس يتبادلان الرأي حول أهمية استمرار دعوة الأدباء والفنانين العرب المغتربين، ليكون لهم أن يلتقوا بجماهيرهم الحقيقية في الوطن العربي، وليكون لأبناء وطنهم أن يتعرفوا إلى كل جديد في إنجازاتهم الأخيرة، وإلى

إشكـالات حياتهم في بـلاد الغربـة، ويخرجـان من الحديث بـاتفاق.. وإذا صـادف وصاقب مجلس مسيو كارتـون، مديـر المعهد العـربي بفرنسـا، مجلس مساعـده الأخ إبراهيم العلوي، وطالما كان الأمر كذلك، فإن الحديث بينهما يزداد خفوتاً، ويزداد حدسـك بأن الحـديث لا بد أن يكون عن مشاريع المعهد الكثيرة وعن الصعوبـات التي يلاقيهـا المعهد، وربمـا عن ضعف مساعدة الدول العربية للمعهد.. ويبقى ضيف كل الحلقات باستمرار، وعلى امتداد ساعات المساء محمد بن عيسى الممتلىء بطموح أخاذ لتعزيز الثقافة العربية عبر مشاريع ومشاريـع جمة، فالتنمية الثقـافية لـديه لا بـد من أن تسير جنبـاً إلى جنب مع التنميـة الاقتصاديـة والزراعيـة والتربوية، وبذلك فقط يقوم لنـا مجتمع حضـاري متكامـل ومنسجم، فالمجتمـع ليس كمّاً من النـاس بل هـو وعي الناس بـأنفسهم، ووعيهم بكيفية تـطوير أنفسهم، وينـدس في مسمعي صوت فتاة مغربية آثرت أن يجيء إليّ وقوراً وفصيحاً ومزركشاً بكل علامات الإعراب وأنوان النسوة، لتفصح به عن دور المرأة المغربية في تطوير المجتمع بعد أن أتاح لها القانون أن تغـزو كل المجالات، للعمل جنباً إلى جنب مع الرجل، سواء في السيـاسة أو في العمـل الوظيفي، وصـار لها أن تصبح نائبـة في البرلمـان، وأن تقود الـطائرة، وبـالفعـل فـإن هنـاك من يقـدن الطائرات من الفتيات المغربيـات... وأعقبت ذلك بـابتسامـة اعتزاز، أغـرتني على مـواصلة الحديث معها...

● **أنا شخصياً لم أرَ الفتاة التي تقود الـطائرة، ولكنني دهشت لعـدد النسوة اللواتي يقـدن الـدراجات الهـوائية والبخـارية في شـوارع مراكش.. إنهن أضعـاف عدد الـرجال.. ومـا أدهشني أيضـاً، أنهن يقدن تلك الـدراجات، وهن بمـلابسهن التقليديـة، وعلى غـير ما هـو مألوف في باقي المدن المغربية.. فلماذا لا يتحررن منها..؟**

ـ لو أن هذه المـلابس التقليديـة أعاقت حـركتهن وحالت دون قيـادة الدراجـات لتحررن منهـا، ولكنها كـما يبـدو منسجمـة مـع الـدراجـة، والسؤال في هـذه الحـالـة يجب أن يـوجـه للأخريات.. لماذا لا يرتدين الملابس التقليدية ويقدن الدراجات كأخواتهن المراكشيات..؟!

● **بل يوجه إليك أنت بالذات، وقد استحضرت معك كل التقليعات الأوروبيـة، وحتى كأنك قد خرجت تواً من أحدث محلات الأزياء الفرنسية.**

ابتسمت كمن لذ له هذا الإطراء غير المقصود وقالت:

ـ وأنـا أيضـاً محـاصرة بـأمـراض العصر، فـالمـلابس أصبحت جـزءاً من تميـز بعضنـا عن البعض، إن المـلابس العصريـة تهبنـا القـدرة عـلى أن نعـبر عن أذواقنـا في اختيـارهـا، وعن مستوياتنا الطبقية، وعن أشياء كثيرة تؤكد فرديتنا، إنها ضرب من الإيغـال في الحس الفردي، بينما كان أسلافنا عبر توحد أزيائهم التي تساوي بين الغني والفقير، بين العجوز والشاب، بين الوزراء وعامة الناس، يؤكدون على حس ديموقراطي أصيل، وذلك مـا ستشعر بـه يوم غـد، عنـدما تحضر حفلة الـولاء وفي أجلى صـوره.. ولكن يجب أن نقول أيضـاً بأن لكـل مجتمـع أحكامه الخاصة وظروفه وأساليب عيشه، وحسبنـا أن نستعيد من آن لآن هـذا الوعي بـأهمية قيم التراث.. وفجأة ينقطع الحديث الجاد عبر ضحكة صاخبة من تشكايا، وهو يردد بإصرار

بأن عمره هو واحد وأربعون عاماً فقط وإن كان ابنه الذي يقيم في لندن هو أيضاً في الأربعين من عمره.

***

وثمة مسافة تفصل ما بين ساحة جامع الفنا، وبين بدائع رائعة تحتويها الآثار القديمة لمدينة مراكش، مسافة تتوزعها خطى يقوم لنا منها، ورغم التباين الشديد ما بين الاثنين، مسعى في الشد ما بين ذلك الحس الهندسي والعلمي والرياضي الذي تتمثله تلك الزخارف التي تتسلق الجدران والأبواب والنوافذ، وبين تلك العفوية الإنسانية الصادقة التي تتنفس من خلالها ساحة جامع الفنا.

ربما لا تتجاوز مساحة جامع الفنا، الكيلومتر الواحد المربع، ولكنها مساحة يمكن أن توجز الكثير من أعمق العلاقات في الحياة المراكشية، وبأغرب صورها وأشكالها.. حلقات وحلقات لقارئات الكف (!)، حلقات وحلقات لبائعات ألبسة الرأس الصوفية الملونة.. وأخرى لبائعات السلال، وغيرها لبائعات الذباب الأزرق المعيد للشباب، وغيرها لعدد من الحوائيين الذين تناثرت حولهم الأفاعي والحيايا التي راحت تتلوى راقصة على صوت المزمار، حتى إذا ما اقتربت منهم، اندفع أحدهم إليك ليلف حول عنقك حية الكوبرا، وهو يطمئنك بأن لا خوف عليك منها، ولكن كيف لي أن لا أخاف وقد تحوطت الحية حول عنقي، وأحسست بثقلها يملأ صدري.. وإلى جانب هؤلاء عرض لأسنان وفكوك ومباضع وقالع للأسنان.. يقشعر جسدك لمنظرها.. ويسألك المسؤول عنها: عما إذا كنت تشكو وجعاً من أسنانك، فإنه رهن إشارتك.. ما عليك إلا أن تفتح فمك لترى فكك كله معروضاً على الطاولة بعد لحظات.. ويضحك بشهوة مخيفة من جبنك، لعلها لذته الوحيدة من هذا العمل الذي يمارسه كل يوم من أيام السنة. ولا أعتقد أن هناك من يضع بين يديه أية سن من أسنانه حتى ولو طافت على قيحها.

وأجمل ما في الساحة صخب ألوانها الصافية.. الأحمر والأزرق والأبيض، والألوان الداكنة، وتتوسط الحلقات مقاعد تأخذ شكلاً مستديراً أو مربعاً، حول مطاعم شعبية، يؤمها طوال ساعات الصباح والمساء، عدد كبير من الناس بأزيائهم المختلفة، ومستوياتهم الطبقية المتفاوتة، وتبقى شوربة «الحريرة» سيدة الطعام.. عليك بها، هذا ما يقوله لك كل من يمر بك ليخرجك من ترددك.. أناس يحملون بساطتهم على أكفهم كرمز لصدقهم، حتى عندما تدخل معهم في مساومات الشراء، وحتى حين يدفعونك إلى أن تشكك بكل أرقامهم، وأن يتسع لهم من هذا الشك، حوار لذيذ معك، غير ان ثمة أرقاماً تقوم قاعدة لعلاقتهم بك، وعليك أن تدرك صدقهم معك فيها، فإن ذهبت إلى ما هو دونها اشعروك بأنك تجاوزت حدك في الإساءة إليهم، أرقام تحمل وداً في الحوار، وأرقام تتشكل منها حدود في العلاقة الدقيقة، أرقام تتقاسمها ابتسامات وضحكات وكلمات مفهومة وغير مفهومة، وأرقام تتحول أحجاراً صلبة لجدار لن يسمحوا لك أن تخترقه.. لأنك بذلك تكون قد اخترقت قيماً خلقية عزيزة على أنفسهم.

وندلف من تلك البساطة المتناهية التي افترشت كـل ساحـة جامـع الفنا، ضمن إيقـاعات لونية متواترة، بحساسية جذابة، ولأناسٍ يعيشون كل ماضيهم ومستقبلهم عـبر حاضر مستلق على زمن متوارث، لا يريدون عنه بديلاً، لشدة ما ارتبط بأعمق مشاعرهم الـدقيقة، نـدلف من ساحة جامع الفنا، إلى تلك الآثار الرائعة لحضارة قاست أبعادها بمقاييس دقيقة فـلا شيء فيهـا من تلك العفويـة الساذجـة، الزخـارف التي تتسلق كل الجـدران والسقوف، والمنـاضد والنوافذ، هذا النسيج المكـرور من الإيقاعـات اللونية والشكليـة والتي تشكل قـانونـاً مهمـاً في الفن الإسلامي، ولكنه نسيـج يستمد من داخله وحـدة تنوعـه الهائلة ويـأثر من قـدرته عـلى الاستمرار، من خلال توريق عربي، ومقرنصات، وخطوط وتشكيلات هنـدسية. نـدلف من ساحة جامع الفنا، إلى تاريخ رائع للفن الإسلامي عبر انطلاقة فنـون المرابـطين ـ سلالـة من البربر ١٠٥٦ ـ ١١٤٧ ـ التي امتزج فيها التراث الإسلامي بـالتراث الأنـدلسي. . يحدثني عن ذلك، ونحن على مقربة من كل هذا التـأريخ المستشرق الصـديق بدرو مـارتينيز، مفصـلاً في الكثير من الجزئيات، عن العقود الأندلسية الملتفـة والمحدودبـة والمتجاورة، ويـطول الحديث، ونسترجع من خلاله، وعـبر مشاركـة الآخرين، صـوراً من العلاقـة القائمـة ما بـين المحارب الأندلسية والمحارب المغربية، وما أضيف إليها على أيام الموحدين ـ سلالة مغربيـة قضت على المرابطين وقضى عليها بنو مرين عام ١٢٦٩ ـ من أصـول في المداخـل. . ثم الأعمدة وكيفيـة إنشائها واستعمالها. . والقباب المضلعة للعمارة الدينية في المغرب العـربي كله. . ويعتقد دليلنـا بأن المئذنة كانت دائماً تحتل ركناً معيناً من الجهة الشمالية ولا يعرف لماذا. . ثم ينتقل الحـديث إلى الـزخارف، وأسلوب بنـاء السلالم التي تتنـاهى صعداً. نختلف في غـير نقطة، ونلتقي في غير نقطة، والحديث يتدفق بشهية أخاذة.

يقول أحدهم: لماذا لا تتساءلـون عن أهمية المحـراب في البنايـة الدينيـة، فأنـا اعتقد بـأن أصله بيزنطي، ويرد عليه آخر بصوت متشنج، بتأكيده على أن المحراب، يقوم ميزة إسلاميـة بحتة، ولا علاقة له بأي موروث آخر، ويورد من القرآن الكريم قوله تعالى «كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً»، ولذلك فإن المسلمين قد أولوا المحراب أهمية كبيرة.

ها نحن أمام مئـذنة «الكتيبـة» التي تعود إلى القـرن الثاني عشر وأيـام حكم الموحـدين. . وتعن لي من خلالها صور متعددة للمآذن، من مئذنـة جامـع البصرة في المنتصف الأول للقرن الهجري. . ثم مآذن المغـرب العربي ذات الأشكـال المربعـة. . ثم المآذن المستـديرة كمئـذنتي سامراء وأبي دلف في العراق، ومئذنة جامع ابن طولون في القاهرة، ثم المآذن المثمنـة الزوايـا والأسطوانية التي شـاعت على أيـدي الأتراك. . وأعـود من جولتي الـذهنية إلى «الكتيبـة» إنها واحدة من روائع المآذن المغربية، بتدرجات زخارفها حيث تلتم أخيراً في القمـة، وبإيقـاعات فتحاتها وعقودها، وبينما كان كل منا مشغولاً بتأملها، كان صوت الدليل يواصل حديثه عنها، مفصلاً ومعللاً، وساعياً لأن يوحي لنا بسعة علمه في موضوعه، فيخرج عليه بعضنا مصححاً فيمتعض لفترة ويكفهر وجهـه، ثم يعود لأداء مهمتـه وهو يتمتم: كـانت دائماً هنـاك وجهات نظر متعددة في التأريخ ولكل منكم الحق أن يأخذ ما يـريده منهـا. . ولكن يجب أن نتفق على أن العمارة الدينية في الإسلام خضعت لثلاثة توجهات رئيسيـة ولكل منهـا خصائصـه، الأولى

منها ولدت في المشرق العربي، والثانية منها هي العمارة الدينية الأندلسية، ثم تلك التي قامت على المزج ما بين العمارة الأندلسية والعمارة المغربية، وكان لهذا التوجه المعماري أن استجمع لنفسه خصائص مهمة، أفردته في جهد إبداعي متميز.. ولم نعترض عليه، بل اندفعت لتأييده في صحة تقسيمه لأصول العمارة الدينية، وصرت بهذا التأييد موضع اهتمامه فما أن يفتح فمه برأي، إلا ونظر إليّ لأهز له برأسي مؤيداً بل ومؤكداً على صحة ما يقول.

***

في المساء كنا مع جائزة الكتاب، ومع صوت وزير الثقافة الممتلىء بالاعتزاز، وهو يقدم الفائزين الأربعة بجائزة الكتاب: العربي مزين ـ طه عبد الرحمن ـ أحمد المجاطي ـ محمد مفتاح، وينوه بأهمية الدكتور محمد عزيز الحبابي الذي نال جائزة الاستحقاق الكبرى، وأهمية آثاره العلمية والأدبية، ونتذكر من خلالهم أسماء العديدين من المفكرين والأدباء المغاربة الذين كان لأسمائهم دوي مفرح في غير محفل من المحافل العالمية، كالدكتور محمد عابد الجابري والطاهر بن جلون والعروي والحبيب المالكي ومحمد بن شريفة وغيرهم وغيرهم، ممن اتسع منهم باب للحضارة العالمية.. وجوائز الكتاب لم تمنح لهؤلاء الفائزين إلا بعد أن توفر على دراسة آثارهم قرابة ثمانين من الأخصائيين وثبتوا شهادتهم بشأنهم، وإلا بعد أن عاد لكل تلك الشهادات المفصلة في أهمية نتاجهم، قرابة عشرة من المفكرين والنقاد الذين تكفلوا بمناقشتها وإقرار الحق لمن هو حقيق بها..

وعندما التقيت بالصديق الطاهر بن جلون وأنا أودعه، أدركت من خلال ابتسامته الواسعة مدى غبطته بما سمع من جلالة الملك عندما صافحه مهنئاً إياه بفوزه بجائزة الكونكورد، والذي اعتبره شمعة أخرى في تاريخ المغرب الحضاري.

١٩٨٩/٤/٦

صاحب «الطواحين» طحنته الحرب

لا أدري كيف يكون لي أن أفهم أن بلداً عرفناه مهد حضارة، وعرفناه من بعض توجهنا في الأمن والمحبة والديموقراطية لا يستطيع، ويكل ما لديه من أمس غني بالألفة، أن يصد نفسه عن الولوغ في دماء أبنائه، وكأنه ما عاد له أن يستطعم شيئاً في الدنيا غير دماء أبنائه. ومن دون أن يسأل عما إذا كانت تلك الدماء دماء طفل بريء لم يدرك كونه في ماروني أو شيعي أو سني، أو دماء مسن كرس عمره لأن يعرف نفسه لبنانياً وأكبر من أن يصنفه في طائفة أو حزب، أو دماء مفكرين وأدباء وشعراء نذروا أنفسهم لأن يكون لهم من بلدهم بلد اشعاع وحضارة وأدب.

ولم تشفع للشيخ صبحي الصالح تقواه ولا علومه الثرة في أدب دينه ودنياه لدى المجرم الذي سعى لاغتياله، ولم تحل دون حسين مروة ونية المجرم الذي اغتاله، مكانته الكبيرة في الأدب والفلسفة، وأمس كانت لنا ضحية أخرى عندما طوحت قذيفة عمياء بشجرة باسقة، ومن أزهى شجرات لبنان الباسقات، ولم تستطع أن تحمي توفيق يوسف عواد آثاره القصصية الرائعة ولا السنوات الطويلة التي خدم فيها بلده كاتباً لامعاً في صحافته الأسبوعية واليومية، وديبلوماسياً كبيراً ومن ألمع ديبلوماسييه الذين حملوا للعالم وجهاً مشرقاً للبنان، ولم تستطع دار ابنته التي احتمى بها من قذائف بيروت الطائشة أن تصون له حياته، فجاءت عليه وعلى ابنته أيضاً، سامية توتنجي، التي تعرفت من خلال صالة بيتها المرصودة للفنون التشكيلية، إلى أبرز أعمال الفنانين اللبنانيين.

مات توفيق يوسف عواد وترك لنا أن نضيف إلى تاريخ نضاله وحصاد أيامه قذيفة طائشة يذهب ضحية لها، وكأن لبنان لم يكتف بما قدم له من أيام في السجن، ومن اعتداءات عليه لإيمانه بالقضية الفلسطينية والإنسان العربي. وبما زرع في كل حرف من حروفه من محبة لبلده الذي أبى أن يغادره كما غادره الكثيرون، فكان جزاؤه منه أن طالته هذه القذيفة وهو يحاول أن يحتمي منها بهذا الجدار أو ذاك الجدار، ويمني نفسه بأن يموت على سريره وأن يحتشد وراء

جنازته أهلوه ومحبوه ومريدوه الذين تعلموا الكثير من قصصه وأدبه وخلقه العالي.

كان توفيق يوسف عواد واحداً من أبرز ثلاثة قصاصين لبنانيين تعرفت إلى قصصهم في أواسط الأربعينات وهم: خليل تقي الدين وسعيد تقي الدين وتوفيق يوسف عواد، ورأيت في جديدهم ما يخرج بالقصة عن نهج الكثيرين من الأدباء الشبان يومذاك وممن اعتمدوا على أسلوب «غي دي موباسان» في بناء أقاصيصه على العقدة وحل العقدة، وإيلاء الأهمية الخاصة إلى الحياة التي تنبثق من خلالها بكثير من البساطة والعفوية، ومن دون أية ضرورة لاصطناع المفاجآت لتثير دهشة القارىء بالحدث. القصة صارت على أيديهم، وكما هي عند «تشيكوف ١٨٦٠ ـ ١٩٤٠» في مرمى جديد حيث تنفجر الأحداث من صميم الواقع، ويصير لنا أن نكتشف عمق أبطال القصة الإنساني من خلال رؤيتهم الداخلية لها، ومن خلال اتساع معاناتهم الشخصية معها، وكما تتطور الأحداث تتطور معرفتنا بدقائق الشخصيات الخلقية والنفسية، وقد شجع على ذلك قرب هؤلاء الكتاب اللبنانيين من الحياة العامة لمجتمعاتهم القروية والمدنية وحيث تتداخل بعضها بالبعض، وتتعاضل العلاقات فيما بينها، والتي كان لها أن وهبت القصاصين اللبنانيين نماذج لشخصيات متسمة بالفرادة، وبالبساطة المملؤة بكل ما هو إنساني وحقيقي، وأن قوى مواهب هؤلاء القصاصين المتحررة من عقد البحث عن خصوصية التوجهات الادائية في التراكيب اللغوية المتوارثة، وقد مدتهم بلغة على جانب كبير من الدقة والوضوح والبساطة، وكأنها كانت تنبع من أصالة الواقع، وفي ذلك أثر مما كان القصاصون العالميون ينهجون نهجهم فيه، وإذا كان تشيكوف قد خرج من معطف «جوجول ١٨٠٩ ـ ١٨٥٢ م.» فمن معطف تشيكوف توزع أثر غير قليل في أدب القصة العالمي. ولم يخف توفيق يوسف عواد تأثره بما كان يقع إليه في الأدب العالمي كسبيل لحداثة اسلوبه القصصي، فيقول في مقدمة باكورة أعماله «الصبي الأعرج» عام ١٩٣٦: «ولكن أدبنا الحاضر لا بد له من المساهمة في نشاط الآداب الغربية، فنحن مع المحافظة على طابعنا الخاص، لا يسعنا إلا أن نتأثر بها وأن نجاريها، فقد قربت الأبعاد واتصلت الثقافات وتشابكت المصالح من أقصى الأرض إلى أقصاها حتى لأرجو منك أيها القارىء أن تعترف معي بأن السيارة مثلاً ومن بعدها الطائرة بدّلت كثيراً من سلوكنا وأساليب تفكيرنا وشعورنا.. فأنا إذن إن عالجت القصة على ما يفهمها الأدب العالمي اليوم فلا يعني ذلك أنني أقلد، بل أمد يدي إلى مائدة أنا مدعو إليها وكل أديب عربي مدعو معي إلى طيباتها». وكان الشاعر «ت. اس. ايليوت ١٨٨٨ ـ ١٩٦٥» قد سبقه إلى القول بأهمية ايقاعية السيارة على أدب عصره. إذ أن لكل جيل إيقاعية تنبع من منجزاته وهو ما يجب أن ندركه فيه

وفي العام ١٩٥٢، على ما أذكر كتبت كلمة تعريفية بأدب القصة اللبنانية المعاصرة، متمثلة بما أنتجه توفيق عواد وخليل تقي الدين وسعيد تقي الدين ونشرتها في إحدى الصحف العراقية، منوها بخصوصية كل منهم، ومشيداً بتلك العلاقة العميقة ما بين الواقع المأسوي الذي عاشه لبنان تحت ظل الانتداب وطموحات هؤلاء القصاصين وما بين تطلعاتهم في القصة الحديثة. ووقفت طويلاً عند مجموعة «الصبي الأعرج» مشيداً بجدته في البحث عن

أبطاله بين بسطاء أهل قراه، وبصدقها وحسن رصده لدقائق حركات أبطاله ودقة وصفه لسلوكهم. وآخذاً عليه من طرف خفي، بعض الهنات في لغته وبعض استعاناته غير الضرورية بالجمل الاعتراضية التي توحي بوجود الكاتب خارج العمل القصصي وليس مندمجاً فيه اندماجاً كلياً كما يجب. وبعثت برسالتين مصحوبتين بما كتبت ونشرت، لكل من خليل تقي الدين وتوفيق يوسف عواد عن طريق الراحل البير أديب ومجلته «الأديب» والتي كنت على صلة حميمة به وبها. ولم أتسلم رداً من خليل تقي الدين، إلا أن توفيق يوسف عواد، رد على رسالتي برسالة مقتضبة جداً، يشكرني فيها على ما كتبت عنه، ويثني على تجربة الأدباء العراقيين الذين قرأ لهم بعض ما كانوا ينشرونه في الصحافة اللبنانية، والتي كان لها فضل تبنيها اياهم والإشادة بأعمالهم، مما شجعني على أن الحق رسالتي الأولى برسالة ثانية، وأرفقها بعدد من الأعمال القصصية والشعرية من بدر السياب ونازك الملائكة وعبد الملك نوري. ولم أسمع منه شيئاً بعد ذلك وإن كنت أواصل إرسال تحياتي إليه كلما كتبت لأحد أصدقائي في بيروت.

وفي نهاية العام ١٩٦٣، قدمت إلى بيروت، واخترتها مقراً لسكني، وسرعان ما توطدت علاقتي بشخصين أثيرين على نفسي هما الشاعر فؤاد الخشن والأستاذ أحمد أبو سعد، اللذان تكفلا بتعريفي إلى غير واحد من أدباء لبنان الكبار، كالأخطل الصغير «بشارة الخوري ١٨٨٥ ـ ١٩٦٨ م.» وأمين نخلة وغيرهما، وكان من بعض كرم الصديق فؤاد الخشن أن أقام لي حفل عشاء في بيته المطل على البحر في الشويفات، دعا إليه نخبة من الأسماء الأدبية اللامعة، وكان من بين من لبى الدعوة الشاعران عمر أبو ريشة وسعيد عقل، وكنت آمل أن أجد بينهم توفيق يوسف عواد أو خليل تقي الدين، أما سعيد تقي الدين فقد توفاه الله عام ١٩٦٠، ولكني، وكما أتذكر أن الأول اعتذر أما الثاني فلم يكن آنذاك في لبنان.

وعز علي أن الرجل الذي أشدت بأدبه واعتبرته قمة أدبية بين قمم لبنان، والذي تكرم فأهداني «قميص الصوف» و«الرغيف» واللتين رأيت فيهما جهداً كبيراً في البنية القصصية، وجهداً مماثلاً في اكتمال لغته الخاصة ضمن حدودها الأصيلة في الدقة والوضوح والبساطة، عز علي أن الرجل لم يسأل عني، ويكلف نفسه برفع سماعة التليفون ليقول لي كلمة ترحيب. وهمست بذلك لغير صديق من أصدقائي الذين بادروا بإيصال حقي في العتبى عليه إليه، ومع ذلك مرت أيام طويلة دون أن أسمع منه شيئاً إلى حين فوجئت بصوته يأتيني عبر التليفون ليقول لي معتذراً عن تقصيره لكثرة أشغاله، واعتذرت بدوري مجاملاً، عن تقصيري لأنني لم أسع إليه خشية أن أقطعه عن أعماله التي أعرف أنها كثيرة وشائكة. . وزارني بعد أيام من هذه المكالمة التليفونية برفقة واحد من أقربائه، وهو يتأبط كتابه «فرسان الكلام» الذي كان قد صدر حديثاً ببيروت.

ويدور كلام طويل عن فرسانه الذين آثرهم بحبه وإعجابه بهم، فنقف عند ميخائيل نعيمة وما كتبه عن جبران خليل جبران، ثم ينعطف بنا الكلام إلى مارون عبود فأشيد بدوره على شعراء الحداثة في العراق. وأروي له بعض ما كتبه عني وكان من الأسباب المحفزة لي

على تلمس خصوصيتي في شعري «ليس فينا من قدر الصمت واستوحاه كما استوحاه هذا الشاعر الشاب، وقلّ في الأدب العربي من أوحت إليه الطريق ما أوحت لبلند الحيدري من أفكار ومعان». يصغي إليّ توفيق يوسف عواد وأنا أنتخب جملاً من مقالة مارون عبود عن ديواني «خفقة الطين» والذي كان قد نشرها في العام ١٩٤٧، وأبين أثر مثل هذا القول في شاعر في العشرين من عمره، فيهز رأسه ويبتسم، ثم هو يقول بما معناه: أنه كان يبالغ في نقده أحياناً، ثم يعتذر بأنه لم يقصد ما قاله عني، ولكن عندما يغضب على أحد فلا حد لهجومه ونقده اللاذع وأسلوبه في تركيب الصور المضحكة عنه.

ولم يتسن لي أن ألتقيه إلا مرة واحدة بعد ذلك، حيث قمت بزيارته راجياً منه أن يتحدث لطلاب «ثانوية برمانا الوطنية» والتي كنت أشرف على إدارتها يومذاك، وعلى مثل ما تحدث إليهم من قبل ميخائيل نعيمة، فيعتذر الرجل بتواضع جم، ثم يعدني بذلك إن سنحت ظروفه، ولم تسنح، ثم كان أن شتت به الدنيا إلى غير أرض من العالم، معتمداً ديبلوماسياً في إيطاليا تارة، وفي اليابان تارة أخرى. وشتت بي توجهات جديدة إلى غير هذا الجيل من الأدباء في لبنان. فالشبان الجدد أكثر مغامرة وأدبهم أكثر إثارة والتقاؤهم بما يجد من جديد في الأدب العالمي أكثر تماسكاً، ولما كنت أشرف في الآن ذاته على الصفحات الأدبية في هذه المجلة حيناً، أو تلك الصحيفة حيناً آخر، كنت أرى أن من بعض مسؤوليتي أن أولي اهتماماً متزايداً بأدب هؤلاء الشبان.

وفي كتاب الأخ الصديق محمد دكروب «شخصيات وأدوار في الثقافة العربية الحديثة» الصادر عام ١٩٨٧، يعنون إهداءه إلى «توفيق يوسف عواد.. الشاب الذي بلغ الخامسة والسبعين» وأضيف إلى ذلك: «إلى الرجل الذي عاش أفكاره بحيوية الشباب الأخاذة، ولكن لم يشفع له لا عمره ولا شباب أفكاره لدى من لا يرحمون شيخوخة ولا شباب الفكر الحي.. رحم الله توفيق يوسف عواد وطيب ثراه، إن بقي ثمة ثرى في لبنان لمن يموت فيه».

١٩٨٩/٤/١٤

رسائل الأصدقاء
وحديث الذكريات الحزينة

لا بدَّ لي من أن أعترف بأنني كنت وما زلت أشعر بشيء من الخيفة تهز بدني كلما مددت يدي لأن أتسلم من ساعي البريد الرسائل المعنونة باسمي، وما زلت ليومي هذا لا أدرك سبباً واضحاً لذلك. إنه هاجس لازمني منذ أيام شبابي، ويوم لم تكن الرسائل لتعني الشيء الكثير بالنسبة لي، فكل أصدقائي مقيمون في بغداد، والمقاهي العاصمة أن تلم شملنا صباح مساء، ففي هذه المقهى سألتقي بالسياب وفي تلك بالبياتي وفي غيرهما بحسين مردان، وإن فاتنا شيء من ذلك، فثمة لقاءات لنا على غير موعد في باحة «دار المعلمين العالية»، والا ففي غرفة جواد سليم أو جبرا ابراهيم جبرا متسع للعديد من تلك اللقاءات، وإذا كان لبعضنا ان مارس كتابة الرسائل فلهوى خبيث في النفس، ومن تلك رسالة دبجها حسين مردان ذات يوم باسم فتاة لواحد من الضباط الصغار الذين كانوا يؤمون مجالسنا ولا هم لهم في شعر أو أدب، ولكنها فرصة للتباهي أمامنا بما لديهم من فاتنات يمتن غراماً بهم، وثبت له موعداً في ساعة من ساعات الظهيرة الحارة جداً أمام باب إحدى قاعات السينما، ثم يختمها باسم موهوم وبدمغة من شفتيه المتخشبتين، وفي الموعد المحدد نكون على مقربة من باب قاعة السينما، ويطول انتظار صاحبنا لأكثر من ساعة من الزمن دون جدوى، فيعكف عائداً إلى المقهى ليرينا الرسالة وليحدثنا حديثاً كاذباً عن اللقاء ويطيب لحسين مردان أن يبعث برسالة أخرى، تعتذر فيها الفتاة عن عدم حضورها، وتعده بلقاء آخر في ذات المكان، وتخشى عليه أن لا يتعرف عليها فتقول بأنها ستحمل حقيبة حمراء، وهكذا يتسع عبث الرسائل فيمتد إلى أصدقائنا أيضاً، وقد يجتمع بعضهم لكتابة قصيدة مشتركة، ويخترعون لشاعرها اسماً ويبعثون بها لاحدى المجلات الأدبية المعروفة في لبنان والتي سرعان ما تبادر الى نشرها مؤطرة، رغم أن القصيدة مجرد عبث ولا تقوم على أية بارقة من الشعر، وذلك إمعاناً في السخرية من الشعر الحديث والمجلة معاً، وقد ناشني بعض رذاذ هذا العبث الصبياني إذ نُشرت قصيدة باسمي، بادرت إلى تبرئة نفسي منها، وذلك على الرغم من أن أحد الخبثاء من جماعتنا كتب تعليقاً عليها، ومعتبراً إياها من أحسن قصائد بلند الحيدري.

وتنفتح أبواب البعثات لغير واحد من أصدقائنا، وصرنا ننتظر رسـائلهم بمزيـد من الشوق إلى أخبارهم وأخبار العواصم الكبيرة التي احتضنتهم، ويبقى لباريس تفاضلهـا على نيـويورك ولندن، بمقاهيها وشوارعها، وبرج إيفلها، والحي اللاتيني، وغابة بولونيـا التي عثر فيهـا أحد أصدقائنا على شريكة حياته، ويكتب جواد سليم من لنـدن عن شقراء «لها عنق غزال» وعن أعمال. . فنانين كبار صار له لأول مرة أن يراها في الواقع وليست منشورة في الكتب، وأن يمد بإصبعه ليمس خفيـة دهانها ويتـأكد من أنها صـورة أصلية. ويكتب غـائب طعمة فـرمان من القاهرة عن محاضرة ألقاها عن «الشعر العراقي الجديد» مصحوبة بفقرات منها نشرتها إحـدى الصحف المصرية وفيها يقول: «إن صديقي السيد قطب أبـدى أعجابـه الشديـد بشعر بلنـد الحيدري»، وصار لنا اصدقاء اخرون يكتبون لنا من لبنان ومصر وسورية. فهذا حليم دموس يكتب لي أن أبعث له بديـواني «أغاني المـدينة الميتـة» و«أرجو أن يصلني مـع النسخة رسمكم العزيز مع كلمة مختصرة مفيدة عن ترجمة حياتكم الأدبيـة لتكون تـوطئة لكلمتي عنـه»، وهذا فؤاد الخشن يبعث لي بآخر ما كتب، وذاك أحمد أبو سعد، يعد دراسته عن الشعـر العراقي، وتلك رسالة من خليل حاوي، ومـع ذلك. . ومع كل فـرحي الكبير بمـا أتسلم من رسائـل الأصدقاء والمعارف، ومع كونها كانت غذاءنا في جلساتنا كلها اجتمعنا في هـذا المقهى أو ذاك البيت، ظلت يدي تهتز بشيء من الخيفة من ساعي البريد كلما سلمني بضع رسائل قادمـة من مكان بعيد.

***

وتشت بنا سنوات الستينـات إلى غير مكـان من العالم، وتتسـع غربـة المسافـرين وغـربـة الباقين. ويزداد طعم المرارة قسوة وألماً في رسائل الأصدقاء. وقد تخف مرارتها أحيانـاً عند من وجدوا بعض ضالتهم في هذا البلد العربي أو ذاك، فقد ضمت المملكة العربية السعـودية إلى صدرها الرحب نخبة من كبـار علمائنا الافـذاذ وفنانينـا، ومنهم الدكـاترة مهـدي المخزومي، الذي نال في عام ١٩٦٦، جائزة الكتاب في المملكة عن كتابه «في النحو العربي»، ومنهم علي جواد الطاهر، وخالـد الجادر وغيرهم. وسعدي يـوسف استقر في الجـزائر، ومـظفر النـواب مشرد في غير أرض من أراضينا، وغائب طعمة فـرمان في أقصى الأرض، وغـيرهـم في الصين والدول الاسكندينافية. ويكتب لي جبرا ابراهيم جبرا عن «أسابيع سوداء قد مرت لم أستـطع فيها مسك القلم. . كيف حالك انت. . ؟» ويعتب رشـدي العامـل عليّ «لمَ هـذا النسيان يـا بلند. . أنا الـذي لا أمتلك إلا التطلع من خـلال رسائلكم إلى العـالم. صامت أنت، أشبـه بالقبر، ولا كلمة من سعدي يوسف وأفكر لماذا؟! أنا في أظلم وحشة مرت بحيـاتي، أستلقي وأدخن ولا أفعل شيئاً. . كنت مع جبرا قبل أيام، تحدثنا عنك بحب. كنت مع نزار عباس، تذكرنـاك سويـة فما أسعـد أن يتحدث رجـلان وحيدان عن أصـدقائهـا البعيدين». ويتكـرم شاعرنا الأكبر محمد مهدي الجواهري بالرد على رسالتي له «. . . لكم سررت برسالتك ولكم تمنيت لو أن لي قدرة التعبير بالحروف حتى عن شيء يسير مما يختلج في صدري من إحساسات عميقة كثيرة الألوان، وارفة الظلال، تجاهك بالذات وبوصفـك أنقى صورة وأجملهـا لاخوان أغيرة عليّ مثلك. عندما يتعلق الأمر بالخط وبالقلم وبالورق وبالبريد فـأنا صفر على الشـمال

وأهـل ومحل لكـل ظنة غـير خيرة، وكفـو لكل عتب مـر، فهل هـذا رد فعل عنيف لكـثرة ما لخبطت بالحرف وبالقلم والورق فيها قسم لي من حظ عاثر بها؟! على كـل حال فغـيري يا أبـا عمر من يحول، وغيري من ينسى وغيري من يستهين بذكريات هي سجل كل حيـاتي، ولكن يا أبا عمر، آه لو تعلم من أنا بعدكم وما أنا فيه وأي دنيا غريبة أجوس خلالها».

ومن وحشة السجن الكئيبة يبعث إليّ مظفر النواب ببطاقته الأنيقة وعلى طرف منها صورة رسمهـا لامرأة عـراقية، وكـان كبيراً فيهـا بقدرتـه على أن يـظل واقفاً ويخـوفه علينـا لا على نفسه. . «. . . وندفىء كعـراقيين خـطواتك في الغـربة في صـدورنا، وبعض مـاضينا ويـومنا خبـزك وأغانيـك. وقضمنا بـدأب وصبر عجيبـين ربع دزن من السنـوات وما نـزال. ونسينـا أشكالنا المتصرة وظل بيرق عليها. وكبر عمر ثلاث سنوات واشرأب. أكل هذا حقيقة فما هو الذي ليس بحقيقة إذن. وفي العتمـة وبلا ضـوء غير الأمـل القديم الخبيء في القلب أصنـع أغاني للناس ولـوحشة قلبي. لقـد ازدادت وحشة القلب لـو تدري. وحكينـا للصحراء يـوماً عنك وغنيناك لها. وبقي في العين من أضواء الشمع الذوب. . الذوب فقط ولكننا منيعون».

ويموت بدر السياب على سرير في مستشفى في الكويت، يمـوت بعيداً عن بلده وأصـدقائـه وأهله، وانقطعت في ذلك اليـوم عن الذهـاب إلى وظيفتي في «الدار العصريـة» ببيروت حيث كنت أشرف عـلى مطبـوعاتهـا، ويزورني مسـاء فؤاد الخشن وأحمد أبـو سعد ليستجليـا صحة الخبر، ونستعيد معاً ذكرياتنا عن بدر الذي وعى موته كما لم يعه شاعر آخـر، فكان ذلـك من أهم مقومات إبداعه الشعري. وتمر بذاكرتي عشرات الصـور لبدر، بجسـده النحيف و أذنيه الغريبتين، ويديه المعـروقتين ووجـه النحيل، ولقـاءاتنا الـطويلة، ولشد مـا كان الـزمن يبدو آنذاك لنا هشاً، حتى إننا لم نكن لنتعرف عليه إلا عندما يفرضه الآخرون علينا عبر ساعـاتهم المشـدودة باحكـام إلى معاصمهم. كـانت الصدف هي التي تنـظم لقاءاتنـا، فقد تعـودنـا أن نخرج إلى الشوارع على غير هدف مقصود، فأقع إليه في المقهى،.ويمتد بنـا الحديث لسـاعات وساعات، وفي احيان قليلة كنا نقول بموعد للقاء فأمر بمقهـانا عـلى امل لقيـاه فلا أجـده لأنه نسي الموعد والزمن والساعة، ومع ذلك لم أكن لأتحمس لمؤاخذته أو لومه، فأي ضـير في الأمر ما دمنا سنلتقي حتماً وسيكون لنا أن نقضي ردحاً من نهارنا وهزيعاً من الليل معاً، نراجـع فيه قصيدة جديدة له أو لي أو لغيرنا، أو نتواصل مع حديث يكـر بحماسـة وانفعال حيناً فترتجف يداه وتنزم شفتاه، وقد نفترق على غـير كثير ود، أو يكـون لواحـد منا أن يميـل بالحـديث إلى اغتياب صديق من أصدقائنا فننجرف معه، أو يعيد طريفة سمعناها عشرات المرات وفي كل مرة كنا نضحـك كما لـو أننا نسمعهـا لأول مرة. . كنـا نحس بالنهـار طويـلاً لحد الملل منـه، نحمله كصخرة سيزيف ثقيلاً مرهقاً لنراه في آخره وقد انفلت من بين أصابعنا، فنتأوه لعذاب نهار جديد، كنا نحس بالسنين والأشهر قصـيرة وقصيرة جـداً. إنه الـزمن الفارغ يمـد بالنهـار حتى لتخاله عاماً ويختزل الأعوام والأشهر حتى لكأنها من بعض يـوم واحد لم نجـترح فيه غـير حوادث قليلة، بعضها بأثر من كتاب جديد، او من فيلم وبعضها من لفتة عن فتاة، او بـأثر من رسالة من معجب او مقال من ناقد مغرض، او سهـرة طالت عـلى أمل أن نـرى الشمس وهى تشرق وقد غمرت الوانها نهر دجلة، كان زمناً هشاً كبطن ضفدعة وقد تعود أن يدحـرج

كـرّشه ويتسكـع معنا في شـوارع بغداد القـائظة، متنقـلاً من مقهى إلى مقهى ومن شارع إلى شارع، وكثيراً ما كان يتسلل حافي القدمين وحذراً إلى قصائدنا، ولا نشعر به إلا عندما تعلن المدينة عن إغـلاق كل أبـوابها دوننـا، ونكبر معـاً وتكبر معنـا همـومنـا واختـلافـاتنـا الأدبيـة والسياسية، ويبقى لي من فضله عليّ أنه قال في مدحي ما لم يقله فيّ أي شاعر آخر من شعراء جيلنا، وعلى الأخص في أواسط الخمسينات، حيث شعرنا فجأة باننا نشرب من منبع واحد، هو تلك الكآبة القاتلة التي كانت تغور عميقاً في أحاسيسنا.

* * *

مات السياب، وكانت رسائل بعضنا لبعضنـا تسقط عليه مـوتنا كلنـا، وتخيل بعضنـا بأنـه سيرث سريره في مستشفى ما في هذا البلد أو ذاك، ويكتب إليّ رشدي العامل رسالة عن بدر «الذاهب كالمطر» وقد امتلأت بحس مأسوي، أما رسالة سعدي عن بدر فقـد كانت واحـدة من قصائده الملأى بحساسيته الشعرية المرهفة «وبعد.. والحـديث عن بدر فهـو زهرة أخـرى يصوحها المناخ الوحشي، حيث المـوت نفسه لا يكفي ليكـون بابـاً للخلاص.. إن استشهـاد بدر مصلوباً، متقيحاً على السرير ومنبوذاً حتى ممن وهبهم الكثير الكثير في هذا الزمن أو ذاك. إن استشهاد بدر بالنسبة لنا، نحن الشعراء الهائمين تحت كل نجم لهو اكثر من فداء. الشاعر وحده السرير المتقيح النتن المنبوذ. الشاعر وحده هو المرتدي تاج الشوك. هـو جندي الشتـاء حتى في عز الصيف، وهو بعد هذا كله الشـاعر المثقف. استشهـاد بدر في هـذا العصر حيث يدخل الناس المستشفى كما يدخلون الفندق، لهو إدانة لنـا، نحن الذين لم نستـطع أن نجعل ذوي الحوافز يعـرفون من هـذا ومن ذاك.. ابن الفلاح الـذي خرج من جيكـور ليبسط أمام الأبصار الدهشة رؤيا جـديدة.. يعـود مرة أخـرى إلى: تراب أبي وجـدي فأرى ابتـدائي في انتهائي... أقل الوفاء لبدر أن نقول كلمة الحق عنه.. أن نقول من هو بدر».

* * *

وأمس، وبيد زادها كبر السن والغربة وخيفة الأيام القديمة الموروثـة ارتجافـاً، تسلمت ومع مـا تسلمت من قوائم التلفـون والكهربـاء رسالـة من أديبة مصريـة أكن لهـا الكثـير من الـود والتقدير تقول فيها: «بلند.. إن فقد عزيز يزيدنا تشبثاً بـالآخرين ويـزيدنـا حرصـاً عليهم. وأنت تعـرف مكانـة فتحي سعيد عنـدي ومكانتـه في قلبي وأنـا لا املك إلا أن اردد عليـك كلمات العزاء. وهي كلمات فقدت معناها ودفأها من كثرة ما رددناها.. فكلانا يستحق هـذه الكلمات فخسـارتنا متشـابهة ولنـا فيـها تبقى لنـا من الحب العـزاء».. اذن لقـد مـات فتحي سعيد، الشاعر الذي أحببته من كل قلبي وأعجبت بشعره لصدقه وأمانته لتجربته ولزهـده في الشهرة التي تكالب عليها الآخرون. زهرة أخرى يصوحها المناخ الوحشي. أتـذكره، وأتـذكر آخر لقاء معه قبل ثلاث سنوات وحديثنا المقتضب عن شعر جفت أوراقه، لأن الجفـاف امتد الى أعمق أعماقنا. أعود إلى أضابـير الرسـائل لأبحث عن رسـائله إليّ.. ها هي واحـدة منها تعود الى العام ١٩٧٠ «.. تلقيت رسالتك الرقيقة بعد أن عوّقهـا البريـد طويـلاً وأنا سجـين المرض وكان في زيارتي الصديق الشاعر محمـد الفيتوري فتلقفهـا كالـدواء، وعانقت من وراء

سطورها نبض روحك ودفء قلبك.. وحلقت كثيراً معك ومع كل ألق نـدي وصدق عميق نفتقده هنا في سعار المدينة وافتراس الحياة والشعراء بعضهم بعضاً..».

واحد آخر يـرحل عـلى عجل وبعض عـزائنا فيـه أنه مـات على سريـره، وبين محبـة ذويه وأصدقائه ومريديه. ولم يسمح لسرير بدر شاكر السياب الموزع في غير مستشفى هنا وهناك أن يعمق شعوره بغربته وألمه وجرح ذوي القربى.

ترى هل سيكون لنا ما كان له.. وحسب المنايا أن يكن أمانينا.

١٩٨٩/٤/٢٥

الرصافي وذكريات الأمس

أعادني كتاب الصديق، الأستاذ نجدة فتحي صفوة عن الشاعر العراقي «معروف الرصافي» الذي صدر مؤخراً عن «سلسلة الأعمال المجهولة» لدار «رياض الريس للكتب والنشر» بلندن، أعادني إلى فترة من أجمل فترات صباي الملأى بطموح فتى دون الخامسة عشرة من عمره، وقد أخذه هوس شديد بمطالعة كتب الأدب وحفظ الشعر، متلمساً نفسه في كل ما يثير العجب والإعجاب من شعر شعرائنا القدامى والمحدثين، فلا أفتح ديواناً من دواوينهم، إلا وقد أعددت سلفاً دفتراً صغيراً، أدون فيه ما أقع إليه من قصيدة تعجبني أو بيت شعر استشعر به ما يعمق وعيي بالحياة وينسجم مع نظرتي القاتمة إليها، وكان سيد المقربين إليَّ آنذاك «أبو العلاء المعري ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م.» الذي كنت ارى في محابسه الثلاثة ذروة الألم الذي ما بعده ألم يماثله، وفي حكمه غاية القول في إيجاز قتامة الدنيا ورداءة أهليها، وعنت أحكامها، وكنت لا أكف عن ترديد رائعته الدالية، كلما عنَّ لي أن أوحي لزملائي وأهل بيتي عمق فهمي لمأساة الإنسانية وعمق ما يعنيه بقوله:

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

أو قوله:

وحامل ثقل الثرى جيده، وكان يشكو الثقل من عقده

وقوله:

هذا جناه أبي عليَّ وما جنيت على أحد

وبقدر ما كنت أكن من اعجاب كبير بعبقريته، وبشاعريته الفذة في «سقط الزند» وفلسفته في «اللزوميات» وإبداعه في «رسالة الغفران» كنت لا أدرك من «أبي الطيب المتنبي ٩١٥ ـ ٩٦٥ م.» إلا عنجهيته وكبرياءه المفرطة في التعالي، ومدحه الدائم لنفسه، فأحس بكره شديد له، ولم تشفع له عندي حتى معرفتي بأن أبا العلاء المعري كان من كبار المعجبين به وانه كان من بعض شراح ديوانه.. كان لي من تشاؤم المعري ما يغذي حسي الرومانسي وما يشعرني بأنني أنضج وعياً، وإنني أكبر من سني، وأن المعري كان مندمجاً بشمولية إنسانية عندما يقول:

وما أنا إلا هالك وابن هالك
وذو نسب في الهالكين عريق

وفاتني، وانا في مثل تلك السن، أن أتبين عبقرية المتنبي في محاكمته لعصره وتقويم ما التاث على الناس من امر دنياهم، واندفاعهم في سبل الذلة والاستكانة والأفك الصراح، فعزوت تعاليه بسبب من شعوره بضعة أصله وفقر منبته، فسعى الى أن يوحي بغير ما هو حقيق به، وفاتتني أيضاً القدرة على أن أدرك في عزلة المعري وزهده غير ما تقول به قصائده، وفي اندماج المتنبي في كل صغيرة وكبيرة من واقع مجتمعه وعصره غير ما تقول به غربته عنهما وتعاليه عليهما، ولم يكن سبيل ذلك ميسراً لصبي في عمري.

وعلى مثل ما كنت انتصر للمعري، مدافعاً عن حياضه بما أحفظ من شعره وما أجمع من مآثره في حسن شمائله ورعايته وجه الحق في الذي يقوله، وفي نفرته من المداجاة والتكسب بالمدح الرخيص، كنت أنتصر لجميل صدقي الزهاوي «١٨٦٣ ـ ١٩٣٦» واتجاهه الفلسفي والاجتماعي ودفاعه عن حقوق المرأة ونزوعه للتجديد ولو قيض لي أن أتعلم الرسم، لما كان لي أن أرسم صورة للمعري إلا من خلال صورة للزهاوي، بوجهه الشاحب ولحيته الكثة، باستثناء نظارته وعينيه الذابلتين واللتين لا تذهبان بي بعيداً عن تمثلي لعيني المعري العمياوين، وعلى مثل ما كنت أنفر من شخصية المتنبي ولا أفهم أبعادها. ومن شعره، ولا أستطيع الغوص عميقاً فيه، كنت أنفر من الرصافي وشعره ولا أحفظ منه إلا ما تعكر صفوه وساء وصفه لأنال به منه عندما يتسنى لي أن أتحدث عنه أمام زملائي الطلاب وأساتذتي في المدرسة، فهو في نظري شاعر محافظ لا يخرج عن قماءة ما ترسمه الأقدمون من شعرائنا الصغار وحكمهم، ولا تخرج صوره عن الصورة العينية لتتشكل في بعد رمزي يغري ويحفز على المشاركة في نيلها في الذي هو أكثر من ظاهرها.. إنها بلا شك أحكام مبتسرة، ومجموعة انطباعات، كان بعض أثرها متأتياً من أهل بيتي وأصدقائهم ممن كانوا يجلون الزهاوي لنسبه وعفته وانسياقه معهم في تأييد الحكم، ولا يرون مثل ذلك في الرصافي اللاهي والمشاغب وابن العائلة الفقيرة، والمناوىء لفيصل الأول الذي كان فيهم من يحسب على بطانته.

وانقلبت كل أحكامي رأساً على عقب غب لقائي بالرصافي لأول مرة في قضاء الفلوجة، حيث كان يشغل فيه منصب قائمقام القضاء زوج عمتي السيد شاكر محمود، والذي أتيته زائراً لقضاء شهر من فصل العطلة المدرسية في مدينة الفلوجة، وكان بيته مفتوحاً كل مساء

جمعة لاستقبال زواره من الموظفين ورجال العشائر وبعض وجوه البلد المعروفين حيث كانوا يتحلقون بشكل دائري في فسحة الحديقة المطلة على نهر الفرات، وعلى كراسٍ من الخيزران، باستثناء عدد قليل من الكراسي الوثيرة التي خص واحد منها بالقائمقام، وتركت الأخرى لمن يريد أن يوقره من زواره، أو من يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً، أو من يريد أن يسر اليه بنبأ سري، وما أكثر تلك الأنباء التي كانت تسري همساً من مكان إلى مكان في تلك الأيام.

ويوم أن وصلت الفلوجة كان مجلس الجمعة منعقداً في دار زوج عمتي الذي هرع إليَّ مرحباً بي، وأخذني من يدي، ومن قبل أن أسلم على عمتي وأولادها، ليقدمني الى ضيوفه، معرفاً بهم واحداً واحداً، ثم أدنى كرسي الوثير أيضاً، من كرسيه، وفجأة يقف الجمع مرحباً بشيخ يرتدي اللباس البلدي والعباءة، ويسير بتؤدة ووقار وهو يرفع يده ببطء مسلماً على الحاضرين، ثم يتخذ له كرسياً الى جانب كرسي القائمقام، كما لو أنه مكانه الأثير المعد له سلفاً، فلا حاجة لأن يسأله عمن يقدمه اليه، وظننته في البدء واحداً من علية القوم في المدينة، إذ لم يسبق لي أن رأيت صورة للرصافي بكوفية وعقال وعباءة.. جلس وجلسنا، ودارت فناجين القهوة على الجالسين مصحوبة بالسجائر التي تكفل بأمرها اثنان من خدم البيت، وتوجه عدد ممن ضمهم المجلس بالسؤال عن صحته، وأمور دنياه، وهل من قصائد جديدة؟ ويرد بصوت أجش وهو يبتسم: «هذي الحكومة خلت عدنا شعر» ويلتفت إليه شاكر محمود قائلاً: «ها.. بدينا، بعد ما كعدنا» ثم يضحك الجميع.

إذن هذا هو الرصافي الذي شغل العراق بقصائده وبأخباره وجرأته.. هذا هو الرجل الذي ظننت بأنني أكرهه، وها أنا مملوء الآن بمشاعر الاعتزاز لأنني أحضر مجلسه، وما أكثر ما سأرويه لزملائي وأساتذتي عنه، سأقول لهم بأن ليس بين كرسيه وكرسي غير كرسي القائمقام، الذي ما أن يغادره للحظة حتى أتحين الفرصة لتأمله، من مسبحته الطويلة المتدلية من يده اليسرى، وإلى تجاعيد وجهه، حتى إذا ما انتبه إليَّ وإلى عينيَّ المشدوهتين ابتسم لي بطيبة أخاذة، ثم انصرف لسماع حديث بدأه واحد من الحاضرين: يقال ان السيد ضياء شكارة يعد كتاباً عن الزهاوي وعن علاقته به وعن نوادره مع الزهاوي، ومن تلك كما سمعت انه زاره ذات صباح من أيام الصيف فرآه جالساً في حديقة الدار والشمس مسلطة على رأسه. فاستغرب ذلك منه، ونصحه بأن يترك مجلسه، فما كان من الزهاوي إلا أن رد عليه قائلاً: ولدي ضياء لم يبق في هذه الشجرة غير ورقتين استظل بظلمها، فرد عليه ضياء شكارة: وهل أصبحت عصفوراً لتكتفي بظل ورقتين. استمر الحديث كذلك، يدور من نادرة الى نادرة عن الزهاوي وعن المقالب التي كان يعدها له بعض الشبان من الأدباء. وكان الرصافي يبتسم وهو يردد: «الله يرحمه.. لقد شبع موتاً، يا ناس لماذا لا تتركونه ينام بسلام». فيتزلف له واحد من الجلوس بقوله: «وهل تركك بسلام لنتركه بسلام». فيبدو على وجه الرصافي شيء من الامتعاض وهو يقول: «كان الرجل طيباً وكنت أحبه وما حدث بيننا يحدث في كل زمان ومكان». ثم نهض مودعاً جلساءه، فمن عادته أن لا يمكث طويلاً في مثل هذه الزيارات. وينهض الجميع، وبمشية متثاقلة يتوجه نحو الباب وبصحبته زوج عمتي،

وسرت وراءهما، وعند الباب تصافح الاثنان، ثم مد يده إليَّ مصافحاً وهو يسألني عن اسمي. فأجيبه وأنا أرتجف: اسمي بلند، فيضيف زوج عمتي.. أنه ابن أكرم الحيدري..

● ولكنه اسم غريب.. غريب جداً.. لعله اسم تركي.

ـ عمته.. أي زوجتي هي التي سمته به.

وكانت يدي لا تزال في يده، عندما قلت له وأنا أتلعثم: بأنني أريد أريه أشعاري.. فأنا شاعر.

ـ شاعر.. ما شاء الله.. تعالى لي غدا بعد الحادية عشرة صباحاً واحمل معك شعرك.

ويضحك ويضحك معه مجاملة زوج عمتي، الذي بدا لي وكأنه لم يكن راضياً من الأمر، ومع ذلك قال لي بأن «محمد» أي البستاني سيذهب معك وسيرجع معك، مع العلم أن بيته على مد أمتار قليلة من دار القائمقام ولم أدرك سبب إصراره على أن يصحبني محمد.

ما زلت أذكر كل ذلك بوضوح كما لو أنه حدث بالأمس فقط، فقد سهرت طوال الليل وأنا أختار من القصائد ما هو جدير بأن أحمله إليه، وكانت حقيبتي المدرسية ملأى بالعشرات مما كنت أظنه شعراً. بكرت في الاستيقاظ وأعدت النظر في القصائد المختارة، وفي الموعد المحدد تأبطتها بعناية فائقة لأذهب مع «محمد،» الى دار الرصافي. كان في مثل لباسه الذي رأيته فيه يوم أمس. الغرفة بسيطة جداً بأثاثها، عدة كراس وطاولة خشبية عادية ومشجب قديم علقت عليه ملابسه دون انتظام، وكان معه أحد معارفه الذي سرعان ما استأذنه بالانصراف ولم يبق غير «عبد» القائم على خدمته وغير محمد الذي انتبذ زاوية من الغرفة وجلس فيها القرفصاء.

«أنت شاعر.. ها.. ارني ما معك».

ومددت ما أحمل من الأوراق إليه، راح يقلبها بعجل، ثم عاد الى تقليبها مرة ثانية، وأنا انتظر متلهفاً أن يقول شيئاً. ثم أخذ يقرأ بعض الأبيات بصوت خافت، ويقف ليعلق تعليقاً موجزاً: «هذا بيت جيد.. موزون واللغة سليمة.. الأفكار جيدة»، ثم يرفع عينيه إليَّ وهو يقول: «عليك أن تحفظ من الشعر الكثير، وعليك باللغة، الأخطاء كثيرة في الوزن وفي اللغة، ولكن لا بأس كلنا بدأنا هكذا.. من تحب من الشعراء؟».

● طبعاً أحب الرصافي العظيم، وأحب المعري وأحب قيس بن الملوح.

هز رأسه مبتسماً وهو يعيد إليَّ حزمة الأوراق: «أكتب غيرها وعد إليَّ بعد غد».

ورغم مشاعر الخيبة التي انتابتني، فقد رأيت في الذي قال به إليَّ ما يحفزني على الاستمرار. وهكذا تواصلت زياراتي له ما بين يوم ويوم ويصحبني في كل زيارة البستاني محمد، وصار الرصافي يبدي اهتماماً أكثر بما أحمل إليه من شعري، فيقوّم وزن بعض الأبيات ويشطب على أخرى، ويصوب بعض أخطائي في اللغة، وينصحني بأن أقتني هذا الكتاب أو

ذلك الكتاب وأن أقرأ وأقرأ. ومد إليَّ بجزء من «الأغاني» الذي كان مرصوفاً على الأرض: «إنه يسليك ويعلمك خذه وأعده بعد غد» تناولته من يده شاكراً، وكان بالفعل كتاباً مسلياً، أقف عند طرائفه، وأقفز منها إلى عيون ما فيه من شعر ومن خبر، ثم أطويه لأبدأ بكتابة القصيدة التي ينتظرها الرصافي مني.

وفوجئت بعد مكوثي أسبوعين في الفلوجة، بطلب من والدي بأن أرجع لبغداد، ولم ينفع رجاء عمتي. وهكذا عدت لبغداد بعد أن ودعت الرصافي وشددت على يده معبراً عن جزيل شكري لنصائحه وما قوم من شعري، ووعدته بأنني سأضبط موازين الشعر وسأقوي لغتي.

وفي بغداد فوجئت بما رأيت من علائم الغضب البادية على وجه والدي: «الرصافي.. كيف تدخل بيته؟. ولكن الذنب ليس ذنبك ذنب شاكر محمود وعمتك.. ألا تعرف من هو الرصافي؟.. رجل بلا أخلاق.. إنه.. إنه».

وكان من الصعب علي أن أجابه غضبه حتى ولو بكلمة اعتذار.. ثم هدأ قليلاً، وطلب مني أن لا أروي لأي من الطلاب أو الأساتذة شيئاً عن زياراتي لبيت الرصافي. وهكذا تحول ما كنت أريد أن افتخر به أمام زملائي وأساتذتي إلى سر لا يمكن أن أبوح به لأحد.

ومرت ثلاث سنوات عجاف قبل أن يقيض لي أن ألتقي بالرصافي، مرة أخرى بعد أن اهتديت الى مقهاه القريب من جسر حي الأعظمية، حيث تعود ان يجلس فيه، وقد أحاط به دائماً رهط من أصدقائه، أو رهط من الشبان. هش الرجل للقائي، وأدناني من مجلسه، وبادرني بالسؤال عن شاكر محمود وآله، فأخبرته بما وقعت عليه من كوارث أليمة بعد أن فقد ولديه، فأسف الرجل لذلك وتمتم بالدعاء بالخير لمن بقي حياً من أهل بيته، ثم سألني عما أكتب فقلت له بأنني مزقت كل الذي كتبته في السابق. ولدي الآن ديوان شعر كامل سميته «القصائد السود»، وقد راجعه استاذي في اللغة العربية بمدرسة التفيض كمال الجبوري.. ورآه صالحاً للنشر وأنا أريد رأيك وإلا فإني سأمزقه.

ومددت به إليه، أخذ يقرأ بعض أبياته بصوت مرتفع ويثني على ما يقرأ «جيد.. شعر جيد». وشجعني ذلك على أن أمد يدي إلى جيبي لأخرج بوريقة صغيرة، حملت عدة أبيات من قصيدة جديدة عنونتها «إلى أبي العلاء المعري» ولم أكن قد أتممت القصيدة، وأخذت أقرأ.. وما زلت أذكر منها هذه الأبيات:

شيخ المعرة قم واصلح لنا فئة
الوهم أودى بها والذل والخور
موتى من الإثم قد شاهت ضمائرها
تأبى وتأنف من اشلائها الحفر
بيض المظاهر لكن طي أضلعهم
رجس تسمم منه القلب والنظر

واضيعة النور في قوم بصيرتهم
حيرى وابصارهم لم يهدها البصر

وازداد إطراؤه لي، وهو يدير عينيه بالشبان الجالسين حوله: «هذا شعر والله شعر.. اكتبوا مثله» ثم أعاد إليَّ الديوان وهو يقول: لا حاجة بي الى قراءته، إذهب ودبر أمر نشره» ومع ذلك لم أنشر «القصائد السود» وما زالت النسخة الخطية في مكتبة الأخ الصديق الأستاذ خيري العمري كما أخبرني بذلك عام ١٩٧٧.

واستمر لقائي بالرصافي في المقهى المعهودة وهو بين مريديه وأصدقائه، وتختلف بنا الأحاديث الى مواضيع متعددة في السياسة والأدب والذكريات، ويبتسم حيناً، ويدلهم وجهه في حين آخر، وقل أن شكا مما كان يعانيه من شظف العيش أو من مرضه أو من كبر معاناته مع أمور دنياه التي كنا نعرفها جيداً، وإن صرف أحدهم الحديث إليها، صرفها عنها بكبرياء الكبير الذي يرى في مثل هذا الحديث ما يجرح كرامته.

ـ كان معروف الرصافي، رجلاً ظريفاً على ما يبدو من صرامة في وجهه وقوة في صوته، وكان سريع البداهة، حلو النكتة وأذكر مرة أن صبياً دلف إلى مجلسه وهو يتأبط رزمة من الأوراق، على مثل الأوراق التي تأبطتها أنا في أول لقائي به، فما أن وقعت عينا الرصافي عليه حتى قال: «أعوذ بالله هذا هو تأبط شراً» وكان الأمر كذلك بالفعل. إذ ما كاد له أن يأخذ مقعده حتى استل كمًّا من تلك الأوراق، مستئذناً الرصافي في أن يسمح له أن يسمعه شيئاً من شعره، ومن قبل أن يأذن له، راح صوت صاحبنا يلعلع في أرجاء المقهى بكلام لا طعم للشعر ولا للنثر فيه، فالتفت إليه متسائلاً وبكثير من الجد: «أأنت وحدك كتبت هذه القصائد العصماء؟» فرد الصبي بفرح كبير: «والله والله يا أستاذ أنا وحدي كتبتها كلها من بطني أنا». فربت الرصافي على كتف من كان يحاذي مجلسه وهو يقول: «اكيد أنها من بطنه.. ألم تشم رائحتها؟» فانفجرنا بالضحك جميعاً، وانسحب الصبي حانقاً ولاعناً.

ولم تمض على هذه اللقاءات إلا فترة قصيرة من الزمن، حتى كانت صحة الرصافي قد اعتلت كثيراً، فانقطع عن المقهى وانقطعت عنها ثم كان نبأ وفاته وموعد تشييعه في ١٩٤٥/٤/١٦ فهرعت عجلاً لألتمس نفسي في لقاء أخير به، وهكذا كنت واحداً من الحشد الذي سار وراء جنازته وواحداً ممن قرأوا الفاتحة على روحه. وبكيت طويلاً في ذلك اليوم. وحاولت غير مرة أن أكتب فيه رثائي له، ولكن ماذا يمكن أن أقول بعد أن استمعت إلى الجواهري الكبير يقول في حفلة تأبينية:

ذئب ترصدني فوق نيوبه
دم اخوتي واحبتي وصحابي

رحم الله الرصافي، وأمد بعمر الجواهري والصديق الأستاذ نجدة صفوة، فقد أتاح لدارسي الرصافي أن يدركوه في بعد جديد ومهم، كما كان لنا جميعاً من دراسته الفذة والشاملة

ما يمدنا بدقائق كثيرة من حياة الرصافي التي طالما شوهت ودس عليها الكثير مما هو بـريء كل البراءة منه.

١٩٨٩/٤/٢٩

جواد سليم
بعد ٢٨ سنة

لم يكن جواد سليم بالرجل الذي يمكن لأي واحد ممن عرفوه أن ينسوه، لا على مستوى علاقتهم الشخصية ومدى تأثيره عليهم، ولا على مستوى كبر عطائه الفني الذي أعاد للفن العربي الحديث وجهه في أصالته وتراثه من ناحية، ومد بتطلعاته الى فنون القرن العشرين وبرؤية واعية أدركت نفسها في ضرورة أن تكون متسمة بتراثها ومنفتحة على عصرها ومحملة بزخم واقعها المحلي.

وكما حملت إلينا دار الدكتور المهندس المعروف محمد مكية معرض جواد سليم الأول في بغداد قبل ما نيف على ستة وأربعين عاماً، وهو في بواكير أعماله الفنية، تحمل الينا اليوم جاليري «الكوفة» ـ لندن، وبرعاية الدكتور محمد مكية نفسه، وبعد ثمانية وعشرين عاماً على وفاة جواد سليم، معرضاً يتسع للعديد من أعماله وما استوحاه منها فنانان تواصلا معه وأثريا تجربته وتطلعاته وهما: ضياء العزاوي واسماعيل فتاح الترك، الى جانب لقائين به من خلال محاضرة عنه وعن فنه أعدها الأستاذ كنعان مكية باللغة الإنجليزية وندوة لثلاثة من أصدقائه الحميمين: د. محمد مكية والمهندس المعروف رفعت الجادرجي وكاتب هذه الكلمات. . ولم يغب عن هذا الاحتفاء بذكراه صديق آخر من أصدقائه المقربين اليه وهو ناظم رمزي الذي تكفل بجهد مهم، وكم كنت أتمنى أن يسهم معهم صديقان آخران له ولنا هما جبرا إبراهيم جبرا وشاكر حسن آل سعيد واللذان قاما معه بتأسيس وتوطيد شأن جمعية «بغداد للفن الحديث» عام ١٩٥٢، وقد كان لي شرف تعريفهما إليه.

التقيت بجواد سليم لأول مرة غب عودته من أوروبا ـ فرنسا أولاً ثم روما ـ بعد أن أضطره نشوب الحرب العالمية ان يقطع دراسته ويعود لبغداد، التقيته صدفة في شارع أبي نواس، وكان لوحده وكنت بصحبة عمتي الفنانة ناهدة الحيدري، التي كانت متحمسة لإقامة جمعية لـ «اصدقاء الفن» فعرفتني به، وأنا يومذاك دون السادسة عشرة من عمري، وقد شغلتني رغبة شديدة لأن أمد بأذني الى كل ما يقال عن الفن والأدب، فأحسست وأنا أستمع

إليه، وهو يبدي تعليقاته الصريحة على مشروع اقامة الجمعية، بأنني أمام رجل يختلف عن الآخرين الذين سبق لي أن تعرفت اليهم من خلال عمتي أيضاً، فالجمعية في نظره لا يمكن أن تؤدي الى شيء مهم، وأنها بانفتاحها على كل الفنانين ومن مختلف التوجهات ستضيع قدرتها على تلمس نفسها في جهد يفردها في الخصوصية. إنه زمن الجماعات الخاصة، وقد كان لأوروبا التي عاد منها توا أثرها الكبير في البحث عن فرادة الفنان بخصوصيته، ومع أنه كان واحداً ممن جمعتنا صورة فوتغرافية كاعلان عن تأسيس الجمعية، إلا أنه لم يكن إلا ضيفاً طارئاً على اجتماعاتها، مكتفياً من أمره بنخبة من المثقفين الذين يعيشون في مثل هواجسه في البحث عن الجدة والابداع، سواء في الأدب أو الفن أو المعمار، وكان يرى أن مثل هذه العلاقات هي التي تعطي للجديد ابعاده المهمة وليس اعتباطاً ان الحركات الفنية الأوروبية، ومنذ أوائل هذا القرن بدأت ونمت وتطورت من خلال هذه العلاقة: الدادائية، السريالية، وغيرهما من الحركات الفنية التي لعب فيها الشعراء دوراً مهماً جداً ومن هنا يجب أن نبدأ ومن خلال السنوات الكالحة التي اعقبت الحرب، ويوم ان كان العالم، كل العالم قد سقط متعباً منهوكاً وهو يلعق جراحه، ومن خلال ما كان يتسلل الينا من شعر وأدب وفن، وبصور على جانب كبير من الدكنة ولغة شديدة التأزم والانفعال واساليب متباينة، تسعى جميعها لأن تجد من نكوصها الى الذات الفردية المتضخمة بضرب من الإحساس المرضي بعض سعادتها في تخطي أزمتها الخاصة، ومن خلال ما كنا نصغي إليه بكثير من القلق ونقرأه في صحفنا اليومية من تصاريح لمفكرين وعلماء لا تحمل تطلعاتهم اي بريق من الأمل والتفاؤل بعالم الغد، فانشتاين «يحذر العالم والبشرية جمعاء من سوء مآلها بعد ان استحوذت أمريكا على القنبلة الذرية»، والتي لن تتوانى عن استعمالها بألف حجة وألف سبب. فهؤلاء اقل الناس شعوراً بالوازع الإنساني»، والعالم «هارولد يوري» يوجه نداءاته المثيرة للرعب بهدف أن يفيق العالم من غيه «اكتب لأخيفكم. أنا نفسي خائف. كل العلماء الذين اعرفهم خائفون» و «أولد هكسلي» يتحدث عن هؤلاء المجرمين الذين يعبّدون الطريق الى الجحيم.

وبينما كنا مشدودين الى أصوات مذيعي الأخبار صبحاً وعشية، وأصوات المعلقين عليها وهم ينقلون إلينا من لحظة لأخرى أنباء جديدة عن هول الكارثة التي اوقعتها القنبلة الذرية بمدينتي «هيروشيما» و «ناجازاكي» اليابانيتين، وما يقول به العلماء عما يمكن ان يقع لهما في الغد، إضافة الى ما وقع فيهما من ضحايا نيفت على مئة الف قتيل، وكان منا من يتابع بغضب ما يروى هنا وهناك عن تاجر عراقي خلط الحنطة بنشارة الخشب ونوى التمر وباع الخليط خبزاً للناس. وكان منا من لا يزال محتفظاً بتفاؤله، وكان منا من يتلذذ بسرد أخبار الكوارث باحساس «ماسوشي» يمهد به مدخلاً لقصيدة او صورة او قصة، وكانت صور جواد سليم آنذاك ملأى بمثل هذا الإحساس المظلم وهو يروي بأعماله مآسي الكثيرات ممن يعشن وراء الجدران السود لبيوت الدعارة.

أجل.. بينما كان يحدث كل ذلك، كان رهط من مثقفينا، رسامين وأدباء وشعراء، يسعون جاهدين لأن يستنبطوا لهم مفردات لغتهم الجديدة التي يمكن ان يوكلوا إليها أمر التعبير عن واقعهم المحلي، وما يشعرون به من إشكالاته، في بيئتهم الخاصة وفي عصرهم وبما

يصعب ان تنهض به مفردات لغتهم السابقة، ومن خلال ما صار يتناهى إليهم من دعاوى الفنانين والأدباء الأوروبيين الساعين لاعتاد التحدي و «الثورة» على كل الأشياء، وهو ما قام حافزاً مهما ونزوعاً تحريضياً لدى العديد منا لـ «الثورة» على كل ما كان مألوفاً، حتى على ارتباطاتنا العائلية. وأذكر أنني يوم أعلمت جواد سليم بأني هجرت دار اهلي، وأنني أرفض العيش في غرف مملوءة بالكذب والخداع والدجل، بارك تصرفي، ولعله كان الوحيد الذي وجد في مثل تصرفي منطلقاً لقيام الشاعر فيّ.

صارت داره داري، وتوطدت علاقتي بكل أهليها، فنزار سليم أصبح أخاً لي، وأخته الفنانة نزيهة سليم أختي، وامهم أمي التي ما أكاد أتغيب عنهم ليوم واحد فقط، حتى تبادر نزار بالطلب منه أن يسأل عني خشية أن يكون قد وقع لي حادث حال دون زيارتهم واصبح كل ما في بيت جواد من بعض ملكي، فأربطة العنق لي أن البس منها ما أشاء، وأن أستعير منه جاكيتته أيضاً، ومرة استعرت منه جاكيتة، كان يعتز بها لفصالها الغريب، ولم يكن يلبسها الا في مناسبات نادرة. وما كدت أخرج لزيارة صديقة لي في دار المعلمين العالية حتى القت الشرطة القبض علي بتهمة التحريض على مظاهرة طلابية ضد الحكومة، وقضيت ثلاثة أسابيع مع جاكيتة جواد الأنيقة في السجن، ويوم أن خرجت بها كانت «المسكينة» قد أضاعت كل رونقها السابق، فاعتبرها جواد هدية منه لي: «ولا جاكيتة ولا ربطة عنق بعد اليوم يا بلند . . فالخطر منك لم يعد مقتصراً عليك بل على ملابسي أيضاً».

ولا بد من الإشارة هنا، الى دور بعض الفنانين الأجانب الذين قذفت بهم أيام الحرب العالمية الثانية الى بغداد، جنوداً في جيش الحلفاء، والذين كثيراً ما كنا نراهم يدخلون مقاهينا بأدوات تصويرهم ليصوروا بعدة خطوط قصيرة وبألوان باهتة مظهراً من مظاهر حياتنا المألوفة، فرأينا صوراً رسمت برؤية جديدة لعدد من الفنانين البولونيين مثل «ماتوشيك» و «جابسكي» و «زيكمونت» و «ياريما» وصوراً لفنان إنجليزي اسمه «كنث وود» عن بغداد، انحشرت فيها أجزاء من بغداد بتركيب انطباعي يمتاز بالجرأة وتجاوز الترابط الواقعي، للوصول الى ما يوحي بالعديد من سمات بغداد. وكان الحديث يدور طويلاً كلما اجتمعنا في الاماسي عند جواد سليم عن الأدب والشعر والفن، واذا كان بعضنا يندفع بحماسة للاصرار على آرائه، فقد كان جواد أكثرنا قلقاً. فالأسئلة أكبر من أن نرد عليها بمثل هذه الاعتباطية. وكان الحوار يتأزم بعد لحظات وإن بدأ بسؤال ساخر. كنا نحاول أن نتصل بالواقع المرسوم من خلال مزيج ثلاثي يمثل الواقع كما هو والواقع كما نراه والواقع كما نريده أن يكون. وقد أثار هذا التجميع الثلاثي للواقع نفرة بعضنا بينما انغمر فيه البعض الآخر الى اذنيه، وهو يعزز من جهده للخروج به الى منحى أدائي جديد.

وعلى الرغم من أن الصحف كانت مشغولة آنذاك بالعناوين الكبيرة لأحداث العالم، فقد كان لأحداثنا الصغيرة أيضاً زواياها، فهذا ناقد من نقاد الفن يكتب عن هؤلاء الفنانين الأجانب الذين وفدوا الى بغداد «ضحكت كثيراً أمام مناظر بغداد، ربما كانوا في بغداد، ولكن من المؤكد انهم لم يروا بغداد لأنهم كانوا يضعون على انوفهم عوينات مدارس القرن

التاسع عشر الفرنسية، وتلك اكبر غلطة يرتكبها فنان ان يـرى من خلال نـظارات يستعيرهـا من غيره. هذه الغلطة لا يرتكبها إلا فنان من الدرجة الثانيـة». في حين قـال غيره عن صـور «ماتوشيك» بأنها أثارت في «نفسي العجب فقد كانت رسومه فلسفة يصعب إدراكهـا في كنهها إلا بالدرس والتعمق وقد أظهر في جميع رسومه تأثره العميق بالجو والحياة في العراق».

وهذا الاستخفاف كان مألوفاً عندما نكتب يومذاك وهذا المدح أيضاً كان مألوفاً، فالحـماسة كانت تدفع بنا الى كل الاتجاهات المتضادة. إلا أن ذلـك لا ينفي ما كـان لهؤلاء الفنانـين من أثر على جواد سليم وعلى فائق حسن، زميل جواد في ريادة الفن العـراقي الحديث، وسمعت جواد غير مرة يشيد بأعمالهم، وقد أورد في مذكراته لعام ١٩٤٤ قوله فيهم «جاء الى بغـداد في هذه الفترة المحدودة من الزمن أناس كثيرون واذا كانت أوروبا قد أوقفت حركة انتاجهم فـإن بغداد هيأتها للعمل وفتحت للفنان منهم عالماً جديداً من المرئيات تحت ظلال قبابها الفنية. ولم يكن هؤلاء طلاب «البوزار» في بـاريس أو «السليد سكـول» في لندن، بـل كانـوا ذوي أفكار جديدة ومن الذين يمزجـون في انتاجهم الفني عصـارة تأمـلاتهم ودراساتهم بـدنيا احسـاسهم وخيالهم. كان هؤلاء الأجـانب ذا اثر عـلى هذه الفئـة من الأشخاص. ولم يكن التـأثير مجـرد تبـادل مدارس جـديدة للفن. فقـد ارتبط هؤلاء مع بعضهم بميـل فطري واحـد هـو انسـاني محض، حب الحيـاة والكفاح في سبيـل النظام الـطبيعي، حب الحياة والأشيـاء البسيـطة التي تنسينا الموت»، وإذا كان صحيحاً أن أيًّا من هؤلاء الفنانين الاجانب لم يـورث جواد شيئـاً في أسلوبه فمن الصحيح ايضاً انهم كانوا يتساءلون معه، وبكثير من الجدية: ماذا نرسم؟! ولماذا نرسم؟!

وفي عام ١٩٤٦، يغادرنـا جواد سليم الى لنـدن ليتم دراسته في «السليـد سكول»، ويبقى من رسائله التي كانت متقطعة بـالنسبة لنـا ومستمرة بـالنسبة لـوالدتـه ولنزار، أن تحمـل إلينا الكثير من أخباره ومسعاه في البحث عن الجديد، جديده هو، والـذي لا يريـده مستورداً من أحد ولا مستلفاً من أحد. ويعود إلينا بعد ثـلاث سنوات، ليقـوم لنا منـه أستاذ فـذ، فجواد الذي عاد من لندن ليس هو نفسه الذي عاد من روما، كـان نضوجـه كبيراً جـداً وكان قلقـه مرهقاً، وكان مسعاه الى البحث في التراث مهماً، وتحديث هذا التراث.

وتتـواصل اجتـماعاتنـا، ويتواصـل الجدل القـديم بلغة أكـثر عمقاً، ويعلمني كيف أسمـع الموسيقى الغربية، ويسألني عما إذا كان بامكاني أن أوظف بعض القيم التشكيليـة في شعري، وإحاول معه ويحاول معي. كنا نخرج سوية الى الشوارع والمقاهي وبعض المحلات الأخرى. ثم نعود وبين يدي مداخل لقصيدة وبين يده مجموعة من التخطيطات، وما أن يراها «ديزموند ستيـورت» حتى يقوم بـترجمة أربـع قصائـد لي ويبعث بها مـع تخطيـطات جواد سليم الى مجلة «نيـورايتنك» الأمـريكية. وتتسـع اللقاءات عنـده لتشمل عـدداً كبيراً من المثقفـين، فـرفعت الجادرجي قد عاد لبغداد وجبرا إبراهيم جـبرا صار من بعض أهـل بغداد، وقحـطان المدفعي رجع محملاً بكمية كبيرة من الاسـطوانات التي سجلت عليهـا قصائـد لإليوت واديث سيتـول وغيرهما، وصرنا نجتمع عنده كل أسبوع أنا وبدر السياب، ورجع قحطان عوني، وكان جواد

سليم يكن احتراماً كبيراً لرفعت الجادرجي، لأنه يرى فيها بينهما شبهاً كبيراً وهو أنهما يحملان قلقاً لا ينتهي وعدم رضا لا ينتهي، ثم تخفت اللقاءات بعد أن أصبح كل منا رب عائلة، وأصبحنا نعي الوقت برؤية أخرى، فإن التقينا، عاد الجدل وعاد الحوار، وكثيراً كان يدور في السياسة وضرورة توظيف الفن توظيفاً سياسياً، ولم يكن يختلف عن الآخرين في رأيه ولكنه كان يحس بخوف من أن يطغى العمل السياسي على العمل الفني فنخلق بذلك تياراً مشوهاً قد لا يعود بإمكاننا معه كبح جماحه.

وينشغل جواد بعد عودته من إنجلترا بالفن الإسلامي الذي نبهه إليه معرض أقيم في باريس لرسوم يحيى بن محمود الواسطي لمقامات الحريري، وبحساسية شعرية مرهفة يستعيد بها كل ما تميز به الفن الاسلامي الذي تمثله مدرسة بغداد للتصوير في القرن الثالث عشر، وما خرجت به على الفنون الجنائزية القديمة، ومن خلال رؤية جديدة لا تلزم نفسها بالسرد القصصي الذي جاء في لوحات الواسطي، إذ انصب همه على استلهام الأجواء الشعبية البغدادية وضمن العديد من الدلالات المحلية في الأدوات المستخدمة والسجاجيد، وبتركيز على البؤر الحساسة في اللوحة، وبما يوسع المجال للفراغات البيض لتلعب دوراً فعالاً مع انسيابات خطوطه الرشيقة وبقع ألوانه التي تتحاور معها.

وفي العام ١٩٥٩ يتصل بي تليفونياً ليحدثني في أمر مهم ومهم جداً، ويطلب مني أن أمر به، اليوم إن أمكن. وكانت على طاولته تخطيطات عديدة، ناولني إياها وأمعنت فيها النظر طويلاً، وبدت وكأنها تجميع لاشكال مختلفة لا يبدو ان ثمة رابطاً يقوم بينها، ورفعت نظري إليه متسائلاً، فضحك ضحكة مدوية وهو يقول:

«لقد اتصل بي رفعت الجادرجي وطلب مني أن أعمل نصباً للحرية على لافتة طولها خمسون متراً».

«خمسون متراً ـ قلت متعجباً ـ ومن الذي سيصمم هذه اللافتة؟!».

«قال: «إنه رفعت الجادرجي» وأقترح أيضاً أن تحوي أشكالاً تعبر عن مراحل متعددة من تاريخ العراق. هجمت عليه مقبلاً إياه». هذا عمل رائع يا جواد، رائع جداً. انها قراءة في لوحة. كان الزمن ينقص لوحة «الجورنيكا» لبيكاسو، أما هنا فللزمن حضور مهم. وبعد قليل دخل علينا جبرا ابراهيم جبرا، وبدا لي أنه كان قد تحدث معه جواد قبلي، لأنه أضاف الى تعليقي: «بل انها قراءة من اليمين الى اليسار كما هي القراءة العربية. هكذا كنا هكذا صرنا هكذا سنصير». فرد جواد عليه: «لقد استوحيت ذلك من الأختام الآشورية».

وتعددت سفراته الى فلورنسا للإشراف على تهيئة صب الاشكال البرونزية، ورأيت واحدة منها تتوسط الجدارية الضخمة، كان الناس يسمونها «العكركة» أي الضفدعة، ويضحكون وسألني ذات يوم: «هل صحيح انهم يضحكون منها؟» فأجبته «عندما تكون لوحدها توحي يا جواد بالضحك. كنت أتمنى لو توضع التخطيطات كاملة حيث يتوضح الأمر لعامة الناس

وكلما تنجز قطعة تأخذ محلها. . أجاب: هذا صحيح ولكني لا أعتقد أنهم سيضحكون عليها في المستقبل.

مـات جواد ولم يـر جهده الـرائع في «نصب الحـرية» وقـد تحقق في أكبر نصب تـاريخي في العـراق، بل في واحـد من النصب المهمة في العـالم. . وفي تلك الجلسة أذن لي أن أستخـدم لوحة زيتية كغلاف لديواني الذي صدر عام ١٩٦١ تحت عنوان «جئتم مع الفجر».

وتعب القلب. . القلب الـذي أحب كثيراً من الأشيـاء. القلب الـذي أتعبـه الخـوف من الموت واتعبه القلق من أن يموت ولم يحقق شيئاً من طمـوحه. ولكن جـواد الذي مـات لم يمت ما زال حياً بأعماله الفنية الرائعة، وما زال حياً بأثره على مريديه، وما زال حياً بمحبة أصدقـائه له.

١٩٨٩/٦/٢٠

بغداد بين مقاهي الأدباء
وأدباء المقاهي

لم يكن ثمة شيء يلفت نظر الوافدين إلى بغداد في الأربعينات، ويثير عجبهم وإعجابهم كمنظر المقاهي المنتشرة في كل شوارع بغداد وأزقتها، وكمنظر أسواقها كسوق الشورجة الخاصة ببيع التوابل ومؤونة البيت، وسوق الصفارين حيث تصنع الأواني النحاسية، وسوق «السراي» التي تمتد على جانبيها دكاكين بائعي الكُتب القديمة منها والحديثة، والتي تمد بنفسها إلى أسواق أخرى.

وقد وعيت أثر المقهى في حياتي وأنا في سن مبكرة، إذ كنت أهرب إليه من المدرسة مع بعض زملائي في الدراسة المتوسطة. وكان مقهانا المفضل آنذاك هو مقهى «البلدية» ويأتي من كونه المقهى الوحيد الذي كنا نستمع فيه إلى أغاني أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، وكل زبائنه كانوا على مثل هوانا. في حبهم لهذه الأغاني، ولقد تسللت صور المقاهي وأجواؤها وأغانيها إلى غير قصيدة من قصائدنا ومنها قصيدة بدر شاكر السياب «أغنية قديمة»، حيث يقول في مطلعها:

في المقهى المزدحم النائي.. في ذات مساء
وعيوني تنظر في تعب
في الأوجه والأيدي والأرجل واللهب
والساعة تهزأ بالصخب
وتدق.. سمعت ظلال غناء
أشباح غناء
تتنهد في الحاكي وتدور كإعصار
بالٍ، مصدورْ

يتنفس في كهف هارٍ

في الظلمة منذ عصور

وإذا ما استثنينا هذا المقهى بمرمى من تلك الخصوصية، واستثنينا معه مقهى قريباً منه هو مقهى «الدفاع» المقابل لوزارة الدفاع حيث كنا نؤمه من حين لآخر لنلعب الشطرنج فيه، أو لنتحلق حول لاعبي الشطرنج المعروفين الذين كانوا من رواده الدائمين، أقول إذا استثنينا هذين المقهيين، يمكننا أن نصنف مقاهي بغداد إلى صنفين مختلفين لحد ما هما مقاهي «الطرف» أو «المحلة»، ومقاهي الشوارع الرئيسية، وتتوزع مقاهي الصنف الأول منهما النواحي المحيطة بمركز العاصمة، وحيث تتقاسم مساحاتها المفتوحة منها والمسقوفة، مصاطب خشبية ـ تخت ـ وطاولات مستطيلة ومربعة، تتوسط ما بين تلك المصاطب ولا يتجاوز ضلع أي منها المتر الواحد، ويقتصر جمهورها عادة على أبناء المنطقة وجلهم من الطبقات المتوسطة أو دونها، فبيوت مثل هذه الطبقات لم تكن لتوسع أبوابها لغير الأقارب والأصدقاء الحميمين جداً، وضمن زيارات عائلية أما اللقاءات الأخرى فليس لها غير المقاهي، وحيث تمتد فيها الجلسات إلى ساعات متأخرة من الليل. وقد اختلطت أصوات «النرد» و«الدومينه» بأصوات المعلقين على لعب اللاعبين وبقهقهات الضاحكين وصخبهم، وبأصوات ملاعق الشاي في الفناجين وأحياناً بصراغ المتشاجرين والذين سرعان ما يلتف الجالسون حولهم لحل النزاع، الذي يكون عادة قد بدأ من ملاحظة عابرة حول خطأ في لعب النرد أو الدومينه، أو بأثر من طرفة قال بها أحدهم فحملها الآخر على غير محملها، أو بسبب من تعصب أحدهم للنازيين أو للإنجليز، حتى إذا ما نجحت الوساطة عاد الصفو إليهم وتعانقوا، واستمروا في الذي كانوا فيه.

ولا تشذ عن هذه الخصوصية غير بعض مقاهي «الطرف»، إما بسبب من أنها صارت المقر المعروف لهذه الشخصية الأدبية أو تلك الشخصية الرياضية أو لغيرهما من أهل الفن. أو لأنها جاورت مؤسسة معينة فلزمها العاملون فيها، أو لأنها أصبحت ملتقى لنخبة من الأدباء الشبان الذين لمعت أسماؤهم في أواسط الأربعينات، وحيث يكون لهم أن يتحلقوا كل مساء حول إحدى تلك الطاولات الخشبية الصغيرة ليواصلوا نقاشاتهم بشأن ما قرأوا فيه وما كتبوا عنه وما وقع إليهم من أنباء فنية وأدبية عن جديد ما يحدث في أوروبا وما ينز من بين ركام الحرب العالمية الثانية فيها.

ومن تلك المقاهي ، مقهى صيفي يقع على مقربة من الجسر الخشبي القديم الذي يشد ما بين منطقة «الأعظمية» ومنطقة «الكاظمية» وقد تعودنا أن نرى الشاعر العراقي الكبير «معروف الرصافي» يقطعه مشياً على قدميه، من الأعظمية إلى الكاظمية، ليأخذ فيه مقعده الذي سرعان ما يلتف حوله عدد من أصدقائه وبعض من أساتذة الأدب وعدد من الشعراء والأدباء الشبان، الحاملين إليه بعض نتاجهم على أمل أن يحظوا بكلمة منه فيها، ولم يكن أمر ذلك يسيراً، فمحدثوه كثر وأهميتهم أكبر من أهمية هؤلاء الشبان وما لديهم كثير، وهيبة الرصافي الجدية، وطبيعة جلسته وانتشار عباءته واستقرار كوفيته وعقاله على رأسه وضخامة

صوته، ليس من اليسير اختراقهـا بالنسبـة لهؤلاء الشبان، وقـد يحدث أن يتجـرأ واحد منهم فيمد بيد مرتجفة قصيدته إليه وهو يهمس متلعثماً وراجياً أن يقـول رأيه فيهـا، فيأخـذها منـه بتثـاقل ثم يلقي بنـظرة عجلى عليهـا ثم يعيـدهـا إلى صـاحبهـا من دون أي تعليق، فيكتفي الشاعر الصغير المسكين بسكوته تعليقاً عليها، ويردها إلى جيبه خجلاً ويغادر المقهى.

ولم تدم لقاءاتنا به في هذا المقهى إلّا لفترةٍ قصـيرة من الزمن، فقـد اعتلت صحته كثيـراً، وانقطع عنه وعنا، ثم كان أن غاب عنا في منتصف الشهـر الرابـع من عام ١٩٤٥، فـانطفأ وهج المقهى بانطفاء جذوة حياته، وعادت ككل مقاهي «الطرف» ملتقى لأبناء الحي.

ومن نماذج هذا الصنف من المقاهي مقهى كان يجاور كلية «دار المعلمـين العاليـة» ولم يكن آنذاك في بغداد غير ثلاث كليـات هي كلية الـطب، وكلية الحقـوق، وهذه الكليـة التي تعوّد طـلابها أن يمـلأوا مقاعـد المقهى، ضمن حلقات صغـيرة ولـيراجعـوا دروسهم فيهـا، وعـلى الأخص في أيام الامتحانات، وهو بهذه الخصوصية تمايز بكونه مقهى هادئاً وعلى من يؤمه من غـير الطلاب أن يـراعي هذه الخصـوصية، وكـان رواده من الطلبـة يتناقلون فيـما بينهم وبين أصـدقائهم الكثـير من النكات والنـوادر التي كـانت تـروى عن صـاحب المقهى «......» وتختلف آراء الـطلبة بشـأنه فمنهم من يحسبـه رجلاً ملتـاث العقـل، ومنهم من يعتـبره رجـلاً حصيفاً أدرك سر المهنة فجعل من نوادره سبيلاً لرواج سمعة مقهاه لأنـه في غير هـذه النكات والنوادر دقيق في آرائه وأحكامه وعـلى كثير من الـطيبة والأريحيـة، ومن درس علم النفس من هؤلاء الـطلاب ذهب في تحليله لشخصيته إلى أنـه مصاب بعقـدة النقص التي أفـرزت عقـدة العظمة عنده، وقد سعيت مرتين إليه بصحبة واحد من الطلبة فما حظيت بلقائـه، ومع ذلـك فقد أعاد عليّ من صحبته ومن موقع المشـاهدة بعض تلك النـوادر، فلكل شيء في المقهى سر عظيم، فهذا الكلب الأجرب القابع عند باب المقهى والذي لا يقوى على الـوقوف هـو سبب الحرب العالمية الثانية، ذلك لأن صاحب المقهى كان قد قدمه هدية، وهو مـرغم، إلى السفير الألماني وعندما سمع بذلك السفير البريطاني غضب غضباً شديداً عليه لأنه سبق لـه أن سألـه أن يهـديه إيـاه فبخل بـه عليه. ولم يشفـع له اعتـذاره للسفير الـبريطاني الـذي أصرّ عـلى أن يستعيده، فما كـان منه إلّا أن استـرده من السفير الألمـاني، فكان أن اتصـل كل منهـما بدولتـه وتأزمت العلاقات بين الدولتين، وهكذا نشبت الحرب ولكن الكلب الأجـرب لا يزال يـرابط عند باب المقهى.. ومن تلك النـوادر أن الطلبـة شاهـدوا صاحب المقهى ذات يـوم من أيام الصيف القـائظة يـدخـل المقهى راكضـاً وهـو يلهث ويتصبب عـرقـاً، فبـادروه بـالسؤال عن السبب، فقال: آه لو تدرون ماذا حدث.. لقد كـاد فريق الكـرة العراقي أن يخسر لـولا أنه أسرع والتحق به فأنقـذه من الخسارة، وقـد ضرب الآن الكرة عـالياً ـ أي نجمهـا كما يقـول العراقيون ـ وجاء مسرعاً ليأخذ ـ استكانا ـ من الشـاي ريثما تهبط الكـرة، ثم يتركهم راكضـاً أيضـاً بعد أن أخـذ رشفتين من الشـاي ليعود إلى الملعب قبـل هبـوط الكـرة.. وفي البـاحـة المفتوحة من المقهى ثمـة شجرة عجفـاء ما يكـاد صاحب المقهى يـرى وجهاً غـريباً يلج بـاب مقهاه حتى ينادي بأعلى صوته على صبي المقهى ليسقي الشجرة ابريقاً آخـر من الشاي، فهي تكـره الماء وتحب الشـاي، ثم يلتفت إلى صبي المقهى ليطلب شهـادته عـلى صحة مـا يقـول

والويل له إن سكت أو لم يجد له مدخلاً لقصة جديدة: قل لهم.. قل لهم من أين جئت بهذه الشجرة يا عم إبراهيم.. فيرد عليه متعالياً: الكل يعرفون.. كلهم يعرفون ذلك.. لقد قلعتها من حديقة نوري باشا بسحبة واحدة من يدي ولم ينقطع أي جذر من جذورها.. ولكومة الحديد المرمية إلى جانب المقهى، قصة أيضاً فقد كان القطار يمر يومياً مرتين بمحاذاة المقهى وعز على صاحبنا أن يزعج القطار بصوت عجلاته وصفيره أعزاءه الطلاب فكان أن طلب من سائق القطار أن يغير طريقه، فما امتثل لطلبه، ثم كتب لنوري باشا ـ ويقصد نوري السعيد رئيس الوزراء ـ ناصحاً إياه بأن يأمر بتغيير طريق القطار فلم ينتصح هو الآخر أيضاً. فما كان منه إلّا أن خرج لمواجهته حتى إذا ما دنا القطار منه عاجله بركلة قوية من رجله جعلت كل قاطراته تتهشم ويدخل بعضها ببعض، وهذه الكومة من الحديد الصدىء «المزنجر» هي كل بقاياه وإذا حدث لواحد من الطلاب أن ضحك وكان في المقهى رجل غريب، امتعض وقام لينادي بأعلى صوته على صبي المقهى ليسقي الشجرة ابريقاً آخر من الشاي، وإن لم يضحكوا لما يرويه عليهم وهم لوحدهم معه غضب عليهم لأنهم ما عادوا يستلطفون حكاياته، أما أن يعلن أي واحد منهم بأنه لا يصدق بطولاته الخارقة فتلك هي الطامة الكبرى، فسيظل لفترة طويلة غاضباً عليه ويأمر صبي المقهى بأن لا يقدم إليه أية خدمة إلى حين يتشفع له بعض الطلاب المقرّبين إليه، فيغفر له زلته.

وثمة مقاه، من جملة هذه المقاهي التي تقع في أطراف مدينة بغداد، ومن تلك مقهى البيروتي الذي يطل من جانب الكرخ على شاطىء «دجلة»، وجل رواده من رجالات المنطقة المعروفين، ولنخبة من الأدباء والشعراء مكانهم المرموق فيها حيث يتصدره توفيق الفكيكي ومحمد الهاشمي وشلة من النازعين إلى الأدب اقديم بمرمى في ذرابة اللسان وصناعة الكلام المنمق والآخذين أنفسهم بالنهج التقليدي في كتابة الشعر، وممن لا يرون في الذي كنا نكتبه ونقوله غير فتنة وافدة من الغرب لتقويض التراث العربي، فما أن يطأ واحد منا باب المقهى حتى تتوجه إليه نظراتهم الشزرة وكأننا دنسنا بأقدامنا مقهاهم، ولذلك آثرنا وبعد عدة زيارات لهذا المقهى أن نبحث عن غيره خاصة وأنه يبعد بعداً شاسعاً عن أماكن سكنانا، فكان لنا أن اخترنا مقهى «الكسرة» الواقع ما بين باب المعظم والأعظمية، ملتقى لنا، نؤمه كل مساء لنتحدث عن تطلعاتنا الأدبية، وعما قرأنا من جديد جان بول سارتر وإليوت وكامو وإديث سيتول وما سمعنا من أخبار عن المدارس الفنية الأوروبية، وكان من بين من يضمهم مجلسنا الشاعران حسين مردان ورشيد ياسين والفنانان نزار سليم وخالد الرحال، وفي كل مساء يضاف اسم جديد إلى قائمتنا، ومنهم بدر شاكر السيّاب الذي صحبني إليه غير مرة، إلّا أنه لم يأنس طويلاً بسبب من وجود حسين مردان وخالد الرحال واللذين ما أن يلتقيا حتى يعلو ضجيجهما على كل أحاديث الأدب والشعر، بينما كنا نرى في شجارهما ونكاتهما ما يطري الجلسة.. ثم كان لنا مقهانا الخاص بنا هو مقهى «واق واق» الذي عُرف عنه أنه «ملتقى الشعراء والأدباء والعشاق».

يقول عدنان رؤوف، وهو واحد من أدباء جيلنا النابهين: كنا معاً نذرع شوارع بغداد من مقهى النعمان في الأعظمية إلى مقهى الدفاع حتى مقاهي شارع أبي نواس، مروراً بحلويات

الـدار البيضاء بـالمقهى السويسري والمقهى الـبرازيلي في شـارع الرشيـد، ولقد تحـررت أكـثر صفحات مجلتي ـ الفكر الحـديث ـ والوقت الضـائع ـ في ذينك المقهيين وفي المطابع أكـثر مما تحررت في المكاتب والبيوت.

وإذا ما خرجنا عن مقهى «النعمان» في الأعظمية، بصفته من بعض مقاهي «الطرف» وقعنا إلى مقاهي شارع الرشيد ومقـاهي شارع أبي نـواس، ولكل من هـذه المقاهي مـا يميزهـا عن مقاهي «الطرف» وهي بـذلك تشكـل الصنف الآخر من المقـاهي ويأثـر من ذينك الشـارعين وخصوصيتهما، فشارع الرشيد هو العمود الفقري لمـدينة بغـداد، وفيه تلتئم عيـادات الأطباء والصيدليات الكبيرة، وفيه تتوزع الفنادق بأنواعها المتباينة، وفيه أيضـاً المخازن الأنيقـة، ومنه تتفرع الشوارع إلى سوق السراي وسوق الصفافير وسوق الشورجة، ولذلك فإن رواد مقـاهي شارع الرشيد هم في الغالب من عابري السبيـل وإن كان لا يخلو أي مقهى من زاويـة تجتمع إليها نخب من الأدباء، أما شارع أبي نواس الذي يسـير بمحاذاة نهر الـدجلة، فمقاهيـه معدة لاستقبال المتسكعين كل مساء عـلى شاطىء النهـر والطامحـين إلى أكلة سمك مسقـوف، وكل منهم عـلى كثير أمـل أن يحـظى بمجلس يـدنيـه من شـاطئ النهـر المنسـاب بكثـير من البطء والتثـاقل، ولم يكن غـير مقهى واحد يختلف عن البـاقيات بـطاولتي البليارد اللتـين فيه، وقـد لازمته لفترة من الزمن ضمن شلة من الأصدقـاء كان منهم الشـاعران حسـين مردان وكـاظم جواد والفنان شاكر حسن، وقد يختلف إليها من آن لآن أصـدقاء آخـرون وبشكل طـارىء، فنـوسع الجلسـة إلى ما بعـد منتصف الليل حتى إذا مـا باشر عـمال المقهى بغسل أرضيتـه ولم الكراسي انصرفنا عنه لنتسكع في الشارع، وذات مرة سهرنا على إحدى مسطبات أبي نواس، أنا وصديق آخـر لنا وحسـين مردان إلى الفجـر لنتمتع بشروق الشمس عـلى دجلة، وعندمـا اشرقت كنا جميعاً نائمين بعد أن استأثر كل منا بواحدة من تلك المصاطب، ولم يكن أمر ذلك غريباً عليّ أو على حسين مردان، فقد افترشناها غـير مرة وكلما أعـوزتنا الحـاجة إليهـا بعد أن نكون قد عجزنا عن توفير أجرة الفندق الزهيدة جداً.

وتبقى لنـا من مقاهي شـارع الرشيـد مـرامي خـطانـا اليـوميـة، فـإن رغبت في أن أنفـرد بالسيّاب، انتبذنا لنا مقعدين في مقهى يجاور المكتبة العامة في باب المعظم ليقرأ لي من جديده وأقرأ له من جديدي ونتبادل الآراء بشأنها أو بشأن ما وقعنا إليه من جـديد زمـلائنا في تجـربة الحداثة، وإن أخذت حسين مردان حماسته للمشاكسة دلفنا إلى مقهى الزهاوي للالتقاء بشاعر تقليدي كنا ندعوه بشاعر المصـايف لتأليفـه ديوانـاً بقرابـة ثمانمـائة صفحـة في وصف المصايف العراقية، وكلها من الشعر التقليدي الرديء، وما أن يرانا قادمين إلى حيث هو جالس يبادرنا بهز عصاه الغليظة لنبتعد عن مكان جلوسه فإن لم نمتثل له نالتنا ضربة مؤلمـة على كتف واحـد منا، ولذنا بالهرب من غضب الرجل المُسن وسبابه وخشية من ضربة ثانية أكثر إيلاماً.

وعلى مسافة قريبة من مقهى «الزهاوي» ثمة مقهى آخـر هو مقهى «حسن عجمي»، كـان يرتاده أحياناً الشاعر الكبير محمد مهـدي الجواهـري، وكنا نـأنس بلقائـه، وبحديثـه الشيق، ونكبره شاعراً وسياسياً وثائراً، وكان إلى جـانب ذلك صـاحب نكتة لاذعـة لا يرويهـا إلّا وقد

حمّلها معاني طالت هذا الذي إلى جانبه أو آخر السياسيين أو المتنفعين والمتملقين، وهو معنا على مزاجين، مزاج المدافع عنا حيناً في أننا نحاول شيئاً، ومزاج من يرى في بعض ما نكتبه تطرفاً لا معنى له وتكلفاً للجدة لا جدوى منه، ولكنه يظل، في غير هذا المزاج أو ذاك، معنا في نزوعنا التجديدي العارم على مختلف توجهاته، فالجواهري الفذ كان دائماً من المبشرين بالفجر الجديد وكان دائماً من بعض المكتوين بآتونه.. وثمة شعراء آخرون ممن ينظمون الشعر على النمط القديم يتحلقون حوله أو يتخذون مواقع على مقربة منه، وفي العادة أن يتوسطهم الكاتب والصحافي عبد القادر البراك مع نرجيلته التي لا تفارقه فهي كما يسميها عشيقته الأزلية.

وكان مقهى «الرشيد» سيد مقاهي شارع الرشيد ففيه يلتقي الكثيرون من رجال الفكر والأدب والسياسة، وممن يؤثرونه على غيره بأثر من مكانة رواده وحسن فرشه إذ أن كل مصاطبه مفروشة بالسجاد الملون مما يوحي بوثرتها وبالدفء في أيام الشتاء، وأترك للأستاذ اللغوي إبراهيم الوائلي وصف هذا المقهى الذي كان واحداً من رواده ومنذ بداية افتتاحه في عام ١٩٤٠. يقول الوائلي: «نحن في أوائل العقد السادس من هذا القرن والمقهى ما زال مزدحماً بالمرتادين والحاج حسين - صاحب المقهى - يجلس إلى صندوقه عند الباب، والكهل الطيب «وهل» يفترش الرصيف قرب باب المقهى وقد نشر الصحف والمجلات وهو في كل صباح ومساء يطوف داخل المقهى ويوزع الصحف على الراغبين في قراءتها ويأخذ من كل واحد اجراً لا يتجاوز عشرة فلوس.

انتقل بعضهم إلى مقاه أخر وبقي رواد الشطرنج والنرد والنرجيلة وأصدقاء ما زالوا يترددون صيفاً أو يستدفئون شتاءً في أوقات الراحة ومنهم خاشع الراوي وفؤاد عباس والمحامي محمد نجيب الجبوري وعبد القادر رشيد الناصري وهؤلاء الأدباء والشعراء ودعوا الدنيا إلى ظلام القبور.

والشاعر بلند الحيدري يُسلّم ويجلس وهو يمزج الضحكة الخفيفة بالانفعال والتذمر من فراغ الجيب ولكنه لا ينسى الحديث في الشعر واللغة ولعله كان يوافقني في الرأي.. أن الشاعر بلا لغة كالجندي بلا سلاح، وكثيراً ما يدخل الشاب النحيل بدر شاكر السيّاب وهو يتهادى في مشيته ويتأبط كتاباً فيجلس ويشارك في الحديث.. وفي مقعد قريب يجلس الشاعر حسين مردان والسيجارة لا تفارق شفتيه وأحاديثه في «الشعر والنقد» ويضيف في حديث ذكرياته الذي نشرته له جريدة «الثورة» العراقية في الخامس من شهر شباط ١٩٨٧، قوله «في نهاية المطاف مررت مجتازاً بباب المقهى فإذا شخص يسرع إلى الخارج ويدعوني إلى الجلوس، إنه الصديق الراحل المحامي محمود العبطة فلم يكن بد من الاستجابة لدعوته، ولقد كانت الزيارة هي زيارة الوداع للصديق العبطة وللمقهى الذي كان يصارع القدر في ساعة احتضاره.. لقد انتهى بانتهاء مقهى الرشيد نادٍ من أضخم النوادي الأدبية في بغداد».

ويصير للحداثة أيضاً مقاهيها، فهاهما مقهيان جديدان يتوجان مقاهي شارع الرشيد بشكلها الفرنسي، ويخرجان بنا من تلك المقاهي التقليدية ومن أجواء النرد والدومينو

والنراجيل والمصاطب الخشبية والموسيقى والأغاني العربية إلى حيث الكراسي الوثيرة والموسيقى الكلاسيكية الغربية ومجالسة الفتيات، وإن كنا لم تنقطع كلياً عن مقهى الرشيد خاصة، كان اسم الأول منها «المقهى السويسري» والثاني «المقهى البرازيلي» ومن رواده القاص عبد الملك نوري. وكان أحدهما يجاور الآخر، وقد صار «المقهى السويسري» ملتقانا المفضل والذي أعطيناه الكثير من خصوصيتنا، فالموسيقى الكلاسيكية تستوجب حسن الإصغاء وعلى الأحاديث أن تدور بخفوت كلي وعلينا أن نبحث من خلال هذه اللقاءات عن أنفسنا في الجديد الذي يفردنا بما نتمايز به.

يقول شاكر حسن آل سعيد في كتابه «فصول عن الحركة التشكيلية في العراق» الذي صدر مؤخراً «. . وقد صادف في نفس الفترة، أي عام ١٩٤٥ اتفاق جماعة من الأصدقاء جلهم من شباب الفنانين والأدباء على تأليف رابطة تجمعهم سمّوها جماعة ـ الوقت الضائع ـ وهؤلاء الشباب هم: بلند الحيدري، نزار سليم، سلمان محمود حلمي وحسين هداوي وإبراهيم اليتيم، ثم انضم إليهم عدنان رؤوف وحسين مردان وإبراهيم أبو الفتوح وكان هذا الأخير مدرساً مصرياً انتدب للتدريس في إحدى كليات بغداد وكذلك فؤاد رضا وأكرم الوتري. . اتخذت جماعة الوقت الضائع أول الأمر مقهى «كافيه سويس» في شارع الرشيد مقراً لها، للقاء والنقاش وقضاء الوقت. . وقد استطاعت ان تنشر عدة مطبوعات مثل ديوان خفقة الطين للشاعر بلند الحيدري عام ١٩٤٦ ومجموعة أقاصيص بعنوان ـ أشياء تافهة ـ لنزار سليم كما أصدروا نشرة بنفس اسم الجماعة ظهر منها عددان».

ومن خلال تلك النقاشات الطويلة ومن خلال ما كنا نسمع من أهالينا بأن الفن والأدب مضيعتان للوقت ومن خلال سماع أحدنا برواية مارسيل بروست «البحث عن الوقت الضائع» وحماسة بعضنا الأخاذة ولدت فكرة إصدار نشرة باسم «الوقت الضائع»، لنقول فيها كل ما هو غير مألوف في الصحافة العراقية آنذاك، ولنعلن عن سعر لها غير مقبول نهائياً. أي أن نبيعها بخمسين فلساً وهو ثمن باهظ لنشرة بثماني صفحات، وضمن مدارس الطلبة الثانويين وأروقة الكليات رحنا نوزع العدد الأول، وسرعان ما عمّ لها صدى واسع حفزنا لإصدار العدد الثاني، وأحسسنا بكبر تحدينا كلما وقعت أعيننا على كتابة طبشورية في هذا الحائط أو ذاك تندد، بنا وتشوه مقاصدنا وتدعو الناس لمقاطعة «الوقت الضائع» «فإضاعة للوقت قراءة الوقت الضائع»، وصعب على هؤلاء الشبان أن يوفروا المال اللازم للاستمرار بها فانقطعت عن الصدور. . كان نزار سليم يقوم بتصميمها وحفر كلائشها، وحسين هداوي يكتب لها ويترجم بالاشتراك مع سلمان محمود حلمي وإبراهيم أبو الفتوح، وكتبنا رسائلنا لغير واحد من أدباء العالم فلم يلب دعوتنا إلاّ الكاتب الأمريكي وليم ساروريان الذي بعث لنا بأقصوصة صغيرة بعنوان «مهزلة أن تموت ولا تدفن إذ لا يزال بإمكانك أن تسير»، ويكتب لنا الرسام البريطاني «كنث وود» عن انطباعاته الفنية عن بغداد ويكتب لنا سعيد علي مظلوم عن السيمفونية الحزينة لتشايكوفسكي ويكتب لنا جواد سليم مقالاً في الفن يبعث به صحبة رسالة من لندن يندّد «بالشعر والسعر» ويكتب إبراهيم اليتيم عن رجل «وضع قدميه في جيبه وسار»، وكنا نراجع كل ما يبعث إلينا في «المقهى السويسري»، ثم أتكفل بأن أحمل ما

اعتمدنا نشره إلى مطبعة الزمان، وتصحيح مسوداته. . كل ذلك كان يجري بكثير من الجدية والدأب ونحن نحلم بأن يتعقبنا المجد الرفيع في كل مكان من بغداد، وقد تحدث في بعض الأحيان طرائف نظل نتندر بها من آن لآخر، ومن تلك أن شاعراً معروفاً بشاعريته التقليدية زارنا مرة ليلتقي بحسين مردان الذي سرعان ما انزوى به في إحدى زوايا مقهانا ولم يدم لقاؤهما إلّا لدقائق معدودة، ثم عاد إلينا حسين وهو يضحك ويقول لقد: «دبرنا فلوس اليوم»، ونسأله عن الخبر العظيم فنعلم بأن الصديق الشاعرشكا لحسين سوء وضعه المالي وأنه بحاجة ماسة لمن يقرضه أي مبلغ من المال ومهما كان صغيراً أو كبيراً ويطلب إليه أن يستدينه من أي واحد منا فيرد حسين عليه باستحالة ذلك فالجماعة أشد افلاساً منه ولكنه مستعد لأن يبيع له اسم شخص كريم لن يرده خائباً مطلقاً إذا تكفل بأن يعطيه عشرة بالمئة مما سيأخذه منه ويهمس في أذنه اسم رجل كريم جداً: فاذهب إليه وأطلب منه عشرة دنانير. . أجل عشرة دنانير وأنا سأنتظرك هنا. . لا تتأخر ولا تخجل. وبعد قرابة ساعة يعود الشاعر هاشاً باشاً ويعانق حسين مردان ويمد يده إليه بنصف دينار. إذ خجل أن يطلب من الرجل الكريم أكثر من خمسة دنانير، يتسلمه حسين مردان، بصمت، وكما لو أنه يقوم ليقضي حاجة، يدلف إلى الجهة الخلفية من المقهى ويتلفن للرجل الكريم سائلاً عن المبلغ الذي أعطاه لشاعرنا. . المبلغ عشرة دنانير، وما يكاد يغلق سماعة التليفون حتى يعود إليه، سابّاً، لاعناً: أنت كذاب. . دجال هات. . هات. . نصف دينار آخر، وبكثير من الخجل يعطيه ما يريد ويخرج بسرعة من المقهى.

ومرة أخرى نمد أيدينا إلى جيوبنا الخاوية، ويمد نزار سليم يده إلى صندوق جمعية «حماية الأطفال» حيث كان يعمل أميناً عليه، ليقترض منه مبلغاً من المال يسد ما عليه وبعض ما علينا لإقامة مقهى لنا، مقهى خاصاً بنا وسنتحكم نحن برواده، فقد سئمنا مقاهي الآخرين، ولعلها المرة الأولى في تاريخ العالم العربي يقوم فيها رهط من الأدباء بافتتاح مقهى، وعهدنا لطباخ كان يعمل في دارنا، للإشراف عليه وإعداد الطعام لمن يرغب في العشاء، فالمقهى مسائي، وجمعنا من بيوتنا بعض أثاثه، واشترينا البعض الآخر، ودفعنا مقدماً أجرة شهرين، وخط نزار لوحته، وعلقنا عدداً من الصور الفنية في أرجائه، ويقع المقهى قبالة «النادي الأولمبي»، أما الغرفة الكائنة في سطح المقهى فقد أفردت لحسين مردان، ولم تتسع الدنيا كلها لفرحه يوم أن أعلمناه بذلك، فلن يحار بعد اليوم في البحث عن مرقد في هذا المقهى أو ذاك أو تحت الجسر أو على مصاطب شارع أبي. . إنها غرفته وفيها سرير له وكرسي وطاولة، وسيستطيع أن يضع ديوانه المخطوط في ركن منها بدلاً من أن يحمله صباح مساء تحت إبطه وسيستطيع أن يخرج دون عصاه أيضاً، وسيكون لنا أن نجتمع فيها في آخر الليل كل ليلة لمراجعة حساب الأرباح والخسارة.

ولم يعمر المقهى أكثر مما عمّرت مجلة «الوقت الضائع» فثمة شبان من أهل اليسار وشبان من أهل اليمين وضعوه في موضع الشبهة والتهمة، وكيف لا. . والعراق آنذاك كان يغلي بالأحداث السياسية، بينما يجتمع في هذا المقهى كل من يبشر بالأفكار الأوروبية المستوردة، ولذلك قرروا التنديد به حيثما يكونون وأن بعضهم كان يمر بالمقهى بسيارات جيب مفتوحة

ليسبونا بأقذع أنواع السباب، ولم يتوان بعضهم الآخر عن رمينا بحصى صغيرة أو بقطع من الطماطة العفنة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد فترة وجيزة من تاريخ افتتاحه أخذت وجوه غير مألوفة تؤم المقهى، يدخلونه سوية ثم يتوزعون على عدد من أركانه، فأدركنا بسرعة بأنهم من رجال الشرطة والأمن وأنهم مكلفون بإعداد تقارير يومية عن نشاط المقهى وعن رواده وعن أحاديثهم، وكان أكثر ما يلفت نظرهم ورود الاسماء الأجنبية في أحاديثنا. سريالية ـ دادائية ـ تشايكوفسكي ـ بيكاسو ـ إليوت.. إلخ، وسعيت إلى أحد أقاربي ممن يعملون في دائرة الأمن العام لاستجلاء الوضع منه، فوعدني أن يرد عليّ بعد عدة أيام، ولم يمض غير يوم واحد حتى زارنا هو بنفسه في المقهى وأعلمنا بأن التقارير تقول بأنكم مجموعة خلايا يسارية وأنكم تتحدثون بكلمات تثير الريبة.. وأن لديكم غرفة في السطح تمارسون فيها أشياء مريبة ونصيحتي أن تغلقوه حالاً خشية أن يصار إلى توقيفكم جميعاً. قلنا له إن هذه اتهامات باطلة فاليساريون يتهموننا بالوجودية وبالعبث واليمينيون يتهموننا بهدم التراث والحكومة تتهمنا باليسار.. لن نغلق المقهى حتى لو تعرضنا للسجن.

وشاع الخبر بين رواد المقهى. فآمنوا السلامة وهكذا بدأ عددهم يقل يوماً بعد يوم، وفي الأسبوع الأخير من عمره كنا نجلس فيه نحن الأربعة أو الخمسة من أصحابه ومعنا ما يماثل عددنا من الشرطة السرية والذين كانوا يأكلون ويشربون «البوارد» على حسابنا.

ثم مات مقهانا ولم يقم له أي بديل إلى يومنا هذا.. يقول برنارد شو: إن الناس صنفان، المعقولون وهم الذين يحاولون دائماً أن ينسجموا مع الواقع المحيط بهم.. وغير المعقولين وهم الذين يريدون أن ينسجم الواقع معهم.. ويبدو أن المثقفين في الوطن العربي صار جلهم من الصنف الأول.. وربما أكثر مما يجب بحيث لم يعد لنا معهم كثير جدوى في تغيير أو تطوير.. أو حتى في حلم لتطوير أو تغيير.. كما كان لنا نحن أبناء شعر الأربعينات وفن الأربعينات ومعمار الأربعينات... فالذين لا ينسجمون مع الواقع هم الذين يطورون ويغيرون الواقع.

١٩٨٩/٧/١٨

في ذكرى
كمال جنبلاط

لا أدري إذا كـانت قد مـرت ذكراك أم لا . . ؟ ولم أعـد أدري في أيـة خـانـة من الأرقـام ستكون، فمنذ زمن بعيد لم نعد نولي اهتماماً بذكـرى امواتنـا، فلقد كـثروا لحد أتعبـوا أيامنـا واتعبوا ذاكراتنـا بزحمـة الأرقام والتـواريخ التي اختـزنتها، ولكني مـا أكاد أسمـع أي خبر عن لبنان، إلا وتمثلتك أمامي، بقامتك الفارعة ووجهك النحيل وضحكتك المميـزة وكأنـك كنت تضحك بالمقلوب، هذه الضحكة لم تضحكها في ذلك المساء.

فقد كان المساء يومـذاك على أشـد ما يكـون حلكة، وكـان دوي القنابـل، وكما هـو اليوم أيضاً، يمزق سماء بيروت المدلهمة بالغيوم السود، وكانت ثمة تجارب تجـري على صـواريخ من أنواع جديدة لم نكن قد خبرنا أزيزها من قبـل، وتخترق أحيـاءنا من آن لآخـر بزعيق رهيب، سرعان ما يمتزج بصراخ النسوة والأطفال ومكبرات الصـوت التي كانت تجـوب الشوارع عـلى سيارات، لتنصحنا باللجوء الى الطوابق السفلى من الأبنية، وتوصي بـالأخبار عن أيـة حرائق تقع في المنطقة . . وكان ينقلون إلينـا آخر تـطورات المعارك في جبهـات الجبل والفنـادق وآخر أخبار أنواع الأسلحة التي أمت ميادين القتال في بيروت.

في ذلك اليوم التقيناك صدفة، ورغم كل ذلك الجو المكفهر، لذّ لك أيها الصديق المعلم، أن تحدثنا عن أهمية دور الأديب والفنان في إيجاد الإنسان الفاضل الذي يحق للبشرية أن تعـتز بانتسابها إليه، وأسفت لأن بعض ادبائنا وفنانينا ظلوا يعيشون على سـطح عالمنـا ولا يرون في الثقافة غير حلبة للتفاخر في صالونات الأدب وقاعات المعارض. وإلا فأين هم الآن؟ . . لماذا لا يتحدثون عن كل ما يقع لنا؟ ولمـاذا تنصلوا فجأة عن بلد الإشعـاع الذي تشـدقوا ومـلأوا الدنيا بالتبشير بعبقرياته وأفذاذه؟

وضحكت، ولمحت ضحكتـك بسرعة كمن استفـاق على حـين غـرة عـلى كـذبـة كبـيرة، وهمست بما معناه: لو كان لدينا شعر كالذي تنادوا إليه وكان لنـا فن كالـذي ادعوه وكـان لهم جمهور من المثقفين كالذي ظنوه، ما كان ليحدث كل الذي حدث في هذا البلد.

ولم نكن معك في الذي قلته، أخذ عليك أحدهم يأسك وقنوطك. وقال آخر: إن المعلم «متوعك» اليوم، وزعم ثالث بأنك حملت أكثر مما يجب أن تتحمل من أعباء معارك لبنان، وغيرهم نالك بسوء ظنك بنا كأدباء وفنانين، ودافع عن الكلمة لأنها غلبت على أمرها فليس الوقت وقت شعر ولا رسم ولا ادب.

وكنت تسمع ولا تصغي، لأنك سبق أن حاورت نفسك في الذي نحاورك فيه، وكنت تعلم أن أسوأ ما نقع إليه هو حسن ظننا بكل ما يقال لنا، لأن الأدباء مثلوا دور المثقف في الواجهة دون ان تكون لهم قدرته على كشف الزيف وإبراز الحقائق. «كنتم رهطاً من أدباء تعاملتم طيلة حياتكم مع الكلمة الطيبة. . المفردة البراقة المملوءة بالشعر والحياة، ولكن ثمة كلاماً بدا على مثل طيبة كلامكم، كان حصان طروادة الذي لم يكن مخبره كمظهره من البراعة. انها الكلمة التي تقتلنا اليوم بما هو اكثر إيلاماً من كل هذه المأساة التي نراها الآن. إنها تخدعنا عن أنفسنا وتضلنا عن اهدافنا وتنصب لنا الشراك. إن مهمتكم ان تفضحوا زيف مثل هذا الكلام بأدبكم وفنكم».

ولأننا عرفنا تلك المفردة التي كانت تتشكل «طوائف»، سكتنا للحظة، ثم تشعبت مخاوض القول واختلطت الأصوات وأخذت بعضنا الحماسة فتهدجت أصواتهم بالعديد من المقترحات. بينما بقي آخرون صامتين وكأنهم ينتظرون غير هذا الزمن المتشنج ليتسنى لهم أن يكتبوا اثارهم المتميزة بعطاء أدبي يستحق الحياة، فالأدب يحتاج الى زمن، يحتاج الى نضج، يحتاج الى معاناة ومكابدة قبل أن يصير قصيدة جديرة بالحياة أو قصة. وقرأ واحد منا شعراً لم يظهر على أي منا ما يدل على أنه فهم شيئاً منه. . ومع ذلك علق شخص الى جانبه: إنه خير من الصمت الذي هو تواطؤ مع الجريمة.

وعندما استودعناك، كان دفء يدك عالقاً بأيدينا وكأنه كان يحفزنا على أن نقول شيئاً على مستوى ما كنت تحلم أن نقوله، لنهز ضمير الإنسانية، شيئاً نصير به أصابع للاتهام والإدانة، شيئاً يكون فيه الأدب أصدق حكم على كل ما حدث. وعلى المسؤولين عن كل ما حدث لبلد كان من أجمل بلدان العالم، لبلد كان بيتاً بعشرات الأبواب وكان لكل منا أن يجد نفسه في الباب الذي يريده أن يكون فيه. . المؤمن. . الملحد. . المسلم. . المسيحي. . الدرزي والعربي وغير العربي.

أيها المعلم، أيها الصديق الذي مات ولم يمت. أمس تسلمت ديواناً جديداً لصديقنا المشترك «فؤاد الخشن»، ديواناً اجتاز كل حرائق بيروت ليصلني مكللاً بإهدائه إليّ. وبعد أيام أيها المعلم سيصدر لي ديوان في بيروت «بيروت مع تحياتي». وما زالت هناك صحافة وهناك معارض وهناك كتب تصدر. ترى هل تستطيع أن تصمد طويلاً أمام حرائق لبنان ودماء بيروت وسعة مدافنها لتقول وتكرر: بيروت. يا موتاً أكبر من تابوت. يا موتاً لن يعرف كيف يموت.

١٩٨٩/٧/٢١

ليل عابس وطريق يابس
للوعد الأخضر في قابس

لن يكون السفر الى «قابس» سهلاً، شعرت بذلـك منذ أن بـدأ مذيـاع الطائـرة يعلن من فترة لأخرى عن تأخر إقلاعها من مـطار «هيثرو»، ثم يعتـذر لنا عن هـذا التأخـير الطارىء، وهمس جاري لصاحبه بأن السبب هو إضراب موظفي المطارات في فرنسا، ويرد عليه صاحبه بلهجة واثقة: قد لا يكون هذا هو السبب. . ربمـا يكون السبب نـاتجاً عن اصـلاح عطب في الطائرة. ويصمت الإثنان من دون أن يبدو على أي منهما بأنه مقتنـع بما قـاله الآخـر. . وكلما كنت أتذكر السيجارة القابعة في علبة سجائري كان شعوري يزداد إيماناً بأن الرحلة لن تكون رحلة سهلة.

وبعد ساعتين ونصف الساعة أقلعت الطائرة، وبعد قرابة ثلاث ساعات حطت الطائرة في مطار تونس الدولي وسط تصفيق الركاب التونسيـين كما هي عـادتهم، وكان من بعض فضـل الشعر علي، أن أحد موظفي الكمرك ـ أو «القمرق» كما تكتب في تونس ـ عرفني فيسر لي أمر خروجي من المطار دون فتح حقائبي، سرني ذلك وخفف من مشاعر الكآبـة التي لازمتني منذ بداية الرحلة، وتعبيراً عن شكري له أهديته «كاسيتا» لاشعـاري بصوتي وأعلمني بـأنه يحتفظ بكاسيت للمغني التونسي «الهادي قله»، يغني فيه إحدى قصائدي فازددت سروراً وغروراً.

وفي بـاحة الاستقبـال بحثت عن الذي قيـل لي بأن «مهـرجان قـابس الـدولي» قـد أوفـده لاستقبالي وتدبير أمري فما عثرت عليه، ادرت نظراتي الزائغة في الوجوه، حدقت فيها واحـداً واحـداً، قرأت الأسـماء التي كتبت على بعض لافتـات المستقبلين على أمـل أن يكـون اسمي بينهـا، فما كـان لي منها حتى ولا حـرف من حروف اسمي. وكـان الحر عـلى اشده، وهـا قد مضت ساعة وأنا أمني النفس بأنه لا بد أن يأتي ولكنه لم يأت، طلبت من المسؤول عن غرفـة الارشـادات أن يسـأل عـما إذا كـان هنـاك من قـدم من مهـرجـان قـابس لاستقبـال ضيـوف المهرجان، وبصوت مرتفع كرر النداء وما من أحد لبى النداء. . تعوذت من الشيطان وقررت أن أستأجر سيارة تأخـذني الى أي فندق في تـونس وكان قـد مر عـلى بقائي في المـطار أكثر من

ساعة ونصف الساعة. ومن الصدف السيئة اني نسيت أن أحمل معي دفتر التلفونات الذي دونت فيه أرقام تلفونات بعض أصدقائي في تونس.. خرجت الى الشارع بحثاً عن سيارة أجرة فلم أجد ولا واحدة منها، والسبب هو ان نقابة سيارات الأجرة كانت قد اعلنت الإضراب عن العمل، وهكذا ما كدنا ننتهي من إضرابات لندن وباريس حتى وقعنا الى إضرابات تونس.. ما العمل.. فلا طائرة تعود بي الى لندن ولا سيارة تقلّني الى تونس.. والا.. والا، غير السجائر التي أنفث من خلالها غضبي على الدنيا كلها، وها هو المطار خال إلا من بعض العاملين فيه، وقد خفتت اضواؤه، والساعة جاوزت الثالثة بعد منتصف الليل ويبدو أن لا أمل لي في شيء، ومع ذلك فلأحاول. كانت إحدى سيارات الأجرة تقف على مسافة بعيدة من بناية المطار، هرولت إليها ورجوت صاحبها أن يعينني، فأعتذر في البدء ثم قبل بعد إلحاح شديد مني وإغراء كبير، وهكذا تواطأنا على كسر الاضراب ودفعت له ما طلب، خمسة عشرة ديناراً عداً ونقداً بدلاً عن أربعة دنانير وهي الأجرة المألوفة وذلك بعد أن تأكد من أني لست تونسياً، وسميت له فندق «المشتل» وأخيراً ها انذا في الفندق أسأل عن غرفة، غرفة أجابني باستغراب الموظف المسؤول! كل الغرف محجوزة لأعضاء المؤتمر الفلسطيني. قلب في الدفتر الذي كان تحت يديه، ثم قال: أجل هناك غرفة ولكن. لا بأس لعدة أيام فقط.

وبعد مضي يوم، وربما أكثر من يوم استطعت أن أتصل بالأخ الدكتور محمد الباردي، المسؤول عن المهرجان، فاعتذر لسوء التفاهم الذي حدث فالتأريخ الذي لديه هو ليس التأريخ الذي وصلت فيه. وهكذا حلت المشكلة. وبعد يومين وصل صديقي الشاعر الكبير «أدونيس» والذي سنسهم سوية في إحياء أمسية شعرية، مفتوحة على حوار حول الحداثة ومتواصلة مع حديث الذكريات عن بدر شاكر السياب الذي كان واحداً من أعز أصدقائنا.

وفي اليوم الثاني من وصوله، أقلتنا سيارة الأخ الأستاذ «المنتصر» الى «قابس»، فما من قرية او مدينة مررنا بها إلا وفاجأتنا عناوين دكاكين بائعي اللحم التي نصت على المجازر: مجزرة الشعب.. مجزرة الأمة.. مجزرة الديمقراطية، ويقول القاص التونسي محمد الحناشي الذي كان يصحبنا بأن هناك العديد من مثل هذه الأسماء، والتي سرعان ما راحت تتداعى على شفتيه.. وأتممتم: لا مجزرة غير المجزرة اللبنانية،.. وعلى الطريق ثمة إشارة تدل الى مدينة «العكاريت»، ونضحك معاً وأسأل عن معناها فيقول الأستاذ الحناشي بان «العكروت» عند التونسيين هو الحمل الصغير أو هكذا فهمت منه. وعلى مقربة من منتصف الطريق الى «قابس» نقع الى مدينة «القيروان» لنطوف بدكاكين أسواقها المملوءة بالصناعات اليدوية، ولنتلمس تلك الحميمية الأخاذة التي تجيش بها أزقتها الضيقة ووجوه ابنائها، وفي المقهى الذي يتوسط المدينة، وحيث راح أدونيس يتمتع بقرقرة أرجيلته، نجتمع الى نخبة من مثقفيها الذين كانوا معنا يسترجعون صوراً من تاريخها الفذ الذي شيده لها عقبة بن نافع - ت ٦٨٣ م - وخلد فيها مسجده الشهير والذي لا يزال محجة لكل من يزور هذه المدينة.

واستغللنا، أنا وأدونيس، فراغ صبيحة اليوم الثاني من وصولنا لقابس، لننطلق لزيارة

«مطماطة» القريبة من قابس، والتي طالما حلمت بزيارتها، ومنذ ما نيف على عشرين عاماً، واسم «مطماطة» يعني تاريخياً جماعة من البربر الذين توزعوا ما بين جنوب تونس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وكان لهم دور على جانب من الأهمية في القرون الإسلامية الأولى وأيام حكمهم «كاغالبة» و «رستميين» و «موحدين» الى ان زالت دولهم في أواخر القرن الثالث عشر. . آمنوا بالإسلام ديناً لهم منذ القرن السابع الميلادي وحاربوا مع طارق بن زياد في حملته وفتوحاته لإسبانيا، ولكنهم ورغم اختلاطهم بالعرب وإيمانهم بعروبتهم، يحتفظون الى اليوم بتقاليدهم وعاداتهم ولهجاتهم.

و «مطماطة» على صغرها توجز كل ذلك التأريخ الطويل، وتضيف إليه طبيعة مساكنهم المثيرة للعجب والإعجاب، فهي دور مخفية في الهضاب والتلال، تلج إليها من مدخل محفور في سفح التل لتقع الى فتحة مكشوفة على شكل فوهة بركان كما تبدو لك من السطح وتتحلق حولها من الداخل غرف الدار المفروشة بما أنتجت أيديهم من الأعمال اليدوية المحلية. وما تكاد تقع عين أحدهم عليك وأنت تقترب من باب الدار، حتى ينهض إليك مرحباً بك، وقد افترشت وجهه ابتسامة عريضة فرحة، ويدعوك لأن تؤم الدار وأن تطوف بها كما تشاء، هكذا استقبلتنا امرأة عجوز وهي تضحك وتمزح، تاركة لنا أن نلج الغرف النظيفة جداً والأنيقة جداً، لوحدنا، فنحن في بيتنا، وعند خروجنا حاول السائق الذي كنا برفقته أن ينفحها شيئاً من المال فأبت واستنكرت ذلك منه، إلا أنها رضخت له بعد إلحاح. . وفي المدينة فندق أقيم على شاكلة دور السكن التقليدية وهو مكتظ دوماً بعدد كبير من السياح الأوروبيين والذين لا تنفك آلات التصوير تواصل أزيزها وهي تدور في زواياه لالتقاط الصور التذكارية، وعلى مقربة من «مطماطة» مطماطة أخرى إقامتها الدولة التونسية على شكل مجمعات سكنية متلاصقة، وقد انتقل إليها البعض من أبناء مطماطة إلا أن الكثيرين ما زالوا متشبثين بالبقاء في كهوفهم التي تتردد فيها أصداء تاريخهم وعاداتهم وروائح أطعمتهم الخاصة.

وماذا عن حديث الشعر في «قابس»؟ ذلك متروك لمقال آخر.

١٩٨٩/٨/٢٢

حدث ذلك
ذات مساء

حدث لي ذلك في أوائل الأربعينات، ولم تكن سني آنذاك قد نيفت على السادسة عشرة، صبي وقعت صبوته في الحياة إلى أن يتلمس نفسه في الشاعر الذي يريد أن يكونه. وعلى مثل ما احتذاه خياله الجياش في النموذج، من شخصية جميل صدقي الزهاوي ومن نهجه في تأمل الحياة برؤية فلسفية، ومن ثم من شخصية معروف الرصافي، الذي قيض له أن يتعرف إليه في مدينة «الفلوجة»، ويقرأ له ما كان يقرزمه من هذر سماه شعراً، وكان الرصافي يجد في تقويم بعضه وإسداء نصحه بتمزيق البعض الآخر، ثم أصبح من مجالسيه في مقهاه المحاذي لجسر الأعظمية، حيث تتحلق حوله نخبة من الشعراء والأدباء وأساتذة الأدب، وبعض الشبان من المتأدبين والمتطاولين على مجلسه، على أمل أن يطلعوه على شيء مما كتبوا فيه، فإن كان وأخذ وريقة من يد صبي مرتجفة، سرعان ما أجال فيها نظره ثم أعادها إليه مبتسماً، وكنت من بعض هؤلاء الشبان، الذين لا ينفك ينصحنا في استكمال لغتنا وضبط أوزان الشعر وأخذ النفس بالدرس ليستكملوا بها غاياتهم.

وكنت أخرج كل مرة من مجلسه، وقد امتلأ القلب كمداً، فأنا في عجلة من أمري وشجون القراءة في كتب اللغة لا تنتهي ونصائح الرصافي لا أمل في أن تقف عند حد، ولكنني مع ذلك كنت أمني النفس واوسع من صبرها بما أمد لها من أمل في الشاعر الذي صار يملأ كل أحلامي في اليقظة والنوم.

وكثرت زياراتي لـ «المكتبة العامة» الواقعة في «باب المعظم»، ورشوت بوابها العجوز، ليفتح لي بوابتها الكبيرة عشية كل مساء، لأدلف إليها خلسة وأظل فيها إلى ساعة متأخرة من الليل، غاطساً في كتب الأدب والشعر، ومقلباً في ما اصطف على الرفوف من كتب، ومدوناً في دفتر صغير كنت لا أنفك عن حمله معي، ما أراه ضرورياً في الذي يقوم لي منه مرجع أعود إليه، وقد سولت لي نفسي غير مرة، أن أجز بشفرة حلاقة مختبئة في جيبي، العديد من صفحات هذا الكتاب أو ذاك الكتاب ومما يصعب علي استنساخها، ويوماً اثر اليوم كنت

أحس بأن لغتي سلمت لحد كبير من الهنات، وصرت أعرف أوزان الشعر وأجيد في تطبيقها سماعاً وكتابة، وحفظت مقاطع من «ألفية ابن مالك» اللعينة.

وصرت أحمل قصائدي، دون شفاعة من أحد، إلى الصحف البغدادية فيعدني المحررون أو أصحابها خيراً.. وأنتظر.. وأنتظر وأنا على شديد لهفة لأن أراها منشورة وحيثما كان لها من مكان، ولكن انتظاري ولهفتي، كانا دوماً ينتهيان إلى خيبة مؤلمة.. وقلت لنفسي: لعل اسمي هو الذي يتآمر علي.. إنه اسم غريب ومضحك وقد تحكم بحياتي بأمر من جدي غفر الله جنايته علي به، وإن كانت عمتي قد ادعت بأنها هي التي اختارته لي، غفر الله لها أيضاً إن كانت هي.. إنه لا يليق بشاعر، وكيف يمكن لصحيفة محترمة أن تنشر شعراً عربياً وتذيله باسم «بلند».. ونصحني واحد من زملائي في المدرسة أن اختفي وراء اسم مستعار، غير أن هذه المحاولة أيضاً لم تشفع لي.

وبقدر ما كانت الخيبة تكبر، بقدر ما كان الإصرار يزداد إيغالاً في التحدي، فلأجرب حظي في المجلات الأدبية المهمة جداً، وكانت من أمهات تلك المجلات مجلتا «الرسالة» و«الثقافة» المصريتان، فبعثت إليهما بعدد من القصائد.. وانتظرت شهراً وشهرين دون أن أقع إلى أي منها منشورة في إحدى المجلتين.

وحدث ذات مساء، وأنا أتسكع في شارع «أبي نؤاس» المحاذي لنهر «دجلة»، وإذا بيد تربت على كتفي، وبصوت أستاذي «ميشيل» يقول مبتسماً: مبروك.. مبروك يا بلند.. قصيدة جميلة تلك المنشورة في مجلة «الثقافة».. وكدت أطير من الفرح.. شكرته متلعثماً.

ورغم أنني أعرف جيداً بأن المكتبات كلها قد أغلقت الآن أبوابها في سوق «السراي»، وأن بين شارع أبي نؤاس والسوق مسافة نصف ساعة أو أكثر سيراً على الأقدام، فقد سعيت إلى السوق، لعل إحدى المكتبات تكون قد بقيت مفتوحة لسبب ما.. وخاب ظني، فلا حياة مطلقاً في السوق، وحتى دكان بائع المرطبات كان مغلقاً.. وقضيت ليلة لا أدري كيف أصفها إذ لم يغلق جفناي فيها ولا للحظة واحدة، ولأول مرة عرفت بأن الأرق قد يكون لذيذاً.. سأحملها غداً لكل أساتذتي في المدرسة، سأبعث بنسخ منها لكل الصحف التافهة التي لم تنشر لي.. وسابعث بنسخة لمعروف الرصافي أيضاً.

وفي الصباح الباكر، ارتديت على عجل ملابسي وهرعت إلى سوق «السراي»، واشتريت نسخة من مجلة «الثقافة» قلبت صفحاتها بسرعة فائقة.. ها هي.. ها هي.. واسمي يتصدرها مشفوعاً بكلمة «للأستاذ».. أي حلم هذا الذي تحقق.. مجلة على مستوى مجلة «الثقافة».. وأستاذ أيضاً.. ومنذ ذلك الحين لم أعد أشعر بأن اسمي عدو لي، وخفت، بل تلاشت نقمتي عليه وأصبحت علاقتي به علاقة ألفة ومحبة، وحتى شكل توقيعي تغير.. فقد وضح فيه كل حرف من حروفه، وصرت لا أخلو إلى نفسي إلا ورحت أخطه في هالة من الزخارف والظلال، ولم أكتف بذلك فعمدت الى طبع أوراق خاصة لرسائلي، تحتل زاوية منها صورتي وتحتها اسمي وقد خط بـ«الديواني».. وبقيت لفترة من الزمن لا أخرج من بيتي إلا وأنا متأبط نسخة من المجلة، وبعد عدة أيام أعادت إحدى الصحف العراقية نشر القصيدة،

مع ملاحظة «عن مجلة الثقافة».. وسمح لي مدير المدرسة أن أجلس في غرفة الأساتذة، وذلك بوساطة من الأستاذ «ميشيل»، الذي ظل لفترة طويلة يتحدث للطلاب عن أهمية قصيدتي التي لم يعلق في ذاكرتي اليوم اي شيء منها.

١٥/٨/١٩٨٩

عندما يتآمر الآباء على الأبناء

أعرف أنني لست بين الناس في آحادهم، ممن نكبوا بأسماء غريبة لم يستشرهم أحد بشأنها، ولم يأخذ آباؤهم أو من سموهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «سموا أولادكم أسماء الأنبياء. وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن. وأصدقها الحارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة».

ويخيل لي أحياناً بأن الآباء يتآمرون على أولادهم عندما يطلقون عليهم أسماء تثير السخرية وتحيطهم بجو من الشماتة، وقد حفلت بعض كتب السير والأدب العربي بشيء كثير من ذلك، وإلا فما الذي دفع بالفرزدق «٦٤١ ـ ٧٣٢م.» أن يسمي أبناءه «لبطه وعبطه وسبطه» غير روح الهجو التي نشأ عليها، فلبط ضرب الأرض وعبط أثار الغبار وسبط يمد بنفسه لمعنى في لم القاذورات.

وروي أن الجاحظ «٧٧٥ ـ ٨٦٨م.» التقى أحدهم فسأله عن اسمه.. فقال: اسمي لجام؛ قال الكنية؟ قال: أبو السرج، فقال له: فما بالك لا تنهق وأنت حمار.. وروي أن عمر بن الخطاب لقي رجلاً من جهينة فسأله ما اسمك؟ قال: شهاب، قال: ابن من؟ قال: ابن حمزة، قال: وممن أنت؟ قال: من الحرقة، قال: ثم ممن؟ قال: من بني ضرام، قال: وأين تريد؟ قال: لنطيء، وهو موضع، فقال عمر: أدرك أهلك فما أراك تدركهم إلا وقد احترقوا..

ويفرد أبو سعد بن الحسين الآبي ـ توفي عام ١٠٣٠ م. باباً من أحد أجزاء كتابه «نثر الدر» للأسماء الحسنة والقبيحة، نقع فيه إلى العديد في مثل هذه النوادر، والعديد من الأسماء والكنيات الغريبة، كبرصوما الزام، لا أعرف من هو الذي سأل أباه: ألم تجد اسماً تسميني به أحسن من هذا؟ فقال أبوه: لو علمت أنك تجالس الخلفاء لسميتك يزيد بن فريد. وفي الباب غير اسم أو كنية كغراب وسارق وابن ابي البغل وسكتكت وكلملم وعرمرم.. الخ.

وروى لي صديق ما عاناه من اسمه الذي اطلقه عليه ابوه يوم ولد في أوائل الحرب العالمية الثانية، فقد سماه «هتلر»، وإذا كان والده قد اعتز باسم ولده يوم انتصارات ألمانيا، وبأثر من حب العراقيين يومذاك للألمان نكاية منهم بالانجليز واليهود الصهاينة، فإن ابنه حمل خسارة هتلر في اسمه وصار مثلبة يطوله بالنكات السمجة والتعليقات الساخرة من الطلبة والأساتذة، ورغم أنه غيَّر اسمه إلى «أحمد» فقد بقي كل من يعرفونه ينادونه باسم هتلر وإلى يومنا هذا.

ويوم أن كنت مسؤولاً عن «ثانوية برمانا الوطنية بلبنان»، كان لها من بين طلابها، طالب اسمه «رومل»، وكان على جانب من الذكاء وحسن الخلق، إلا أن ذلك لم يشفع له بشيء، فالسخرية تلاحقه دائماً، وكان أحد الأساتذة يناديه بثعلب الصحراء، وقد شكا لي ذلك ذات مرة، وعيناه مغرورقتان بالدموع، فطمأنته بما عانيت أنا أيضاً من اسمي، وقلت له: إن اجتماع الطلبة والأساتذة القادم، سنخص جزءاً منه للحديث عن ذلك، عن اسمك يا رومل وعن اسمي، وكان عقد مثل هذا الاجتماع دأباً التزمناه للحوار ما بين الأساتذة والطلبة وبكثير من الصراحة، وعن كل صغيرة وكبيرة، من شؤون المدرسة، أو عن شؤون ثقافية عامة. وآثرت هذه المرة أن يكون الحوار حول عقدة النقص التي تفرز دوافع للتفوق، وبادرت بحديث مقتضب عن ذلك ثم انتقلت إلى ما كان لي من معاناة مرة مع اسمي الذي حملته طوال سني طفولتي وردحاً من أيام مراهقتي، كما يحمل الإنسان عاهة، فما كان لمعلم جديد يلج صفنا إلا ويقف عند اسمي، محققاً في معناه ومستغرباً منه ومنتهياً إلى نصيحتي بتغييره، وغير مرة حملت نصيحته لوالديَّ بعين نصف دامعة فلا ألقى منهما أذناً صاغية، وعلى كثرة ما كنت أسعى لإرضاء معلم اللغة العربية، وأنا في الصف الرابع الابتدائي، ظل هذا المعلم يناصبني العداء، فما أن يطلب مني أن أستظهر نصاً شعرياً أو أن أعرب جملة إلا ناداني: «أنت الذي اسمك غريب عجيب»، وإمعاناً منه في السخرية كان يحرف أحياناً فيه، فتارة أنا «بلندود» أو «بلنود»، وقد يستهويه السجع فيسترسل فيه وقد انفرجت اساريره عن ابتسامة غبية: «أنت بلنود.. نمرود.. ابو الدود»، وتتوالى معه ضحكات الطلاب وتعليقاتهم. والتي سرعان ما يتحلق حولها عدد من طلاب الصفوف الأخرى خلال فترات الاستراحة، وغير مرة شكوت أمرهم وأمره إلى مدير المدرسة، فكان يردني هو الآخر بضحكة مجلجلة: «يا ابني.. أهذا اسم؟! أنت أبوك انجليزي.. أمك انجليزية.. الخ» ويوم أن كبرت، وكتبت الشعر ونشرت من القصائد في الصحف والمجلات، ظل يلاحقني بظله الثقيل بعد أن اعتبرني العديدون ممن قرأوا لي، فتاة، ووقعت لي رسائل غزلية كثيرة، وحتى إن إذاعة «الشرق الأدنى» أذاعت في أحد برامجها الأدبية قصيدة لي ونسبتها إلى الشاعرة بلند الحيدري!

ضحك الطلاب وضحكت معهم، وضحك «رومل»، أما الأستاذ الذي كان ينادي رومل بثعلب الصحراء، فقد اعتذر له وعانقه. ولا أدري إذا كان رومل يحمل إسمه اليوم بمرمى في التفوق أم لا؟ ولكني على كثير رغبة في أن التقيه وبعد مرور ما نيف على عشرين عاماً على ذلك الاجتماع، لأحدثه بما جد من جديد لإسمي، ففي عام ١٩٧١، فوجئت بمكالمة تليفونية من الصديق الشاعر أدونيس يدعوني فيها لحفل عشاء في بيته في «بيت شباب» بلبنان، تكريماً للدكتور يوسف ادريس، الذي أبدى رغبته له بالتعرُّف إليّ، وتلك كانت فرصة لي أيضاً

لألتقي بهـذا الكاتب الـذي أكنُّ له إعجـاباً كبيـراً. وما أن التقينـا حتى انهلت عليه بكـل ما أحفظ من مفردات المديح وأنا أميل بالحديث إلى قصصه التي لا نظير لها، وكـلي أمل أن يـرد التحية بأحسن منهـا أو بمثلها. ولكني لم أقـع منه إلى أي شيء من ذلـك. ولم أستطع أن أفسر موقفه، إلا لحـظة أن التفت بشكل مفـاجىء إلى أدونيس ليسألـه: ماذا يـا أدونيس؟ أين بلند الحيدري؟

وانفجر جميع الحاضرين بضحكة مجلجلة... كل هذا الوقت وأنت تستمع إليـه ولم تعرف أنه هو بلند الحيدري؟! امتقع لونه ثم، ابتسم ابتسامة باهتة وهو يقـول: «غير معقـول. خمسة وعشرين عاماً وأنا أقرأ للشاعرة بلند الحيدري وأعجب بشعـرها وجـرأتها ثم تكـون أنت هي بلند! غير معقول!».. آلمتني خيبته وبعد كل هـذا الانتظار الـطويل، ولكن مـا العمل فليس كل ما نرثه عن أهلنا حسناً، وشددت على يديه معتذراً ومتمنياً له أن لا يخيب فأله مع شاعرة أخرى.

١٩٨٩/١٠/١٧

قصص في عيون عراقية

على الرغم من حماستي الدائمة لالتقاط الصور، ومنذ سنوات طويلة، وشدة عنايتي في تنظيمها في ألبومات وجوارير ومحافظ، وتعليقات تؤرخ لها وتفصح عن ظروف التقاطي لها، وعلى الرغم من كوني احتفظ بالكثير من الصور الفوتوغرافية لأصدقائي وأهل بيتي وهي تتمثلهم في مناسبات مختلفة. . أقول على الرغم من كل ذلك، فقلما كنت أعود إليها، وإن اضطررت الى العودة إليها، فلن تخلو تلك العودة من مشاعر حزينة يستبطنها شعورك بالزمن الذي فات، والذي لم يعد لك منه غير هذه الصور التي تذكرك بصديق مات، وصديق ما عاد صديقك، وبشباب غامرت فيه وبه، وبسنين كالحة ومفرحة، وبأحلام وآمال وخيبات كثيرة.

وأمس حمل إلي صديق العمر، ناظم رمزي كتابه الرائع عن «العراق ـ الأرض والناس»، والذي قام على مجموعة فذة من الصور الفوتوغرافية التي التقطها ما بين عامي ١٩٥٢ و١٩٦٢، وناظم رمزي الذي عرفته صديقاً حمياً وفناناً تشكيلياً متميزاً ومصوراً فوتوغرافياً ومصمماً وصاحب دار للطباعة، عرفت فيه وعبر كل ذلك ظاهرة من ظواهر الحداثة الفنية والأدبية في تاريخ العراق الحديث، وقد كان لي اعتزازي الدائم بأنني قطعت معه من رحلة العمر ما نيف على أربعين عاماً، تسكعنا فيها طويلاً في شوارع بغداد القائظة، وتسكعنا أكثر وأكثر مع صوره الفوتوغرافية التي كانت تحمل إلينا كل واحدة منها المدى العميق الذي اخترقت فيه شمس بغداد الملتهبة، وناسها وأطفالها ومقاهيها وأحياؤها، جلده لتعيش في ذاكرة كل خلية من خلايا جسده.

ويوم أن شببنا عن الطوق، وصرنا أرباب عوائل وآباء، كان ناظم واحداً من أهل كل بيوتنا، وكان لكاميرته أن تطاردنا باستمرار وأن تلاحق أطفالنا وهم يلعبون ويضحكون ويبكون، وفنانينا وهم يرسمون أعمالهم الفنية، ولا أعتقد أن أرشيفاً فنياً اتسع لفن فنانينا ما اتسع إليه أرشيف ناظم رمزي.

كـان له حضـوره الدائم في بيت جـواد سليم، وقتيبة الشيـخ نوري، وخـالـد القصـاب، ومحمـود صبري، وجـبرا ابراهيم جـبرا وعبد الـرحمن منيف، وفي العديـد من هـذه الـواوات المتـواصلة دون كسل ولا ملل، ولكنـه، وقبل ذلـك كان مـع كل العـراق في سياحـة مستمرة داخـل الأحياء الفقـيرة، حيث يسجل طيبـة الناس البسـطاء وأعمق ما تنفعـل به نفـوسهم، وأعمق مـا تعبر عنـه ملامحهم من محبـة لأرضهم، وأعمق ما تعنيـه هذه المحبـة من فـرح وألم وتـطلع . . ضحكاتهم المجلجلة، وشجـونهم الدفينـة، وبيـوتهم المتكئـة عـلى بعضهـا البعض بحميمية أخاذة. كما لو أن كلاً منها كان يحتمي بالآخر ويلوذ به.

بقي الكتاب لأسابيع على مقربة من مدّ يدي، وبقيت أخاف من أن يستيقظ هذا الـزمن، وهـذا الحزن الـذي يستبطنـه زمن فات، زمن يتغلغـل في كل صـورة، ليستدعي في ذاكـرتنا عشرات الصـور ذات الأبعاد المتعـددة، والمغرقـة في رومانسيتهـا، ولم يطل صـبر أحدنـا عـلى الآخـر، وكان للضحكـة التي افترشت وجهـاً عـراقيـاً قحـاً وتصـدرت غـلاف الكتـاب، ان شجعتني على تجاوز مشاعر الحزن، لأدلف إلى صفحاتـه، ولأقف عند مقـدمته المـوجزة، التي كتبها ناظم رمزي، ولم يستعن بأحد منا ليكتبها. فهو لا يريد تطنيباً ولا مدحاً ولا تعـريفاً بـه وبهـواياتـه، لا يـريـد أكـثر من أن يؤرخ لصـوره، وأن يؤرخ لبـدايـة هـوايتـه فن التصـويـر الفوتوغرافي «. . بدأت التصـوير الفـوتوغـرافي كهوايـة عام ١٩٤٦، عنـدما استلمت كـاميرا بوكس بدائية، كهدية في مناسبة ما عدت أذكرها، ولكن الذي مـا زلت اذكره هـو المتعة التي وجدتها في الصور الأولى التي التقطتها بها، وشجعني ذلك على اقتنـاء كامـيرا متطورة أعـطتني صوراً أفضل، ووضعتني على الطريق التي مـا زلت منطلقـاً فيها». ويضيـف: «لقـد أردت أن أسجل ملامحهم الجميلة وقد نحتت بتلك الصلابة الرائعة التي تغذيها قوة داخليـة لا تستنفد، بل الشوارع والأزقة والبيوت التي تؤلف الخلفية لحياتهم اليومية، والحقول والمشاغل التي كانوا يجهدون ويكدون فيها، وكانت الكاميرا بـالنسبة لي، هي الأداة التي حـاولت عن طريقهـا أن أعبر عن حبي للأصالة والبساطة والنبل التي يتصف بها الناس في وطني» ولكن ما لم يقله هـو أن ليس تلك الآلة المتطورة هي التي أعـطت تلك الصور، بـل الفنان التشكيـلي الذي فيـه، ورفاهة إحساسه التي تتجاوز قشرة الأشياء لتصل إلى أعماقهـا وعينه المـولعة بـرصد الجـزئيات التي تدل على الكليات، وذهنه الواعي بقيم العلاقات القائمة ما بين تلك الجزئيات والكليات التي تستبطنها. فوجه هذا العجوز الغارق في تأمـلاته العميقـة وهو يحـاذي شاهـد قبر، يعيـد علينا مئات الأسئلة التي طرحتها البشرية منذ أقـدم الأزمان عن تلك العـلاقة الخفيـة ما بـين الموت والحياة، وهذه القروية الطفلة التي تحمل على ظهرها ابنتها، تحمل إلينا نظراتها الحزينـة عمق مأساتها في أن تكون أمًّا قبل أن يتاح لها أن تنعم بطفولتها، وتلك الصبية الأخـرى التي التصقت ببقعـة صغيرة من جـدار يملأ كـل خلفية الصـورة ولا يترك غـير حيز صغـير جـداً، يتحول ذلك الجدار، وعبر ابتسامتها المرحة، وعبر التصاقها به، الى رمز بمعنى من انتمائهـا اليه وكأنه كل تاريخ أهلها الذي تفخر به.

وغـالباً مـا يلتقط صوره للمسنين من زوايا خفيـة، ليحتفظ لهم بتلك العفويـة المعبرة عن انكفائهم إلى دواخل نفوسهم، وحيث، وبكثير من الاطمئنان يراجعون متاعبهم اليومية، بينما

هو على غير ذلك عندما يلتقط الصور للأطفال، إذ أن عدسة آلة التصوير تواجههم عيناً لعين لتستفز إحساسهم بكينونتهم الشخصية، وكثيراً ما تكون عيونهم مملوءة بمشاعر التحدي، أو مشاعر الاعتزاز بكونهم أناساً جديرين بأن تلتقط لهم الصور وكما هو شأن عليّة القوم. وهذه المساحة الهائلة من التلال والجبال التي تغطي كل الصورة، ومن أقصاها لأقصاها، لتوحي إيحاء شديداً بمعاناة هذا الفلاح الذي يقطعها مع حماره، فضآلتها، واتساع رقعة الأرض لتشعرنا بأن الوصول إلى أي شيء هو ضرب من المستحيل، ويظل لمثل هذا التناقض ما بين حجوم مقومات الصورة دور على جانب كبير من الأهمية في التعبير عن الجوانب العميقة من حياة الناس، ومعاناتهم ومتاعبهم وبطولاتهم.

وإذا كان تاريخ الفن الفوتوغرافي، قد حفل بنخبة متميزة من المصورين الفوتوغرافيين المعروفين في الآن ذاته بكونهم فنانين تشكيليين، كما هو الحال مع مان ري (١٨٩٠ ـ ١٩٧٦) والكسندر رودوتشنكو (١٨٩١ ـ ١٩٥٦)، وغيرهما ممن أدركوا في كاميراتهم قدرتها على ان تجعل منهم سياحاً في دقائق حياة الآخرين وفي أعماقهم، وسياحاً داخل ذواتهم، ليكون للصورة الفوتوغرافية، ما للوحاتهم من قدرة تعبيرية عن خصوصية مشاعرهم الإنسانية، فإن ناظم رمزي هو أيضاً واحد من أولئك الفوتوغرافيين الفنانين الذين عرفوا كيف يستنجدون بالزوايا الداكنة والأزقة المظلمة والحياة المعتمة، ليفجروا أنواراً ساطعة من خلال كل هذا الركام من الدكنة والظلمة والعتمة، والحزن الذي خلفه زمن فات ومات. فالصورة الفوتوغرافية تبقى دائماً شاهد قبر، ومهما كان لها أن تحمل من ابتسامات فرحة ووجوه مرحة وضحكات مجلجلة. ولكنه مع كتاب «العراق: الناس والأرض» يظل حزناً لذيذاً لأنه يشدنا إلى شيء علينا أن لا ننساه. «العراق ـ الأرض والناس».

١٩٨٩/١٠/٣١

توفيق صائغ
يعود إلينا مرة أخرى

من بعض ما يبشر بأن الخير لم ينقطع عن الدنيا أن ينتدب رهط من شعرائنا وأدبائنا الشبان انفسهم، لاستقراء تجربة جيلنا من شعراء الأربعينات والخمسينات، لا ليضيفوا ألقاباً كبيرة أخرى لهذا أو ذاك ممن اخترقت شهرتهم الحدود واللغات العالمية، بحق أو بغير حق، بل ليرفعوا الحيف عمن أهمل من أهل جيلهم، ومن هيل عليه الكثير من التراب على جدته، ليس من مناوئيه، بل وحتى من أصدقائه وزملائه، وليبعثوا بذكراه مرة أخرى بعد أن أقدم هؤلاء الأعداء والأصدقاء والزملاء على وأدها وطمس اسمه ليظل لهم وهج أسمائهم التي يجب أن لا ينافسها حي ولا ميت.

واحد من هؤلاء المبشرين بالخير، كان الصديق الشاعر نوري الجرّاح، الذي أعاد إلينا في كلمة موجزة نشرتها له إحدى الصحف، صورة توفيق صايغ وأهمية عطائه الأدبي، وأنه كان الرائد والسباق لكتابة قصيدة النثر، ومن قبل أن يشتهر بها محمد الماغوط وأنسي الحاج وجبرا ابراهيم جبرا، وإذا كنت لا أريد أن أخوض في مخاوض البحث بالريادات، بعد ان صدعت جماجمنا بدعاوى الآخرين بها، من نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وعلي أحمد باكثير ولويس عوض وغيرهم، ومن انتصر لهذا أو ذاك من الكتاب والنقدة الذين أرخوا لرياداتهم، وإذا كنت أيضاً على شيء من الشك بأن ثمة آخرين لم يتقدموا على توفيق صايغ في كتابة مثل هذه القصائد، فربما سبقه إليها آخرون كحسين هداوي وابراهيم اليتيم اللذين نشرا قصائد نثرية في مجلة «الوقت الضائع» عام ١٩٤٦، والبير أديب في ديوانه «لمن»، وكان حسين مردان قد أطلعني على قصائد له نسجت على هذا المنوال في عام ١٩٤٧، ولم أغره على نشرها لإيماني بأن موسيقى الشعر من بعض مكاسب الشعر العربي، ولا أدري إن كانت قد دخلت احد دواوينه أم لا. . ؟.

أقول لا أريد أن أقف عند أي تأريخ من هذه التواريخ، ولكن ما هو حقيق بالاهتمام به، هو أن ديوان توفيق صايغ «ثلاثون قصيدة»، والذي نشره عام ١٩٥٤، كان فريداً في بابه،

وكـان مثار إعجـاب كبير من لـدن نخبة من الشعـراء والأدباء والنقـاد، ورغم تباين وجهـات نظرهم.

ولأنني لم أكن عـلى مثل هـوى هؤلاء الأصدقـاء الكبار إزاء قصيـدة النثر، فقـد اشدت في حوار صحافي معي في عام ١٩٥٧، بعمق شاعريته وحسن تطويره للحـدث في قصائـده، إلا أنني حذرت يومذاك من سعي بعض الشعراء للخروج على موسيقى الشعر، فقـد يمهد ذلـك لفـوضى في قيم الشعر، فـالضوابط ضروريـة، والسهل إذا لم يمتنع فقد يصبح مرمى للعبث الـذي لا طائـل تحته، ولأنني كنت أرى لموسيقى الشعر، وزنـاً وقافيـة، دوراً مهماً في تكثيف مضمون القصيدة.

وأمس وأنـا في مكتبة «الكشكـول» بلندن، سرني كـل السرور، أن أقـع إلى كتـاب لـلأخ الأديب محمود شريح عن «توفيق صايغ: سيرة شاعر ومنفى»، يقـوم على جهـد متميز ومعـزز بوثائق ورسائل، فصلت في الكثير من دقائق حياة الشاعر، وفي الكثير من معـاناتـه ومكابـدته القـاسية من غلواء منـاوئيه واتهـامـاتهم، وكـان من بعض سروري أيضـاً أن أقـع إلى اسمي مكروراً غير مرة ما بين إشارات للقائي به واشارات جاءت على ذكرها رسائل ما بينه وما بـين جبرا ابراهيم جبرا، وأن أقع من خلال ذلك إلى الكثير من ذكرياتي مع تـوفيق صايـغ، وحيثما كنت أقلب هـذه الصفحة أو تلك، وأن استعيـد بعض حواراتنـا المتشنجـة كلما كـان لنـا أن نتطرق إلى موضوع مجلة «حوار».

التقيت بتوفيق صايغ لأول مرة عبر ديوانه «ثلاثون قصيدة» الذي عثرت عليـه مفتوحـاً على مائدة الطعام في بيت جبرا، فانتبذت به مقعداً في غرفـة الضيوف، ورحت أقرأ بصوت عـال بعض المقاطع الشعرية منه، وكان خلال ذلك يستوقفني جبرا عند هذا البيت أو ذاك، معلقاً، ومحدثاً عن ذكرياته مع توفيق وصداقتـه له، وعـلى الرغم من أنني لم أشعـر إلا بشيء قليل من التعاطف مع ما كنت اقرأ فيه، إلا أنني أحسست به إنساناً قريباً من نفسي من خـلال حديث جبرا عنه وعن لطفه وذكائه.

ويـوم أن قدمت إلى بـيروت في أواخر عـام ١٩٦٣، كنت على كثـير رغبـة في أن ألتقيـه، خاصة وأنه كان قد أشار علي أن أكتب لمجلته «حوار» من قبل، أقول كنت على كثـير رغبة في ذلـك، إلا أن اللغط الذي كـان يـدور في بعض اللقـاءات الأدبيـة، وفي عـدد من الصحف والمجلات، حول مجلة «حوار» وارتباطها «بالمنظمة العالمية لحرية الثقـافة» اليمينيـة، التي كانت وراء تمويل المجلة، ومن ثم دعاوى الاتهام بعلاقة المنظمة بالسياسة الأمريكية، جعلني أصرف النظر عن هذه الرغبة، فمشاكلي أكثر من أن أضيف إليها مشكلة جديدة، لا ناقة لي فيها ولا جمل.

ولم يكتب لي أن ألتقي بتـوفيق إلا في أواسط عام ١٩٦٦، وفي معـرض فني، فتحـدث لي وتحـدثت له طـويلاً عـما سمعت عنه من جـبرا، وكـان ثمـة عتـاب لأنني تجنبت اللقـاء بـه، واكتفيت بالرد عليه بأنه يعرف السبب وأن لي وضعاً حرجاً وخاصـاً بي، ثم تواعـدنا عـلى أن نلتقي. وقال وهو يضحـك: «أعرف بـأنك لن تـزور المجلة، فلنلتق في «الهورس شـو» إن لم

يحرجك ذلك!». والتقينا، ثم تكررت لقاءاتنا وفي كل مرة كنت أزداد إعجاباً به، بأدبه ولطفه وعمق اطلاعه على الأدب الانجليزي، وبذلك الحزن الشفاف الذي يغطي وجهه، وحتى ابتسامته. وقد عرض علي غير مرة أن أكتب للمجلة، وبأي توجه أريد، فلا قيد للمجلة على أحد كتابها، فكنت أعتذر دائماً فيقبل اعتذاري على مضض، وفي الساعة التي كنت أزداد ثقة ببراءته من كل الاتهامات الملصقة به، كان هو يزداد إيماناً بأن وراء إحجامي عن النشر في «حوار» توجهاً سياسياً يحول دون ذلك، وكانت الهجمة ضد المجلة يومذاك صعدت إلى ذروتها، وكانت المنافذ قد سدت دون دخول المجلة لعدد من البلدان العربية، خاصة اثر منح المجلة جائزتها للدكتور يوسف إدريس ورفض يوسف إدريس تسلمها، وقد بادر آنذاك بتدبيج عدة رسائل إلى جهات مسؤولة في هذا البلد وذاك البلد، ومنها رسالة إلى الملحق الصحافي العراقي ببيروت، وكان اسمه مناف الياسين، وطلب إلي ان نقوم بزيارته سوية ليوضح له براءة المجلة من كل التهم الملصقة بها، فاعتذرت له أيضاً، وطلبت منه أن يكتفي بكوني صديقه وليعفني من أية مهمة تتعلق بالمجلة.

وبقينا أصدقاء، وكثرت زياراتي لمكتبه، وطالت جلساتنا، وازدادت شكواه من كل هؤلاء المتواطئين ضده، والذين لا يريدون أن يحاوروه. ويزداد صوته تهدجاً وهو يعدد أسماء الذين كتبوا في المجلة. ماذا يقولون عنهم؟! هل كل هؤلاء عملاء؟! وأين هو ثراء العملاء عليهم وعليّ؟! ان انقطاع بعضكم، ومن موقعه السياسي عن الكتابة للمجلة، هو الذي يشجع هؤلاء الناس على مثل هذه الادعاءات الكاذبة. وكنت استمع إليه ولا أرد بشيء، ثم أخرج منه وأنا أشد على يديه وأودعه وفي نفسي شيء لم أقله، وليس في نفسه شيء لم يقله.

واستمرت لقاءاتنا وفي غير مرة حملت إليه عملاً أدبياً لعراقي طلب إليّ أن أسعى لنشره في «حوار»، رغم حظر بغداد على المجلة من الدخول إلى العراق، كما كنت أحمل إليه ما تم طبعه من ملازم كتاب جبرا «الرحلة الثامنة» الذي كان يطبع في «الدار العصرية» ببيروت وحيث كنت أقوم بالإشراف على مطبوعاتها الأدبية.

وفي الحادي والعشرين من مايو (أيار) ١٩٦٧، وكما ورد في مذكراته، زرت توفيق، وكان في حالة من الكآبة الغريبة، بأثر مما نشر عن ارتباط «منظمة حرية الثقافة العالمية» بجهاز «المخابرات المركزية الأمريكية»، ومن دون ان ينبس بكلمة مد إليّ بإحدى الصحف التي كانت قد نشرت بيانه العنيف ضد المنظمة وضد المخابرات الأمريكية، والذي أعلن فيه عن استقالته من مجلة «حوار». خرجت منه وأنا مملوء بهجة، وفي العشية قمت بزيارة لحسين مروة في داره، ورويت له حالة توفيق صايغ ووضعه النفسي بعد أن أدرك مدى الخدعة التي أوقعوه فيها، وقلت له بأن علينا أن نسنده، فبادرني الرجل بالطلب إليّ أن أدعوه للكتابة في مجلة «الطريق»، وهو ما قمت بإبلاغه به في الخامس والعشرين من الشهر ذاته، وكان جوابه: «شكراً لك وله».

وبعد قرابة أسبوعين دعوته إلى داري مع نخبة من أهل الأدب المعروفين، ومن يسارهم ويمينهم، لدراسة إمكانية إصدار مجلة «حوار» ثانية، «حوار» البعيدة عن أي تعصب ولأي

جهة من الجهات. وأننا مسؤولون عن تمويلها. دار الحديث مطولاً، وانتهى باعتذار البعض عن الإسهام ولو بدفع قدر قليل من المال، واعترض آخرون على الاسم، وهمس أحدهم في أذني بوجوب إقصاء أقصى اليمين وأقصى اليسار، أي حسين مروة وتوفيق صايغ، واعتذر غير هذا وذاك وبأن لا وقت له للمجلات، فدار نشره تأخذ كل وقته، وفض الاجتماع، وحمل توفيق صايغ خيبته وانصرف. ومن بقي كانوا اثنين أو ثلاثة حققوا حلمهم في مجلة أخرى.

١٩٨٩/١١/٧

كل هذا الحب
لا يمكن أن يذهب سدى

عرفنا بيروت وكما أرادت لنا أن نعرفها، مدينة مدت شوارعها إلى كل بيوتنا، وحيثما كنا من أرض الوطن الشاسعة الواسعة، لتحمل عبر مجلاتها ودور نشرها أصواتنا عالية.

ثم كان لنا أن ندقق في تاريخها لنعرفها في المدينة التي ما جاءت بها الصدفة لتنشق عن كنز مجهول، فما أن ينضب الكنز حتى تنزوي في ركن من التاريخ كالكثير من مدن الصدف العابرة.

مدينة استطبنت مدناً وحضارة قامت على حضارات شتى، ومنذ أن ولدت على يدي مدينة «بيريت» الفينيقية، ومنذ أن كبرت على ايام الرومانيين، ومنذ أن ازدهرت مدرسة حضارية لتنافس «اثينا» و«الاسكندرية» وغيرهما من مدن الحضارات العريقة.

وعرفناها في المدينة التي نكبت مراراً بزلازل هزت أركانها وبنوائب وكوارث نالت منها، ولكننا عرفنا أيضاً كيف كانت تخرج دائماً من بين الرماد أشد حيوية وأمد وعداً وأكثر تألقاً.

ويوم أن استنجدنا بها. صارت لنا بيتاً مملوءاً بالدفء والحنان، وأوسعت أبوابه ليكون لكل منا أن يجد نفسه في الباب الذي يريده، وبكل أمانته لنفسه ولآرائه، وبعيداً كل البعد عن المدن ذات الباب الواحد. في هذا البيت الكبير على صغره، في هذا البيت الذي فتح أبوابه لكل الرياح الآتية من الجهات الأربع، تعلمنا كيف يجب أن نختلف لنجد تمايزنا في شخصيتنا، وكيف علينا أن نلتقي لنؤكد وحدة انسانيتنا، فلا نتوزع مللاً ولا طوائف ولا شيعاً، فبتلك الألفة كان لبيروت وهجها الحضاري الأخاذ.

وما كنت لأحسب يوم أن وطأت قدماي تراب بيروت عام ١٩٦٣، إنني واقع إلى أهلي وإلى أخوة بررة، وأن سيكون لي في هذه المدينة المستلقية على البحر، اصدقاء حميمون وضعف ما كان لي من الأصدقاء طوال حياتي الماضية، وأنهم سيسعون لحل مشاكلي، وكأنهم فريق عمل انتدب نفسه لقضية هذا القادم إليهم من ألف مفازة ومفازة. فهذا الشاعر

الصـديق يأخـذني من يدي إلى دائـرة الأمن لأتسلم بكفالتـه وثيقة إقـامتي في لبنان، وبـأثاث متجره الكبير قمت بتأثيث بيتي وترك لظروفي المادية أن تسد له ما ترتب علي من مال له، وها هو يسعى مع صديق لتدبير وظيفة أستاذ لي في ثانوية برمانـا، وذاك صديق آخـر يتراجـع عن تسلم رئاسة تحرير مجلة «العلوم» البيروتية لـيرشحني لها. ومـا أكبر الـود الذي غمـرني به غـير واحد من هؤلاء الأصدقاء التي ليس لأصابع كفي العشر أن تعدد اسماءهم الرائعـة. وكان لي من فضلهم عـلي أن استقام لي أن أبقى في بـيروت، وكواحـد من ابنائهـا، قرابـة خمسة عشر عاماً، هي من أجمل وأخصب سني حياتي، رغم ضنك العيش وشحة ذات اليد.

وإذا كـان ثمة من سعى لـلإساءة إلي، عـبر نشر قصة ملفقـة عن انقلاب فـاشل في أحـد البلدان العربية، والادعاء بأن من ألقي عليهم القبض من العسكريين اعترفوا بـأنهم دربوا في لبنان، وأن من دربهم هو «بلند الحيدري»، فـإن العشرات من الأصدقـاء والأدباء والمفكـرين استنكروا القصة الملفقة وحتى سفير البلد المعني الذي سارع إلى تكذيب الخبر، فكان للجريدة نفسها ان اعتذرت في اليوم التالي معـترفة بـأن «الخبر قـد دس عليها» ومضيفـة إلى اعتذارهـا العـديد من صفـات الإكبار لشخصي المتـواضع، وشـاعت القصة كـطرفة عن بلنـد الحيدري الذي لم يمسك في حياته مسـدساً ولا حتى بنـدقية صيـد يقوم بتـدريب عسكريـين على عمـل انقلاب وفي بلد لا يعرف فيه أحداً على الإطلاق.

ما أقل المدن في الدنيا التي لا تشعرك بالغربة، وأروع ما بين تلك المدن بيروت، وما أنـدر العواصم التي يمكنها أن تعلمك المحبة. المحبـة التي ما زالت تنـز من كل كلمـة يفوه بهـا من عرفها «فعظمة بيروت أنها حالة وأنها حياة يختلط فيها الشعر بـالرسم بـالفن بالأدب بـالتبولـة والحمص، بالروشة والحمراء، وساحة الشهـداء والدبـاس، كما يختلط السهـل مع الجبـل مع البحر، كما يختلط العرب بالعرب.. فهلا أعدتم بيروت إلى بيروت ـ عوني بشير».

هـذه المحبة التي ألغت المسـافات بـين الواحـد منا والآخـر، صـارت من بعض قـوانيننـا الـداخلية والخلقيـة، فما أن سمعت بنبـأ قيام المخـرج المسرحي يعقوب الشـدراوي بالإعـداد لإخراج «موسم الهجرة إلى الشمال» حتى وجدت نفسي إلى جانبـه أكتب لها المقـاطع الشعـرية التي رأيتها تتأرجح على الشراشف البيضـاء الكبيرة الـدالة عـلى أمواج البحر.. لقد صفقنـا يومذاك طويلاً للطيب صالح وللشدراوي، ولشد ما فرحت وأنا أرى تلك المقاطـع الشعريـة منشورة في كراس صغير جداً، ومرفق ببطاقات الدخول.. وربما لم يسمع الطيب صالح بخبر تلك المسرحية.

وبتلك المحبة التي علمتني إياها بيروت كنت ألهث يوماً على سلالم الـطوابق الثلاثـة لأصل إلى شقة ألبير أديب، واتخـذ مقعدي إلى جـانب مقعده، لأنـوب عنه في تحـرير مجلة «الأديب» بعد أن أصاب عينيه ما حال دون قدرتـه على العمـل. ومرة صرخت فـرحاً لاكتشـافي قاصّـا مهماً، وكانت قصته الأولى.. إنه جمال الغيطاني.

وبأثر من تلك المحبـة سهرت ليلة بكـاملها إلى جـوار غرفـة العمليات في المستشفى حيث كانت تجرى جـراحة لعـاصي الرحبـاني، وكلما اغرورقت عـين أحدنـا بالـدمع كنـا نسمع من

يهمس بالدعاء لشفائه. . وكنت من أوائل الـذين زاروه في بيته بعـد عودتـه إليه، وآلمني وأنـا أرى عينيه المفتوحتين على أقصاهما لا تتبيناني في رجل يعـرفه، رغم محـاولات منصور بتـذكيره ببلند الحيدري.

ما أقبح ضيق الصفحات عندما نتذكر بيروت، فما أعطتنا كثير، ومـا وهبتنا من حـرية هي التي نالت من حريتها. وما أجمل ان أسمع الصـديق الطيب. . الـطيب صالـح يستعيد معنـا كلنا ذكراها: «فأول ما نشر لي نشر في بيروت. . وأول ما عرفت عرفت في بيروت وقـد رأيت جبالاً وثلوجاً وبحاراً ومدناً أكبر وعوالم أرحب، لكن هذه المـدينة كـان بيني وبينها وشـائج من عهد غابر ومثلي كثيرون. هذه المـدينة تعيش في قلوب نـاس كثيرين. لقـد بكت عليها غـادة السمان ورثاها. . . و. . . و. . . ولا بد أن ما هدمه الحقد سوف تبنيه المحبة من جديد. كل هذا الحب لا يمكن أن يذهب سدى».

ويبقى السؤال العالق: ترى من أين جاء كل هذا الحقد لمدينة المحبة؟!

في تلك الليلة كانت بيروت بلا قلب
اختنقت كل شوارعها بالظلمة والعتمة
والرعب
في تلك الليلة كانت بيروت امرأة ثكلى
تتمرأى في عيني ذئب
في تلك الليلة كانت بيروت
تولد في تابوت.

١٩٨٩/١١/٢١

ابن عيسى والقرية التي
صارت محطة ثقافية

قبل أن يصبح محمد بن عيسى وزيراً للثقافة في المملكة المغربية عقد العزم على ان يجعل من بلدة صغيرة اسمها «أصيلة» ظمأى إلى الماء. ومن بيوتها الصغيرة التي يتكىء بعضها على بعض ومن أهلها البسطاء وفقرهم، ومن عتمة أزقتها المعفرة بالتراب، إن يجعل من كل ذلك إحدى أهم المحطات الثقافية في الوطن العربي. حيث زينت جدرانها بلوحات رسمها فنانون مغاربة جعلت منها معرضاً فنياً يلتئم بينها كل عام منتدى ثقافي يضم نخبة من أدباء عرب وأفريقيين معروفين عالمياً لتأكيد الصلة ما بين الثقافة العربية والثقافة الأفريقية. واليوم كبرت «أصيلة» التي أعاد محمد بن عيسى بناءها واتسع صدرها لمزيد من النشاطات الثقافية والفنية وتواصلت شوارعها وأزقتها الضيقة مع شوارع أكبر العواصم في العالم من خلال ما تستضيفه كل عام من الفرق الفنية العالمية ومن الأدباء العالميين حتى صار جلّ ابنائها يعرفون الكثير عن الأدب والفن.

لكثرة ما صرنا محاطين بقماء الناس وتفاهة القضايا، وحيث أصبحت قدم أي لاعب كرة أعز وأثمن من مخ انشتاين، ووارد أية ليلة من المال لمطرب صغير مغمور أكبر مما ينتظره أي مفكر من مفكرينا من آثاره طوال حياته، لكثرة ذلك وأكثر من ذلك، ما عدنا نعرف المثقف إلّا بكونه أهلاً لكل شفقة من هذا الجو المحيط به، فهو يحطب في غير أرضه ويصرف همته في غير الذي يريدونه، وحسبهم من أمر دنياهم قصر وضياع ووفرة لحم ودسم يفيضان على أبدانهم، وحسب رجل الفكر العميق رف عال في مكتبة وزاوية صغيرة في هذه الدار أو تلك يلتقي فيها بمن هم على شاكلته، وإذا كان صحيحاً القول بأن العملة الرديئة تطغى على العملة الجيدة فمن الصحيح أيضاً أن نقول بأن تفاهة السلع المطروحة تزيد العملة الرديئة رواجاً.

وبعض أملنا في ان نصير إلى غير الذي نحن فيه، متأت من قدرة هذه النخبة من مفكرينا الكبار على العطاء والصبر، وقدرتهم على التطلع إلى زمن تنتصف فيه آثارهم ومؤلفاتهم

ويثمن جلدهم وعملهم، وأن لهم من مؤازريهم ما يمد لهم متسعاً من الأمل في الذي يأملونه، فما أكبر مؤسسة فكرية ما زالت ومنذ فترة بعيدة تجد في نشر المؤلفات القيمة وتمد يد المساعدة والعون دعماً لكل جهد ثقافي وما أروع جهداً لأديب أفرد من دار نشره جوائز لأدبائنا وشعرائنا الشبان نكتشف من خلالها مواهب جديدة بعد أن حجبتها جوائز الدول التي أصبحت حكراً على الأسماء اللامعة، وإن إنطفأ وهجها منذ زمن بعيد. وما أبدع اننا ما زلنا نقع إلى مجلات فكرية ما زالت تصدر، وإن بأعداد قليلة وخسارة كبيرة إيماناً منها بضروة أن تبقى لتدل على أننا ما زلنا نحيا، وما أكبر سعة الأمل ونحن نرى ونتساءل بإعجاب كبير: كيف استقام لبلدة صغيرة أن ينهض بها حلم لمصور سينمائي وفنان تشكيلي فتتحول إلى مركز ثقافي عالمي اسمه «أصيلة».

قرأت لوزير الثقافة المغربي محمد بن عيسى، قبل ما نيف على عشرة أعوام قوله: «كان هدفنا أنا والمليحي - محمد المليحي، الفنان التشكيلي - عندما طرحنا الفكرة على المجلس البلدي منذ سنة، كنا نهدف إلى إحداث شعور عند المواطن بضرورة تحسين نوعية الحياة من خلال تجميل البيئة وإعادة تقييم الوسط، لأننا نعتقد أن الوسائل المادية والتكنولوجية مهما بلغت لا تكفي للحفاظ على النظافة وبالتالي على وقار واحترام الظروف المعيشية للمواطن. لأن تدهور البيئة والوسط ليس مرجعه في نظري إلى انخفاض الدخل أو البطالة مثلاً أو تعذر وجود الإمكانات الميكانيكية بل مرجعه بالدرجة الأولى إلى عدم توعية المواطن من خلال التربية والتعليم ومن خلال الممارسة الحضارية لمعايير الجمال وعادة النظافة. أعتبر أن عملية الصباغة على الجدران كانت احتجاجاً سلمياً مركزاً ضد سياسة التعليم في المغرب، إذ لا يعقل أن يكون بلد مثل المغرب متوافراً على ممارسة أصيلة في تشييد المحيط وتجميله وزخرفته والذي أقام مدرسة مثلى لفن العمارة لا يعتني في برامج التعليم بالفنون البصرية.

«ونظراً لعدم وجود مؤسسات للفنون البصرية وحصص دراسية في هذا الميدان، أعتقد ان التشكيليين في هذه العملية لهم دورهم وأنهم شاركوا معهم التلاميذ والطلبة وعامة الناس من المواطنين تماماً كما تتم هذه المشاركة في الفصل أو الورش التقليدية».

أعجبت يومذاك بما قرأت لمحمد بن عيسى، وتحدثت لغير واحد من أصدقائي عن تجربة «أصيلة» وتمنيت داخل نفسي لو أن أياً منا يقوم بعمل مماثل وبدءاً من حدود جدار بيته وغرف بيته وضمن وعي مدروس اذن لقام لنا من ذلك واقع اجتماعي أليف وحبيب إلى نفوسنا.

وبعد سنتين من ذلك التاريخ كنت في «أصيلة» المغربية، بدعوة من محمد بن عيسى، وفي إطار احتفال ثقافي فيها ولم تكن يومذاك غير بلدة صغيرة مسيجة بجدران ضخمة تنفرج ما بين مسافة وأخرى عن فجوات تطل منها على البحر ولتحلم من خلالها برؤى كثيرة وكبيرة، وليتسلقها أطفال «أصيلة» كل مساء، ويغرقون في تأملاتهم المبكرة مع أمواج البحر وألوان الأفق الشفافة.

يومذاك سألني صبي من أهلها وبكثير من الألفة والمحبة: ما رأيك بمحمد بن عيسى، فأجبته: لم أعرف الرجل كما يجب أن أعرفه ولكن إذا كان بعض ما صار لـ «أصيلة» من نسج

يديه فهو بلا شك إنسان كبير يحاول ان يجعل من بلدة ظمأى إلى الماء، ومن بيوت صغيرة يتكىء بعضها على بعض ومن أهلها البسطاء وفقرهم ومن عتمة أزقتها المعفرة بالتراب أن يجعل من كل ذلك موعداً مع تاريخ لها ولكم، تاريخ كبير ورائع.

فرح الصبي بما قلته كما لو أنه هو محمد بن عيسى، ودلفنا سوية من زقاق إلى زقاق في «أصيلة» وحيثما وقفت وقف معي يتأمل صور الفنانين المغاربة التي افترشتها واجهات البيوت وجدرانها، وعلى الرغم من أنه كان أصغر من أن يستوعب أهميتها الفنية، قال لي وبكثير من الاعتزاز: إنها... كلها لفنانين مغاربة.. هذه لمحمد المليحي، وتلك لمحمد شبعة وتلك للميلودي، وأضفت إلى أسمائه أسماء فنانين آخرين كالحسائي والقاسمي وبلكاهية والحميدي وغيرهم، وسألني باستغراب هل تعرفهم كلهم، أجبته: كلا ولكن أعرف أعمالهم وأعرف بعضهم.. وجميل منهم أن يتبرعوا بالمجيء إلى «أصيلة» ليزينوها ويجعلوا منها معرضاً فنياً يرهف مشاعركم وينمي ذوقكم الفني.. هكذا عمل الفنان المسلم عندما زخرف صحونه وسجاجيده وأغلفة مصاحفه الكريمة وكتبه، بل وكل ما يحيط به.

من هنا بدأ الحلم يحقق رحلته في الواقع، ومن خلال خطى صديقين تآلفا وآمنا بأن المثقف هو الذي يعرف كيف يوظف ما تعلمه في حياته اليومية.. أن يعيشه مع الناس.. أن يعلمهم، ويمثل من نفسه، كيف يلتقط أعقاب السجائر من الأزقة حفظاً لنظافة بلدتهم، فحب المواطنين لبلدهم ينعكس من خلال شعورهم بأن تظل نظيفة وجميلة.. أن يعلمهم، ويمثل من نفسه، كيف عليهم أن يلتقوا في هذه المحبة، ومهما اختلفت آراؤهم وتباينت نظراتهم السياسية والاجتماعية.

هكذا بنى محمد بن عيسى ومحمد المليحي «أصيلة» الجديدة ومن خلال كل أزقتها القديمة وبيوتها، ومن خلال سورها التاريخي وفجواته التي كانت تطل منها على البحر، وتحلم برحلات أكبر وأوسع إلى العالم كله... وهكذا ولد «منتدى أصيلة» قبل ما نيف على ثمانية أعوام، وضم إليه نخبة من أدباء أفريقيين معروفين عالمياً، لتأكيد الصلة ما بين الثقافة العربية والثقافة الأفريقية وعبر «وسائل ليست من ذهب ولا فضة، وسائلنا هي ترنيمة قصيد وبريق لون.. وسائلنا لا تفنى».. وهكذا كبرت «أصيلة»، ونمت واتسع صدرها لمزيد من النشاطات الثقافية والفنية، وتواصلت شوارعها وأزقتها الضيقة مع شوارع أكبر العواصم في العالم من خلال ما كانت تستضيف كل عام من الفرق الفنية العالمية ومن الأدباء العالميين... وحملت جدرانها تطلعات فنانين جدد من الطلاب.. وصار للأطفال مركز مفتوح لممارسة أعمالهم الفنية، وتبرع غير فنان من غير مكان في العالم لتدريسهم أصول الفن وتعميق إحساسهم الفني... والأكثر أهمية هو أن جّل أبناء هذه البلدة الصغيرة صاروا يعرفون الكثير عن الأدب والفن وعن كل هؤلاء القادمين إليهم من أدباء وفنانين... وبقيت دار محمد بن عيسى مشرعة الأبواب لضيوف مهرجانات «أصيلة» ولأبنائها، حيث يمتد الحوار فيها طويلاً عن كل صغيرة وكبيرة في الفن والأدب العالميين، وعن كيفية التواصل ما بين التراث والمعاصرة برؤية حديثة ومنفتحة على كل التيارات العالمية.

وعاماً بعد عام، صارت «أصيلة» تزيد من استضافتها للندوات الثقافية والمحترفات الفنية والمعارض والعروض الإبداعية، وولدت فيها محاور ثقافية جديدة مثل «جمعية المحيط الثقافية» واحتضنت «جامعة المعتمد بن عباد» العديد من الندوات وكذلك «المنتدى العربي الأفريقي»، واتسعت قائمة ضيوفها القادمين إليها واتسعت حواراتهم الثقافية لتلتقي فيها كل التوجهات التي تعمق وعي الإنسان العربي بذاته وبعصره ومنجزاته «فهذا التواصل بين الحضارات والثقافات من موقع عالم الجنوب في مقابل هيمنة الشمال هذا الاصرار على تعبئة قدرات إنسان العالم الثالث، مواهبه ومخيلته، وتوظيفها لتحسيسه بذاتيته وخصوصياته وتحريره من عقد الاستلاب والتبعية الثقافية المعششة في عقله ووجدانه كان هو الآخر من طروحات الجمعية منذ نشأتها قبل عشر سنوات مضت. ستبقى أصيلة الرهان المحترف وستبقى أصيلة الرمز النموذج للبديل التنموي الآخر، وسيبقى الإنسان محور هذا البديل الذي كان عليه الرهان، وما يزال ـ جمعية المحيط الثقافية ـ أصيلة ـ آب ١٩٨٨».

وأمس توجت «أصيلة» بجائزة آغا خان لعام ١٩٨٩ التي تسلمها محمد عيسى في القاهرة، وهو يستعيد في ذاكرته وجوه أبنائها ووجوه أصدقائها ووجوه كل الذين آزروه ليجعلوا من بلدة صغيرة إحدى أهم المحطات الثقافية في الوطن العربي.

وإذ توكل لمحمد بن عيسى مهمة وزارة الثقافة في المملكة المغربية، وبدراية فائقة، يبدأ الرجل رحلته الثانية ضمن مسارين رئيسيين، ذلك الذي يؤكده في واقعه القومي وبكل ما يشده إلى تراثه، وذلك الذي يجعل من تراث كل الحضارات العالمية جزءاً من تراثه، وعبر حوار ذكي يوصلنا بواقعنا من ناحية ويمد بتطلعاتنا إلى آفاق أوسع من ناحية، فليس لغير هذا الحوار ما يعرفنا بأنفسنا، وليس لغير هذا الحوار ما يشحذ همتنا لنتجاوز واقعنا.. وعبر «زمن المغرب» المزمع إقامته في فرنسا ما بين عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، سيكون للمغرب أن يحمل للعالم الكثير من تراثه الحضاري والثقافي والفني، من خلال تظاهرات متنوعة تجوب شوارع باريس الرئيسية وتتسلل إلى العديد من المدن الفرنسية، ولتأخذ طريقها بعد ذلك من فرنسا إلى عواصم أوروبية أخرى، لا لتعرض عليها ما تعلمناه منها في الرسم الحديث والموسيقى السيمفونية، بل لتقول لها من هنا نبدأ بالحوار ما بين الحضارات، لنكتشف سوية طريقنا إلى المستقبل، مستقبل الإنسانية جمعاء، ومن خلال ما أعطينا للعالم في يوم ما من تراثنا وما استلفنا منكم في يوم آخر.

محمد بن عيسى هو الوزير الثاني بعد طه حسين، الجدير بأن يحمل صفة «وزير الثقافة».

ومحمد بن عيسى هو الشخصية المثقفة التي أعطت من نفسها مثلاً فذاً لكيفية التعامل ما بين المثقف العربي وبيئته.

أيها الصديق.. معذرة إن جرحت تواضعك.. ولكنها كلمة حق كان عليّ ان أقولها.. لا لك ولا للآخرين، بل لذاك الصبي الذي سألني قبل ثماني سنوات عن: رأيك بمحمد بن عيسى، ليتأكد من أنني على مثل رأيه فيه.

١٩٩٠/١/٢

إلى إبراهيم الحريري

كـان لصديقي إبـراهيم، أكثر من اسم ولأكـثر من سبب، وكانت تتـوزع أسـماءه صحف يومية ومجلات أسبوعية وشهرية ونشرات سياسية سرية، «يكتب في إحـداها مقـالاً سياسيـاً ذا نبرة ملتهبة، ويكتب في أخرى خواطر عاطفيـة مشحونـة بمشاعـر فتى جاء إلى الحيـاة بقدمـين حافيتين. فآمن بأن تظل قدماه على صلة وثيقة بكل ما في الأرض من برودة ومن حرارة، وان يظل يعمل من أجل الحفاة الذين لا يملكون من كل الأرض غير دفئهـا الذي يغـور عميقاً في كل معاني انسانيتهم.

وكان له من بين كل هذه الأسماء وتلك الأسـماء، اسم يهرب بـه من مأزق واسم يجتـاز به الحـدود بجواز سفـر مزور، واسم يختفي وراءه في عمـل سيـاسي. . ولكنـه ورغم كـل تلك الأسماء، كان لا يريد منا أن نعرفـه إلاّ باسم إبـراهيم وبعيداً عن آلامـه ومآسيـه ونضالاتـه، وحيث ما عدنا نعرفه إلاّ من خلال ابتسامته المملوءة بحـزن شفاف وطيبـة متناهيـة، وإلاّ من خلال نكاته التي لا يطول بها إلاّ نفسه.

كنا يومذاك، وقبل ما نيف على ثلاثين عاماً، نحاول أن نؤطر أسماءنا بألقاب وصفات، في الشاعر المبدع والكبير، وكان إبراهيم يومذاك يحاول جاهداً أن لا يكون لـه غير اسم إبـراهيم الذي يشف من خلال كل تلك الأسماء اسـماً بسيطاً وكـأنه رمـز لكل النـاس البسطاء الـذين تحمل أرجلهم دفء رجله المتسكعة معهم في غير رصيف من أرصفة الدنيا.

ويوم كنا نخـاف أن نحب أي شيء، امرأة. . أو عـائلة أو عشيرة أو وطنـاً كي لا نتعذب من جـراء امرأة أو عـائلة أو عشيرة أو وطن، كـان إبراهيم يـربي في نفسـه قـدرة هـائلة عـلى الحب، حتى حب دراجته الهوائيـة التي يخرج بصحبتهـا كل مسـاء وهو يعـرف جيداً بـأنه لن يمتطيها، ولكنه يريدها صاحباً يتمشى معه وحسبه منها أن يتكيء عليها وحسبها منه أن تتكيء على ذراعه، وكنا كلما رأيناهما سوية نكتم ضحكة منهما، ويكتم دهشة من عدم قدرتنا على أن

نغور إلى ما هو أبعد من تلك العلاقات السطحية الظاهرة التي تحفظ لنا أمننا المتهم بالجبن والخيانة وضمن ضروب مختلفة من التعامل التجاري المعتاد معه.

وعلى الرغم من أنني لم أكن على مثل جلده ولا على مثل تفاؤله بأن غدنا لا بد وأن يكون أحسن من أمسنا ويومنا، فقد كتب عليّ أن أتشرد معه من منفى إلى آخر، وفي كل منفى من تلك المنافي العديدة كانت لنا لقاءاتنا المستديمة، وعملنا سوية في غير مجلة وصحيفة. كان لهما منه عطاء أدبي مشحون بالصدق والعفوية والعمق، إلا أن الرجل، وكما عرفته دائماً كان بعيداً عن أن يوظف من الصحافيين والأدباء من يلمع له اسمه، فاكتفى مما كان ينشره، بأن أصدقاءه وحيثما كانوا سيعرفون بأنه لا يزال حياً وأنه ما زال بإمكانه أن يكتب لهم معززاً ثقتهم بالحياة.

وأمس تسلمت رسالة منه، لم تأتني من منافي الوطن، ولكن من كندا يقول فيها «ليس في انتقالي إلى كندا أمر غريب، فلقد استبدلت منفى بآخر ولقد دفعت الثمن في كلا الحالين، فإذا كان المنفى الأولى يلبي لي بعض الحاجات الروحية، فإن المنفى الراهن، إذ يلبي بعض الحاجات المادية فإنه يلقينا في أزمة روحية عميقة ولعلك أيها الصديق وأنت الذي حملت المنفى حقيبة مسافر تعرف أكثر من غيرك معنى هذا. .» ويقول فيها انه يكتب شعراً بالإنجليزية، واسمه ذاع وشاع في كندا «وهكذا، وبعد أربعين عاماً من الكتابة بالعربية انتهى كاتباً غير معروف بالعربية، وشاعراً معروفاً بالإنجليزية. . ألّا ترى أي مفارقات يخبئها لي ولكم القدر. . ومن يدري فقد يكون هناك المزيد. . أرفق لك المحاولة ومن يدري فقد تقوم أنت الذي ترجم لك إلى الإنجليزية بترجمة شعري إلى العربية، فتكون هذه هي المفارقة الثانية. . لم . . لا . .؟ ألسنا نعيش زمن المفارقات أيضاً، وبينها ما هو مضحك وما هو مبك، وما هو مضحك ـ مبك كما في مثل حالتي في آن».

يا صديقي إبراهيم. . لقد تعبت أنت أيضاً. . أنت الذي كنت أشك بأنه سيتعب في يوم ما. . يا صديقي. . ابتسم وحسبك لأن تبتسم انك تعيش اليوم باسم واحد، وليس ثمة ما يفرض عليك ان توزع نفسك في العديد من الأسماء المستعارة والجوازات المزورة. . وحسبك أنك تكتب شعراً رائعاً. . كما أنت في قصيدتك «أن تكون في كندا» والتي أخاف أن ترجمتها أن لا أعطيها حقها. . وحسبك ان هناك من يقرأ ما تكتبه ومن يتعاطف معك فيه.

هذا أنا ـ ملقى هناك ـ حقيبتانْ

وخطى تجوس على رصيفٍ

لا يعود إلى مكانْ

من ألف ميناء أتيتُ

ولألف ميناء أصارْ

وبناظري ألف انتظارْ

لا ما انتهيتُ

فوراء كل ليالي هذي الأرض لي حب وبيتُ

ويظل لي حب وبيت

١٩٩٠/٤/١٧

مع توفيق صائغ
في أعماله الكاملة

تعوّد صديق نكبتني بصداقته سنوات الدراسة، أن لا يخرج من بيتي إلاّ وقد تأبط كتاباً بدعوى الاستعارة لمدة يومين أو ثلاثة أيام ثم يختفي نهائياً وكنت في كثير من الأحيان أغض الطرف عن مداعاته بإرجاع ما استعار لسوء ما اختار من كتاب تمنيت ان أزيح ثقله وثقل كاتبه عن كاهل مكتبتي وأن كنت في غير هذا الشأن أحتج بحكمته المكرورة: من أعار كتاباً فهو أحمق ومن أعاده فهو أحمقان، فأسكت على مضض وأنا أبيت النية على أن لا أسمح له أن يجتاز عتبة الباب، ولكنه كان دائماً في بيتي وكان دائماً لا يخرج إلاّ وقد تأبط كتاباً مسروقاً باسم الاستعارة.

وصرت أكثر تحرزاً كلما جاء وذهب وغالباً ما كنت أعد له الكتاب الذي أريد أن أتخلص منه ولما كان من بعض هواة الشعر التقليدي وأدب السير واللغة، فإن أمره يسير. . . ولا أدري كيف غافلني أمس واختلس من على منضدتي كتاب «الأعمال الكاملة لتوفيق صايغ» الذي كان قد صدر حديثاً عن دار «رياض الريس» بلندن، وقد كنت على كثير رغبة في أن أختلي به في ذلك المساء، ولذلك فقد اتصلت به غاضباً وطلبت إليه أن يعيده اليّ وبالفعل فقد امتثل لطلبي وأعاده صبيحة اليوم الثاني مصحوباً بابتسامة باهتة وبتعليق أشد بهوتاً: ما فهمته منه لم يكن شعراً وما لم أفهمه لا يمكن أن يكون شعراً. . لو كان للشعر أن يكتب بلا وزن ولا قافية ولا معنى لكتبه المتنبي والمعري وشوقي والجواهري ولما تركوه لكم. . سكت للحظة ثم قال: يا بلند عليكم أن تموتوا في زمان رياض الريس فليس كمثله ناشر يعتز باصدقائه ويتعهد آثارهم وإن لم يطل العمر ببعضكم فسيكون كذلك معكم سواء استحق شعركم ذلك أم لم يستحق.

وبقدر ما أرعبني تذكيره إياي بالموت بقدر ما شعرت بالاعتزاز بأن يكون لنا صديق كرياض الريس، لا يرى خيراً في جهده ما لم يتواصل مع جهود أصدقائه وبما يمكن أن يمد بها من جيل إلى أجيال، وحسبه أن يفطن إلى ذلك مثل هذا الصديق الذي لم أعرفه رجلاً فطناً

في يوم ما، رجلاً يستطيع أن يتلمس نفسه في جملة مفيدة وذكية.

وأحسست وأنا أختلي بأعمال توفيق الصايغ الكاملة، وكأني ما زلت اتحلق مع العديدين من الأصدقاء حول مائدة في هذا المقى أو ذاك من مقاهي بيروت، لنتحدث بأصوات متباينة في الحدة عن آخر ما صدر لنزار قباني أو أنسي الحاج أو أدونيس أو يوسف الخال وغيرهم وغيرهم.. وكان أقل هؤلاء الشعراء إثارة للجدل هو توفيق صايغ. فقد اختزلت نظرتنا إليه مسؤوليته عن تحرير مجلة «حوار» والتي طاله منها الكثير من عنت المتعنتين وقول المتقولين عليهما بالحق وبالباطل.. وندر أن سأل أياً من أصدقائه ومعارفه عن رأيه في شعره، فقد كان الرجل من أكثر الناس تواضعاً وأشدهم بعداً عن الركض وراء الشهرة، وإذا كان بعضنا لا يزال يهدي كتبه مشفوعة بألقاب «الكبير» و«العظيم» و«الرائد»، انتظاراً لألقاب وصفات مماثلة ممن سيهدونه كتبهم، فإن توفيق صايغ كان يكتفي عند إهداء دواوينه بأقل العبارات المعبرة عن صدقه، هكذا حمل إليّ في أواسط الستينات ديوانيه «القصيدة ك» و«معلقة توفيق صايغ» ولم تتجاوز كلمة الاهداء قوله: «إلى بلند الحيدري.. الشاعر الصديق.. مع محبتي.. توفيق صايغ»، وإذا كان البعض من أدبائنا ونقادنا المعروفين قد أثنوا ثناء كبيراً في ديوانه الأول «ثلاثون قصيدة» الصادر عام ١٩٥٠، وكرسوه فيه شاعراً متميزاً بكونه «أجرأ وأعمق ما صدر في اللغة العربية من شعر.. جبرا إبراهيم جبرا». فمثل هذا الثناء خفت صوته وقل عدد العاكفين على دراسة أعماله الشعرية الأخرى والتي هي أكثر أهمية وأكثر عمقاً لتظل مجلة «حوار» في الواجهة ما بين المتحزبين لها وهم قلة والمتحزبين ضدها وهم كثرة كاثرة.

وبالفعل لقد كان توفيق صائغ رائداً لقصيدة النثر، وواحداً من أبرز من وطد شأنها، وأن لم يكن بأفضل من كتب فيها، بعد أن اتسع بابها إلى نخبة متميزة كالماغوط وأنسي الحاج وجبرا، ولكنه بقي بين كل تلك الأصوات المتعززة بعطاءاتها الفذة، شاعراً له فرادته التعبيرية المنتشية بمخاوضها العميقة في الذات الفردية، والتي لا تنفك تلتف على نفسها وعبر صور متداخلة ومتلاحقة قد يوجزها حرف منبوذ لوحده في رمز متعدد الأبعاد كحرف «K»، الذي لا يخلو من أثر من «K» كافكاً، وعبر تعاضل درامي ما بين التهمة والبراءة والصراخ المتحدي والهمس المستسلم وبين الرعب من الموت والاحتفاء به.

اقربي

فقد صدر الحكم

وسمرت في زنزانتي

اقربي

فاشق من التنفيذ انتظاره

......

فوحدك أحب، ووحدك أريد

ووحدك تعرفين منجاي وبيتي وعدني

ويثور «K» على نفسه وعلى انطوائه على نفسه ليعلن جهاراً أنه «توفيق صائغ في معلقته» المتوزع ما بين الثنائيات المتلازمة كسيفين مخضبين بدماه، ذلك السيف الذي حملته إياه أمه، وذلك السيف الذي حمله هو لنفسه من خلال «K»، وكلا السيفين يحاربان بعضهما البعض، وليس من يدمي بينهما غيره هو نفسه:

سيف أمي وسيف K

يلتقيان

ويتراجعان ويتقدمان ويفران ويكران

ويقفان ويعاودان التقهقر والطعن

«سيفان خصمان أم سيفان عاشقان»؟

. . . . . .

أشرشق... أشرشق

فيرتفع نصف فم

ويرمقه ساخراً.. نصف فمّ

وإذا كانت المزية، كما يقول المناطقة لا تعني الأفضلية، فهي تعني حتماً أن صاحبها أدرك جوهره فاستقامت له منه خصوصيته التي تقوم على قدرته على المزاوجة ما بين معاناته الحياتية وبين ما يمد بها إلى رموز على جانب كبير من التداخل والتعاضل وفي الذي يؤكدها في بعديها العاطفي والذهني، كما تقوم على قدرة متميزة على تفجير مخزون المفردة، فهي حيناً مستلفة من لغة تراثية تضيف لغموض المعنى غموضاً لفظياً، وهي حيناً قريبة من لغة العامة اليومية ومشحونة بحساسية تعاملنا اليومي معها.. وآيته في ذلك أن كلتا المفردتين حاضرتان بين يديه ومنبثقتان من طبيعة النص الشعري دونما تكلف أو تنطع أو رغبة في استظهار مكنته من لغته الشعرية.. إن لغته تتفجر من طبيعة مواضيعه، بحيث تنجذب كل الصور الجزئية إلى بؤرة رئيسية تتشكل فيها كلية العمل الشعري.

ولعل من أبرز مميزات هذه الأعمال الكاملة لتوفيق صائغ، الفصل الذي أفرد لأعماله غير المنشورة، والتي وإن كانت لا تتفاضلَ على أعماله الشعرية التي عرفناه فيها، إلا أنها ومن دون أي شك تقوم كمحطات مهمة في تجربته وثمة نهج في الأداء لم نألفه كما هي الحال مع قصيدته «عبدان السقا».

١٩٩٠/٥/١

ومرّة أخرى
مع حسين مردان

يقول السيد عادل محمد تتار في رسالته التي بعث بها إليّ من أنقرة: «إنه تعرف على حسين مردان في استنبول في عام ١٩٦٩ بالصدفة وأخذه معه إلى متحف توب كابي»، وشرحت له ما مكتوب تحت البعض من الآثار المعروضة، وافترقنا بعد أن أخذ عنواني وأخذت عنوانه ولكننا لم نتراسل. ولم أعرف عنه أي شيء حينذاك، غير أنني عرفت أنه شاعر مهم قبل عام تقريباً عندما قرأت مقالة لك عنه في مجلة «المجلة» المسلمة، وحصلت أخيراً على كتاب عنه باسم «من يفرك الصدأ» للدكتور علي جواد الطاهر صدر عن وزارة الثقافة العراقية. وفي هذا الكتاب شيء كثير عنك وعنه، وقد لفت انتباهي اختلاف بين الذي ذكرته عن حادثة إلقاء القبض عليه بتهمة السرقة وأنك أخرجته من مركز الشرطة بعد أن صالحت حسين مردان مع الرجل الذي اتهمه بالسرقة بينما يقول حسين مردان: «وفي الصباح حضر صديقي الشاعر بلند الحيدري وتكفل حضوري أمام محكمة الجزاء وقد جاء للدفاع عني صاحبي المحامي عبد المجيد الونداوي، فمن منكما الصادق؟» وفي الكتاب مقالة لعبد المجيد الونداوي، يقول عنه: «إنه كان في تشرده الأول قريناً لبلند الحيدري، وبلند الحيدري شاعر تمرد على عائلته الارستقراطية، واستنتج أن حسيناً قد فضل ان يرافق بلند في التشرد على أن يرافقه إلى بيت أقربائه الأغنياء، وكان بلند على ما يبدو لي يجد في تلك الحياة حقلاً صالحاً للحراثة والزرع لما هو عجيب.. كل هذا يدل على نبل والتزام حسين مثلما يدل على نبل والتزام بلند الحيدري» وإنني لم أفهم ما يعنيه الونداوي بالنبل والالتزام؟ وتنتهي الرسالة بتعريف بسيط لكاتبها الذي يقول فيها إنه درس اللغة العربية في سورية «وإنه من أهل الاسكندرية».

كتاب الدكتور علي جواد الطاهر على جانب كبير من الأهمية، بمقدمته وبما جمع من آثار حسين مردان المنشورة ما بين ١٩٦٨ و١٩٧٢، وبما أضاف إليه من انطباعات بعض أصدقائه، وهو حقيق بأن يكون مرجعاً لكل من يريد ان يؤرخ لحسين مردان، وذلك بأثر من سعة ثقافة الدكتور الطاهر وعمق درايته باللغة العربية، ولأنه لا يكتب دراساته النقدية إلاّ بمحبة كبيرة، حتى إذا كان له أن يشير إلى هنة في لغة أحدنا، أشار إليها وكأنها من بعض

خصوصيتنا فيتجوز معها. . وإن استقرأ أعمالهم وقف عند ما يتمايزون به، ومقدمته الفذة لكتاب «من يفرك الصدأ» لدليل بيّن على ما نكبره دائماً في الدكتور الطاهر الذي عرف في حسين مردان صديقاً حميماً له، وعلى الأخص خلال عملنا سوية في «الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء العراقيين» بعد عام ١٩٥٨. . والكتاب بعد ذلك انتصاف وانتصار لشاعرية حسين مردان الذي شاء الكثيرون منا أن يضعوها في الموقع الثاني، مكتفين بشخصيته المثيرة محوراً لكل حديث عنه، ومتناسين أهمية دوره في تمرده على القيم السائدة، أدبياً وسياسياً واجتماعياً، في العراق في أواسط الأربعينات والتي بشرت بولادة حداثة الأدب العراقي آنذاك.

لقد عاش حسين مردان حياته ببعدين متعاضلين ومتداخلين، في الواقع كما هو وكما يسعى لتغييره، والواقع كأحلام يقظة رومانسية، يهرب إليها من قسوة واقعه اليومي المملوء بالقهر والفقر والتشرد والتي شاركته فيه، وعبر ليال وليال في غرف الفنادق الرخيصة، وعلى مصاطب شارع أبي نواس ببغداد وفي مقاهي شارع الرشيد، وسمعته مراراً يروي أحلامه بصوت مرتفع كما لو أنها حقائق لا يطولها الشك، عن علاقاته بأجمل طالبات كليتي الآداب والحقوق المعروفات. ولم تسلم منه حتى الممثلات العالميات وبأثر من صورة جميلة وقعت في يده واندست بين دفتي ديوانه المخطوط، والذي لا ينفك يحمله تحت إبطه صباح مساء. . حتى إذا ما ضحكت من خيالاته انفجر هو أيضاً بالضحك، وأعدت عليه قول الشاعر:

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلّا فقد عشنا بها زمناً رغدا

والذي أصبح لازمة نعود إليها كل يوم من خلال معاناتنا واليومية ومن خلال أحلامنا اليومية.

والحادثة التي جاء على ذكرها، هي غير الحادثة التي رويتها أنا، ومشاكل حسين مردان كثيرة، وكنت دائماً مقحماً فيها، فالتي جئت على ذكرها انتهت بالمصالحة وخرج من مركز شرطة البتاوين دون كفالة، وصار المدعي والمدعى عليه صديقين بعد ذلك، اما الأخرى فقد أخرجته بكفالتي من مركز الشرطة، والحادثة تتعلق بشجار وقع في حي موبوء، بينه وبين بعض أهله، ولم تخل روايته من شيء من خياله الخصب كقوله: «ولما كنت خبيراً بمعالجة مثل هذه المواقف الصعبة في تلك الأيام الغضنفرية من حياتي، فقد قمت بحركة التفاف سريعة فصرت بجانبه ـ أي الشرطي، وبحركة أخرى كانت البندقية بين يدي . . وكانت معركة انتهت بتحطيم البندقية». . رحم الله حسين مردان، فقد كان رائعاً في سرده لكل صغيرة وكبيرة تقع إليه، وحقيقة الأمر، وكما رواها لي، أن امرأة من أهل الحي اعتدت عليه بكلمات بذيئة فرد عليها بمثلها، وسرعان ما تآزرت معها الآخريات، ثم كان أن فوجىء بشرطي طويل وضخم الجثة ـ كأنه عوج بن عنق، على حد روايته ـ وانه رفعه عالياً عن الأرض من بين إبطيه فإذا بعينيه تواجهان عيني الشرطي وشاربه الكث، وحسين يصرخ به: «أنزلني إلى الأرض. . أنزلني لأريك من أنا» حتى إذا ما هبط به، أسلم إليه قياده وانتهى موقوفاً في مركز الشرطة. وفي المحكمة استعطف الونداوي الحاكم الذي كان على صلة به، مترجياً إياه

بالعطف على الشاعر المعروف، فاكتفى الحاكم بتغريمه مبلغ خمسة دنانير، سددها صديقنا الموسيقار منير الله ويردي.

أما ما ذكره المرحوم الونداوي، فقد كان من جملة تساؤلاته الدائمة عن صداقة بلند وحسين، الذي قدم إلى بغداد، تاركاً «بعقوبة» وثائراً على فقر عائلته وحيث كان يأمل أن يعثر على عمل في بغداد، وعلى شهرة أدبية تتسع لها صحافتها، ولكنه، وبدلاً عن أن يستعين ببلند ليوفر له عملاً من خلال عدد من أقربائه المتوزعين على مناصب مرموقة في الدولة، آثر أن يستمر في تشرده وكأنه رمز لشاعريته، وأنه تقاسم هذا الرمز مع بلند الذي أغراه على أن يترك عائلته ويتمرد عليها ويتشرد معه «للحراثة والزرع لما هو عجيب». ولم يكن المرحوم الونداوي في تساؤله واستنتاجه بعيداً عن الصحة. فقد كنا نؤمن إيماناً راسخاً بأنه لا يمكن أن يكون هناك شاعر كبير ما لم يكن متشرداً ومتمرداً وثائراً، حتى على نفسه.

١٩٩٠/٥/١٥

.. وكان واحدا من أصدقائي

أمس حمل إليّ صديق حميم كراساً صغيراً باسم «أحاسيس في أزمان مختلفة»، ضم عدداً من الكلمات القصار للمرحوم الفنان الأديب إبراهيم زاير، وتمنى عليّ هذا الصديق أن أشد الهمة للبحث عن آثار أخرى له، ربما تكون قد نشرتها له مجلة «العلوم» اللبنانية يوم كنت مشرفاً على رئاسة تحريرها، وكان ابراهيم يعمل معي فيها آنذاك، بعد أن ترك بغداد قبل فترة وجيزة. فدار «منشورات الجمل» بالمانيا، قد آلت على نفسها أن تقوم بجمع أكثر ما يمكن جمعه من أعماله الأدبية والفنية لنشرها في كتاب آخر، وهو ما يشير اليه النداء الذي حملته الصفحة الأولى من الكراس، حيث تتوجه الدار «الى جميع القراء، أصدقاء ابراهيم ومعارفه الذين بحوزتهم نصوص ورسوم ورسائل له، داعية إياهم الى تزويدها بنسخ منها».

وهو جهد مشكور، فقد شغلت الرجل حياته النضالية، عن نفسه وعن طاقاته الفنية والأدبية، وشغلته أيامه السود عن أن تتيح له الوقت لأن يجمع أعماله، أو أن يرضى عنها فيودعها لصديق بدلاً من أن يكورها بشيء كثير من اللامبالاة، ثم يرمي بها في سلة المهملات المنزوية في أحد أركان المكتب. ومراراً كنت أراه وقد بدأ بكتابة رسالة، وأخذ يقرأ لي بعض فقراتها ثم يودعها بعناية تامة في المظروف ثم يقرر فجأة أن يمزقها، فليس ثمة من ينتظر منه رسالة، والذين كان من الممكن أن ينتظروا رسائله، وممن حملوا معه أحلامهم عن عراق الغد، صوّح بهم المناخ البشع ومن بقي حياً منهم فها هم معه يتسكعون في شوارع بيروت وفي شوارع عواصم أخرى، ومنهم من فقد قدرته على الحلم، ومنهم من لا يزال يحلم بعراق الغد السعيد، وبفلسطين حرة وبأمة عربية واحدة.

كان صموتاً، حتى عندما تمتلىء الغرفة الصغيرة المدعوة بـ «مكتب مجلة العلوم» بضجيج الأخوة العراقيين وجدالهم، مكتفياً بهزة من رأسه يوزعها لهذا أو لذاك، وما عدا ذلك فهو منصرف بكليته إلى التفكير بمشاريع لإحدى المنظمات الفلسطينية التي انتمى إليها حديثاً وجعل منها كل آفاق مستقبله، وإن كان ثمة وقت لغيرها فقد وظفه لاستعادة هواياته في

الكتـابة والـرسم والتصميم في غرفـة مجلة «العلوم» المكتظة دائـماً بشلة من الأدبـاء والفنـانـين المهجرين من العراق.

كنت في بعض الأحيان أضيق ذرعاً بصمته، فأحاول جاهـداً أن أخرجـه منه لأتعـرف إلى شيء من تفاصيل حياته، خاصة وأن بعض اصـدقائـه يرون فيـه رجلاً يحب الصخب والمرح والسهر، وتعودت شيئاً فشيئاً عـلى أن أحترم صمتـه حتى لكأن فيـه سراً لا يـريد ان يبـوح به لأحد، فبعض صمتنا من حدود مملكتنا الفردية الضيقـة، وهو إلى جـانب ذلك دمث الخلق، محبٌ ورقيق المشاعر، وفي لغته الأدبية شاعرية مرهفـة، وفي خطوطـه حريـة أخاذة، وعمق في الرؤية للأشياء، وكانت له صداقات خاصة، بهذا الصديق الذي يشاركه بيته، وبتلك الفنانة اللبنانية التي يلتقي بها دائماً، وبتلك الأديبة، علاقات منفردة وخاصة.

ذات صباح أسرني بأنه بدأ بكتابة قصة، ويأمل أن تكون طويلة عن فتاة أخـذتها الحـماسة للحياة إلى حد الانتحـار، وأذكر أنني علقت عـلى قولـه يومـذاك: يا إبـراهيم، إن أحد علماء النفس قال بأن الكاتب الألماني ستيفـان ستفايـج قد مـارس الانتحار مـراراً من خلال أبـطال قصصه قبل أن ينتحر هو نفسه «بعد أن فقد أعز مـا يملك. . وطنه ومكتبـه» فحذار من هـذه الممارسة، ابتسم ذات ابتسامته الدافئة ثم لملمهـا بسرعة وهـو يرد عـليّ: «وهل سيـترك القتلة المصطفون على كل شوارعنا المجـال لنموت بسـلام أو لننتحر بسـلام». . ولكن إبراهيم زايـر انتحر.

انتحـر بعد يـومين من آخـر لقاء لي معـه. . دخل غـرفة المجلة، أصفـر اللون، وبعينـين ذابلتين، أدارهما مراراً في الغرفـة، ثم همَّ بالخـروج، ثم عدل عن ذلـك. . وبلهجة صـارمة توجه إليّ قائلاً: لقد تركت عملي في المنظمة تركته إلى الأبد لعل العلة فيّ.

دنوت منه وربت عـلى كتفه: ومـاذا في ذلك؟! إنها ليست آخـر الدنيـا. أنت فنان وأديب وصحافي، وتستطيع أن تجد نفسك في أي منها، ثم سألته أن يصحبني لتنـاول غدائنـا في أحد مطاعم «الروشة».

وقبل بعد تردد، ولم يفصح طوال الجلسة عن سبب تـركه المنـظمة: انها أسبـاب خاصـة. وبيد مرتجفة أخرج من جيبـه رسالـة جاءتـه من بغداد وفيهـا خبر عن زوجتـه التي ولدت لـه طفـلاً: مبروك يـا إبراهيم مـبروك. . فـرد وبعصبيـة: ولكن لـماذا الآن. . لـماذا الآن؟! كـل المصـائب تأتيني دفعـة واحدة. وكيف سـأعود لبغـداد وأنا لا أملك حتى جـواز سفر صـالحـاً للاستعمال؟! ورمى بجوازه أمامي.

قلت له:

«بـاستطاعتي أن أجـدده لك، فـلي صديق في القنصليـة، سيقوم بـذلـك. . أتـركـه لي». ومددت يدي لأتناوله، إلاّ انه أسرع بانتشاله: دعني أفكر في الموضوع. . وافترقنا.

وبعد يومين رن جرس التلفون ببيتي ليخبرني الصديق الشاعـر عمران القيسي بـأن إبراهيم زاير قد وضع حداً لحياته، بعد أن قضى ردحاً من الليل عند صديق لبناني.

ويبدو أنه قضى الليلة السابقة لهذه الليلة، في مكتب المجلة، حيث وجدت على طاولتي مجموعة من التخطيطات لقصيدتي «حوار عبر الأبعاد الثلاثة» وتخطيطاً لي. . إلى جانب مقال كتبه عن ديوان للشاعرة «لميعة عباس عمارة» ونسي قلم الحبر مفتوحاً على المنضدة.

وفي العدد الذي صدر بعد وفاته، كتبت افتتاحية في رثائه، رثاء هذا الرجل الرائع في حبه وصدقه وأصالته. . وكانت فيه أيضاً القصيدة وتخطيطاته، وكلمته عن ديوان لميعة عمارة، وكلمة رثاء للكاتبة اللبنانية روز غريب، مصحوبة بصورة تخطيطية له.

ونحن إذ نستعيد تاريخ هذا الرجل في أكثر من معنى من معاني الإنسانية والأدب والفن. . نشكر لدار «منشورات الجمل» على مبادرتها، وإن كان قد مضت على وفاته قرابة عشرين عاماً، وهو دون الثلاثين من عمره.

١٩٩١/٦/١٩

لن ألوّح بالوداع...
يا عمر

كان ذلك في شهر آب من عام ١٩٦٠ والذي خبرنا رمضاءه في كل عام من حياتنا في بغداد، حتى شاع وصفه على كل شفة ولسان بأنه، «آب اللهّاب ـ يحرق المسمار بالباب» وإذا كان أمره كذلك في بغداد، فكيف ستكون حالي معه في «دلهي» التي انتدبت لأن أكون واحداً من أعضاء الوفد الموفد إليها، تدشيناً لافتتاح «الخطوط الجوية العراقية» ما بين العراق والهند، وكدت أن اعتذر كما اعتذر غيري، لولا بارقة أمل في الحظوة بأن التقي بشاعري المفضل، عمر أبو ريشة، إذ كان يشغل يومذاك منصب سفير سورية في الهند.

وطوال الرحلة التي ناهزت عشر ساعات، كانت ذاكرتي تقفز من لحظة لأخرى إلى العديد من أبيات شعره، وإلى محاولات في أن استجلي صورة له في ذهني من صورة باهتة نشرتها له إحدى الصحف العربية، لا يبدو فيها إلاّ شيء من طيف ابتسامة تختلط بظلال نظارته، وأتساءل: تُرى كيف سيكون لقائي الأول به.. كيف سأبدأ بالحديث معه عن مدى تأثيره عليّ..؟ لقد حفل ديواني الأول «خفقة الطين» بالكثير من ذلك، حتى حق لمارون عبود أن يقول فيه غب صدوره عام ١٩٤٦ «قد يكون الحيدري أقرب إلى أبو ريشة تعبيراً ولكنه أخو أبو شبكة في الطاحونة الحمراء، فالرحى سورية وأما الحنطة فعراقية».. سيكون لي أن أحدثه عن أول حديث إذاعي في الإذاعة العراقية عن «البناء الهرمي في قصيدة أبو ريشة».. القصيدة التي لها أول ووسط ونهاية.

همست في أذن زميلي في الرحلة المرحوم العلامة مصطفى جواد، أسأله أن يصحبني لزيارته يوم يتسنى لي ذلك، فلم يبد حماسه للأمر ورد بإيجاز: «لو كان بدوي الجبل لزرته». وسكتّ على مضض.. فأين شعر بدوي الجبل من شعر أبو ريشة أو أبو شبكة أو سعيد عقل، إنهم منعطف الحداثة في شعرنا، وكيف يمكن لمصطفى جواد أن يدركهم في جديدهم وهو غارق حتى أذنيه بقل ولا تقل.

وتهبط بنا الطائرة وسط لهيب «دلهي»، رغم الساعة المتأخرة من الليل. ورغم التعب

الشديد الذي نالني من الرحلة لم أذق طعم النوم في تلك الليلة، وكتبت إهدائين طويلين على الورقتين الأوليين من ديوانيّ «خفقة الطين» و«أغاني المدينة الميتة»، بعد أن كنت قد كتبت مسودتيهما على ورقتين من دفتر كنت أحمله معي، ومحوت فيهما وعدلت فيهما كثيراً، حتى استقام أمرهما في كل ما يمكن أن أعبّر عن إجلالي لعمر أبو ريشة وشاعريته الفذة، ولشد ما كانت خيبتي كبيرة، عندما بكرت بالاتصال بالسفارة السورية، ففوجئت بصوت محدثي ينبئني بأن «السفير غادر الهند إلى دمشق في مهمة رسمية».

● ومتى سيعود؟

ـ لا علم لدينا بذلك.

واستعضت عن هذا الحلم بلقائه، بأحاديث صديقي وصديقه الأستاذ عدنان رؤوف، الذي كان هو الآخر يشغل منصباً كبيراً في السفارة العراقية، كنت ألتقيه يومياً تقريباً، وفي كل يوم كان الحديث يطول عن عمر أبو ريشة، عن قامته الفارعة، عن وجهه الارستقراطي.. عن أناقته، عن ثقافته الواسعة، عن حبه للحديث عن العلم، عن صداقته لنهرو ولأنديرا غاندي، عن أثر الهند عليه وعلى شعره، حيث تلتقي الرومانسية الإنجليزية بتراث الهند الضخم.. «لقد قرأ ديوانيك يا بلند وإنه معجب بك وطلب إليّ أن أبلغك بذلك وهو ما كتبته إليك في رسالتي الأخيرة، هل تذكرها؟» وكيف لا أذكرها.. بل إنني تجرأت، حال تسلمي إياها بنشر المقطع المتعلق بهذا الخبر، ومن دون أن استأذن الصديق عدنان رؤوف، وما كنت لأفعل ما فعلت لولا اعتزازي برأي عمر أبو ريشة ولولا قناعتي بأن عدنان لن يغضب عليّ.

وتمر سنوات عجاف طويلة، وتختلف تجربتنا الشعرية إلى أبعاد جديدة، ويظل أبو ريشة، أقرب شعراء جيله إلى نفسي، وأظل أتسقط أخباره، حيثما حل وارتحل حاملاً حقائبه الدبلوماسية من مكان لآخر، وفي كل مكان له شيء منه وشيء عنه، ثم كان أن اعتزل العمل الدبلوماسي في أواخر الستينات، بعد أن اتعبه التعامل مع وظيفة تتنافى طبيعتها مع طبيعته وصراحته وجرأته، وكانت بيروت هي الواحة التي أخلد إليها، كما أخلد إليها غيره من الأدباء والفنانين والسياسيين، وكنت قد اتخذتها مستقراً لي منذ عام ١٩٦٣.

كانت شقته على مرمى قريب من بيتي، وكان بابها مشرعاً دائماً لي ولعدد من الشعراء والأدباء، وغالباً ما كنت أزوره بصحبة زوجتي التي بادر، ومن دون علمي، بالسعي لتعيينها مترجمة في السفارة الهندية ببيروت، ولم تكن حرمه ـ أطال الله طيلتها ـ لتملّ من استقبالنا، وهي هاشة باشة، وقد امتلأ وجهها بابتسامتها الدافئة، وكان لا بد، وفي كل زيارة، من الوقوف عند هذه التحفة أو تلك وغيرها كثر، وهي ما وقع إليها في غير مكان من العالم، ولا بد أيضاً من الوقوف مجدداً عند تمثال النسر المرصع بالأحجار الكريمة، والمنتصب أمام فتحة الباب الخارجية، وقد علمت منه أنه هدية من نهرو، ولذلك فهو موضع معزته الكبيرة.

والحديث مع عمر لا يقف عند حد، فمن ذكريات النضال إلى أيام الشباب إلى حديث

الشعر وما جد فيه من جديد، وما في هذا الجديد من غث وسمين، وقد ألتقي به في غير شقته، عند فؤاد الخشن أو ألبير أديب، أو في دعوة غداء أو عشاء وحيثما كان وكنا، يظل دائماً سيد الجلسة، ومهما تشعبت الأحاديث واختلفت أجواؤها السياسية والأدبية، ورغم صراحته واختلاف مواقفه عن مواقف العديدين من أدباء ومفكري وسياسيي جيله ما نام على حقد، ولا طال أحداً بكلام هجر، أو كلمة جارحة، وإن لم يُخفِ تشاؤمه من الوضع العربي، سياسة وأدباء، والقادم أدهى، ما دام العرب لاهين بما لا يحمد عقباه.

وأسر لي ذات مرة بأنه كان واحداً من المحكّمين في مبارة شعرية دعت إليها محطة الشرق الأدنى، عام ١٩٤٥، وأنه كان معجباً بقصيدتي «الطبيعة الغاضبة»، التي شاركت بها في تلك المباراة، وأنه أعطاها أعلى الدرجات إلّا أن أحد المحكّمين أخذ عليها خطأً نحوياً فأصر على تنحيتها، واتفق معه آخران ممن يقفون موقف المعاداة للشعر الحديث.. فرك جبينه للحظة كمن يحاول أن يتذكر شيئاً ثم قال: ما زلت أذكر قولك فيها:

من أنت..؟ إني شاعر عمري أعاصير غريبةْ يمشي كما شاءت عصاه كأنها حفظت دروبه

وبشعور طفولي لم أجد ما أعبر به عن امتناني لحفظه شيئاً من شعري إلّا أن أعانقه وأقبله وأشد على يديه.. وفي تلك الجلسة اقنعته أن يلبي دعوة كان قد تلقاها من العراق لحضور مهرجان «المربد» الثاني، وقبل بعد تردد، وكانت فرصة لأن نكون معاً في الطائرة، ومتجاورين لأسمعه من شعري ولأسمعه يقرأ شعره ويقص عليّ قصص مغارة «كجاراو» الهندية وتماثيلها المملوءة بالشبق، وقصة حب الامبراطور شاهجهان لزوجته ممتاز محل وضريحها في «تاج محل» الذي يُعد أحد أروع الآثار في العالم وأحد أروع رموز الحب.

وتحترق بيروت، ويصير من بعض رمادها كل ما كنا نحلم به ونأمله من عطاءات يدها الكريمة، وأجبرت على تركها، بعد أن ضاقت دروبها بنا وانقطعت السبل بين بيوتنا، وصارت هوياتنا في هذه الطائفة أو تلك هو ما يجب أن نؤكده لكل من يعترض طريقنا من المسلحين، وودعت الأصدقاء تليفونياً واحداً واحداً، وعلى كثير أمل أن أعود إليها قريباً.. ولكن بيروت لم تعد إلينا ولم نعد إليها، فالحرائق ما زالت مستمرة وكاد الرماد أن يغطي كل ما فيها بلا شفقة ولا رحمة.

وكان عليّ أن أنتظر إلى عام ١٩٨٥، لأمنّي النفس بلقاء عمر في الحفل الشعري الذي أُقيم في القاهرة بمناسبة «مهرجان الكتاب» الذي أسهم فيه عمر أبو ريشة ونزار قباني ومحمود درويش وأنا، وكما تآمرت الظروف علينا في «دلهي» تآمرت علينا في القاهرة، فقد غادرها قبل أن أصل إليها بساعات قليلة إلى المملكة العربية السعودية، وأسأل الذين حضروا أمسيته. كيف كانت وكيف كان، وأمتلىء فرحاً واعتزازاً بما أسمع.. هو الفارس بحيويته وقامته.. إنه عمر أبو ريشة كما عرفناه دائماً ولا يمكن أن نتذكره إلّا شاباً، تماماً كملوك الفراعنة الذين لا تعرّفنا بهم تماثيلهم إلّا وهم في عز فتوتهم وشبابهم.

وكأني بالصحف العربية لم تأخذ نبأ مرضه إلّا كإشاعة. فمثل هذا النسر لا يمكن أن

ينهاض جناحه، ولا أن ينال منه العمر. ولذلك ما دار النبأ على الشفاه إلاّ همساً، ولم أسمع به إلاّ قبل أسابيع قليلة، وبكثير من الخوف والقلق ضربت على مفاتيح أرقام تلفون مستشفى الملك فيصل بالرياض.

● كيف صحة عمر أبو ريشة هل يمكنني أن أكلمه.. رجاء؟

- الحمد لله ولكن.. سأعطيك رقم أهله.

● وأسمع صوت حرمه العزيز، ذات اللهجة.. ذات اللطف الجم، وتبادرني قبل أن أبادرها بالسؤال عن صحة عمر.. كيف أنت يا بلند كيف دلال وكيف الولد.. وأرد: إنهم بخير.. كيف عمر.. هل هناك خطر عليه؟

- إنه أحسن.. الحمد لله.. سأخبره بأنك اتصلت للسؤال عن صحته.. وسيفرح.

ويموت عمر.. وإن كنت ما زلت أشك بصحة النبأ.. فمثله لا يموت وسيبقى في ذاكرتي محتفظاً بصورته الشابة أبداً.

أيها الإنسان الكبير.. أيها الشاعر الكبير.. لن ألوّح لك بالوداع، فلن تستطيع الظروف هذه المرة أن تتآمر علينا، وسنلتقي قريباً يا عمر، وما زلت وكما كنتُ وسأظل ذلك المحب المشتاق إليك دائماً.

١٩٩٠/٧/٢٥

لماذا.. لماذا..
الآن يا غائب؟

هكذا وبكثير من الهدوء، رفع صديقي رأسه ومال بعينيه عن الجريدة التي كانت مفروشة أمامه، ليوجز لي خبراً آخر من الأخبار التي كانت عيناه تطارد عناوينها من صفحة إلى أخرى: لقد مات غائب طعمة فرمان وبكثير من الهدوء غير المعتاد تلقيت النبأ، ومن دون وعي أحسست بالقلم المتشبث بين أصابعي الثلاث يتمطى بتثاقل على الورقة البيضاء التي أمامي ليعيد كتابة الخبر بحروف كبيرة: لقد مات غائب طعمة فرمان، وأعدت كتابته مرة أخرى وأخرى. كما لو أنني أشك بصحته، ثم راحت يداي تعقفان أطراف الورقة وتلمانها في مثلثات ومربعات، وأشكل منها طائراً ورقياً كتلك الطيور التي كنا نلهو بها في باحة مدرستنا الابتدائية ونتعقبها بنشوة ونحن نراها تطير في الفضاء لمسافة قصيرة، ثم تهبط برشاقة على الأرض وتزحف عليها لمسافة قصيرة أخرى، ولشدّ ما كانت رغبتي كبيرة في أن ألقي بهذا الطائر الورقي في فضاء الغرفة لأراه يطير ويهبط وقد توزعت على جناحيه وهيكله الحروف والكلمات التي حملت نبأ موتك يا غائب، نبأ موتك الذي تسلل إلى سمعي ولم يستوعبه ذهني في تلك اللحظة المختنقة بأخبار الموت القادم إلينا من خلال مئات البوارج الحربية وآخر أنواع الطائرات المقاتلة والصواريخ وأنواع الأسلحة الكيماوية والذرية التي تهدد الوطن كله، ومن دون أن يكون لها القدرة على أن تفرق بين الطفل والشيخ والرضيع وبين من هو مسؤول عن مغبة كل ذلك، ولا بين مستشفى ومكتبة ومدرسة وبين ثكنة الجند، ولا بين بغداد الأربعينات التي حملناها شعراً وفناً وتطلعاً حضارياً وبين تلك التي تبدو من خلال الأخبار مقبرة كالحة يغطيها الرماد، وكدت أن أصرخ بك يا غائب. لماذا.. لماذا الآن يا غائب؟! هل عزّ عليك أن ترى كل شيء يحترق دفعة واحدة فآثرت أن تدرك موتك قبل أن ترى ألسنة اللهب تجتاح مدينتك، وإن كانت قد حرمتك من رؤيتها لسنين وسنين طويلة جداً؟! هل هو التواضع الذي عهدناه فيك دائماً، دفعك للاكتفاء بخبر صغير عن موتك منزو في هذه الصحيفة أو تلك، وكما كانت تصلنا أخبارك كلها، وأنت تصدر أروع رواياتك، بل أروع ما عرف أدبنا الحديث من الروايات، وبعيداً عن ضجيج العربات الفارغة، واستئجار زمر

المطبلين والمزمرين كما هو دأب الآخرين، بل انك لترفض كل ذلك بإبـاء وشمم، كما رفضت كل ما قلته عنك يوم قدمتك في أمسية «النادي العربي» بلندن قبل بضعة أشهر، وكنت صادقاً عندما قلت بأنك واحد من أكبر روائيينا، وواحد من أكثر أدبائنا تواضعـاً، وواحد من أكـثرنا زهـداً بالألقـاب. ولكنك قلت، هكـذا وببساطـة رائعة! «شكـراً. . إنـه كـلام صـديق. .» ويتواضع أكـبر عرضت تجـربتك الأدبيـة وأثر النـاس البسطاء الـذين عشت معهم في «النخلة والجيران» و«خمسة أصوات» وغيرهما وغيرهما، عليك وعلى أدبك.

وفي اليوم الثاني زرنـا «وندسـور» سويـة، تسكعنا في شـوارعها ونحن نسـترجع صـور أيام الشباب ولقاءاتنا في هذا المقهى أو ذاك، وذكريات أصـدقائنـا واحداً واحـداً. . وحدثتني عن ناظم حكمت، وعدت بي إلى يـوم حملت إليك قصيـدته التي كـانت قد بعثت بهـا إليَّ زوجته «منور» صحبة عريضة تطلب منا أن نوقعها لإنقاذ رقبة ناظم حكمت من الإعدام، فكـان أن بادرت بنشرها مع تواقيعنا كما نشرت إلى جـانبها تـرجمتي للقصيدة في ملحق «الأهـالي»، وغير مـرة كان الحـديث يعود بنـا إلى سنوات الغـربة التي طـالت أكـثر مما يجب، وشكـوت لي أن «سمير» ابنك لا يعرف شيئاً من اللغة العربية، هذه أيضاً من جرائم الغـربة! وتـذكرنـا لبنان وزيارتك القصيرة له في الستينـات. وتذكـرنا هلسنكي والمؤتمـر الذي ضمنـا إلى كبار الأدبـاء العالميين، نيرودا، سارتر، دي بوفوار، إيليا أهرنبورغ، الجواهري، سهيل إدريس و. . و. . وسافرت منها معك إلى موسكو. . والصورة التي التقطتها لك مع سارتر أخذتها مني في لقائنـا الأخير. ثم كان أن التقينا ثانية في لبنان قبل أن تأتي عليه الحرائق والمؤامرات وضغائن النـاس الصغار.

وقبل أن نفترق شددت على يدك طويلاً وضممتك إلى صدري وأنا أكرر سأنتظرك هنا مرة أخرى يا غائب. . هنا في لندن أو في موسكو لا بأس قد أزورك أنا.

«من يدري قد لا نلتقي يا بلند. . فنحن لا نلتقي إلا مرة كل عشر سنوات مرة. . وقد لا يسمح الزمن بمثل هذا اللقاء».

ماذا أقول يا غائب؟! حسبك أن لا موت وراء الموت.

■ مقتطفات من رسائل غائب طعمة فرمان إليّ.

«. . وطننا يا بلند ولو كان جرحاً دامياً في قلوبنا. الذكريات وكـل شيء وحتى الخلق الفني يصبح مشوهاً. أنا في بعض الأحيان أحاول أن أتذكر متى ينزل الناس من السـطوح في أواخر الصيف في بغداد؟ وما هو لون دجلة في شهر أيلول. كلها أصبحت ذكريات وأنا بحاجـة إلى أن أعيدها فمتى. .؟» (١٠ أيلول ١٩٦٤).

«كنت قد قرأت خـطواتك في الغـربة فقلت أنـه في تنقله من ألف ميناء إلى مينـاء يتحدث عن ألف لسان ولسان. إنها لوحة من مأساتنا التي طالت عـلى المسرح، وكأن مخـرجها نسيهـا فـظلت تتكرر وتتكـرر إلى ما لا نهايـة، أنظر في الشرق والغـرب فهل تـرى نكبة جيـل مثـل جيلنا. الجيل الذي تنبه في الحرب العالمية الثانية، وحلم بأن ينعم في سلام وطمأنينة فإذا هـو

ما يزال يكتوي بنيران حرب غير منظورة، أو بالعكس منظورة بشكل لا يحتاج إلى أي نظر. . لا داعي إلى هـذا الكلام المجـروح. . أليس كذلـك؟ لا جديـد في حياتي سـوى أنني أخذت أحس بأنني شيخ وأنا لم أصل إلى الأربعين بعد ـ والله العظيم ـ بل أتمسح بأذيالها. . الـرواية التي قلت لك عنها إنها تبحلق بي كل يوم مثل زوجة مهجورة تريـد أن أطلقها أو مثـل مولـود أصبحت له لحية وهو بعد لم يخرج من بطن أمه» (١٩٦٥/٢/٢).

«كم أنا مشتاق إلى البلاد العربية وإلى الأصدقاء العرب والكتب العربية، إنني أكـاد أجف عربياً ولغتي تخونني فهل عندك كتب عربية تستغني عنها؟! أنا الآن أكتب رواية جـديدة ـ بـين الرصافة والجسر ـ وعسى أن تكون جاهزة في الأشهر الستة المقبلة، على العموم لا تحسب هذا تهديداً لك وتكليفاً سابقاً لأوانه» (١٩٦٦/٥/١٢).

«. . . ثم جاءت الأحداث الدامية الوحشية التي جعلتنـا نسهر عنـد أجهزة الـراديو. كنـا أعصاباً تحترق على البعد. . أية جريمة وحشية في القرن العشرين أن يحتل عدو شرس أرضـك في وضـح النهار. أنـا أعرف أيـة تجـارب مـررتم بهـا وأنتم في خط النـار، ولكن مثلما هـزتني النكسة، عمرت أحداث التضامن والاخوة العربية قلبي بالإيمان بالنصر» (١٩٦٧/٦/٢٠).

«ها أنا أكتب إليك من بغداد أخيـراً. . بعد قـرابة تسعـة أعوام لقـد دخلتها قبـل أسبوع ورأيت في المطار جمعاً من الأهل والأصدقاء، وكان موقفاً مؤثراً وكأنني أحـد الحجاج القـدامى الذين كانوا يعودون من الحج على ظهور الدواب. في الصباح أسير في شـوارع بغداد أحـاول أن أتذكر وجهها وملامحهـا القديمـة انني أحس وكأنني سـائح وحتى الـوجوه التي كـبرت تسعة أعوام تبدو لي جديدة علي وخطتي هي البقاء هنا شهرين أو ما يقاربها ثم النزوح ثانيـة، ذلك لأن إمكانية العمل غير منظورة، إلا إذا كان الإنسان متعلماً على الانضـواء تحت سقف هذا أو ذاك ولا بـد لي من العودة، ومـع ذلـك فـإنني غـير نـادم قيـد شعـرة عـلى عـودتي» (١٩٦٨/١٢/٥).

«. . . كيف أحوالك وكيف راحتك في الوطن الثاني. .؟ لبنان والبلاد العربية بشكل عـام لا تأتيني إلا من نافذة مجلة «الآداب» وما عدا ذلك فكـل شيء مجهول، إلا من الأخبـار المثيرة من الإذاعات. . قبحها الله من أخبار. حتى الآن لم أتعود على حياتي بعد أربعة أشهر قضيتها في المستشفى ومن العـراق لا أسمع شيئـاً ولا يـراسلني أحـد، وحتى ـ النخلة والجيران ـ المسرحية، أسمع أخباراً عنها في الجرائد ومنها أرى أنها لاقت نجاحـاً، ولكن لا أحد بعث لي برسالة يخبرني بذلك وتصور مبلغ الإساءة. . ربما هم مشغولون» (١٩٧٠/١/٢٤).

١٩٩٠/٩/٢٦

هل شاهت الدنيا إلى هذا الحد..؟!

أيها الأخوة البررة

أيها الأخوة الكبار

هل شاهت صورة الـ . . في أعينكم إلى هذا الحد المزري، فما عاد لأحدكم أن يمدّ بعينيه إلى حلم قد يعد بما يطيل صبركم عليها؟! هل عز عليكم أيها الأصدقاء أن تروا ما غرستموه بكثير من المحبة وكثير من الأمل قد صوحته الرياح الباردة والحارة الآتية عليه من ألف مكان ومكان؟! هل أخذتكم الخيبة إلى أقصى مداها بعد أن عم وطنكم الذي حلمتم بأن تجعلوه كبيراً أكبر من كل الدنيا، صغيراً وممزقاً ومتآكلاً؟!

وما أكثر ما يمكن أن نردف من علامات السؤال والتساؤل والتعجب ونحن نرى ما نرى ونسمع ما نسمع، وننتظر بهلع الطامة الكبرى والكارثة التي ليست بعدها كارثة أكبر منها.

هل عز عليكم أن تروا كل ذلك فآثرتم أن ترحلوا دفعة واحدة، أنتم الذين كنتم تصرون على البقاء أحياء، وتصرون أن تعمقوا وعينا بجدوى الحياة، وتصرون أن تكتبوا في الذي ينعش الأمل فينا وبأننا ما زال بإمكاننا أن نصنع غداً رائعاً ووطناً جديراً بأن ينشأ فيه أبناؤنا كرماء، وأن يكون لهم دور في إغناء حضارة الإنسانية جمعاء.

في آخر لقاء لي بغائب طعمة فرمان قال لي وأنا أنصحه بأن يهتم بصحته: «لقد كبر ابني وهو لا يعرف العربية ولا يعرف شيئاً عما أكتب فيه وزوجتي بين أهلها. كل حلمي أن أعود إلى الوطن وأموت هناك قريباً من نخلتي وجيرانها، وإن كانت نخلتي ليست نخلتي ولا جيراني هم جيراني» ولكن غائب طعمة فرمان مات بعيداً عن وطنه كما مات قبله السياب، وذنون أيوب، وخالد الجادر، ويوسف جرجيس، وعصام السعيد وغيرهم وغيرهم، رحل غائب وانتبذ لنفسه قبراً بعيداً عن أي فيء لنخلة من نخيل بلده.

وأنت أيها الصديق الشاعر.. يا جيلي عبد الرحمن.. قلت لك ونحن في صنعاء قبل

سنوات قريبة: «بأنني تعبت يا جيلي تعبت من الوطن والغربة، وصرت أكره الورق والقلم والشعر والأدب وكل شيء» وأحسست بدفء يدك يغور بعيداً في يدي وأنت تقول: «عيب يا رجل ما زلت شاباً» وامتلأ وجهك بابتسامتك الرضية الطيبة، وانزوينا في ركن من باحة الفندق لتحدثني طويلاً عن حياتك ومتاعبك وأمراضك، قلت لك: «إنها أمراض وهمية ونحن بحاجة إليها لنتسلى بها في الغربة إنها بكاؤنا على أنفسنا في وحشتنا». ولم يكن جوابك سوى «لا». وكما عشت دائماً تكره الضوضاء والشهرة وسماسرة الشهرة مت ولم توسع لك الجريدة التي قرأت فيها خبر وفاتك غير ربع عمود، ربع عمود فقط، لا يمكن أن يختزل حتى خطوة صغيرة من خطوات حياتك وشعرك ونضالك. ولا أدري بالتالي إن كان قد سمح عمر البشير أن يكون لك في سودانك قبر أوسع من هذا الخبر الموجز في جريدة يومية، ولكنك أيها الصديق الشاعر الذي استغل صخب الأحداث ليرحل عنا، ويكل هدوء ويكل ما حمل قلبه من ألم كبير وجسده من جراح كثيرة، ستظل معنا وبكل آلامك وجراحك التي لا بد وأن تعني بأن ثمة وطناً خانك فأبيت أن تخونه حتى قتلك.

وأنت. . أنت أيها العظيم الذي ما هدأ لحظة طوال حياته التي امتدت به إلى ست وسبعين سنة، كان لنا منها فيض من فكر نيّر وأدب ثـرّ وروح ما كلّت ولا ملّت من الدفاع عن الحق والعمل على أن نكون على مستوى طموحك فينا أنت يا لويس عوض. . لماذا؟ لماذا اخترت هذا الوقت السيىء لرحيلك. . ؟ أعرف أنك تعبت أيها الفارس المجاهد، وأعرف أن رجلك قد وهنت في حملك هذا ما سمعته منك يوم التقيتك لآخر مرة في «أصيلة» في المغرب قبل عامين، ولم أصدقك، لأنك كنت على مثل ما عرفتك وعلى مثل ما حدثني عنك قبل أكثر من أربعين عاماً صديقك الدكتور عبد الرحمن بدوي، لا تزال تثير الجدل والحماسة حيثما تكون، وفي «أصيلة» كما في غيرها وكما في كل ورقة من كتبك التي نيفت على الخمسين كتاباً، كنت مثاراً لجدل طويل وكنت تبتسم ابتسامتك الغامضة التي تتآلف فيها الطيبة والكبرياء والدعابة بحميمية نادرة وحتى في ذلك المساء، وأنت تشد رحالك للعودة إلى القاهرة سألتني: «وماذا عن شعركم الحديث؟ أما زلتم تصرون على أنكم ابتدعتموه؟»، وكأنك كنت تحاول أن تجرني إلى العودة إلى نقاشنا الطويل قبل قرابة سبع سنوات مضت ونحن على مائدة عشاء دعانا إليها، نحن الاثنين الأخ فؤاد مطر في مطعم «الباشا» بلندن، كان الحوار طويلاً يومذاك ورغم إيماني بأهمية نصوصك التجريبية في الشعر الذي حملته إلينا مجموعتك «بلوتولاند» عام ١٩٤٧ كنت أصر على أن ما جاء به جيل بدر شاكر السياب في العراق يشكل المنعطف الرئيسي في تجربة الحداثة. وقلت لك وأنا أشد على يدك المحبة مودعاً: «أنت أستاذنا ومعلمنا وما أخذناه على يدك كثير وكثير جداً، إلا في الشعر» وضحكت وضحكت وانتظرت لقاءك في مهرجان الكتاب في القاهرة هذا العام، إلا أنك كنت قد غادرتها للاستشفاء قبل عدة أيام من وصولي إليها كما علمت من صديقنا الحميم غالي شكري.

وماذا عنك يا سليم الفخري؟ كانت وفاتك مفاجأة لنا جميعاً وأكبر من أن يصدقها أي واحد منا. . ولو لم أسمع الخبر من شفتي أخينا وصديقنا الأستاذ أديب الجادر، وهو ينقله إليّ عبر التليفون وأنا في سويسرا لما صدقته مطلقاً، وكيف يمكنني أن أصدقه وقبل يوم واحد فقط

كنت معك في حديث تليفوني طويل لأقنعك بترشيح نفسك لانتخابات الهيئة التنفيذية للمنظمة العربية لحقوق الإنسان ـ فرع إنجلترا. ولكنك، وكما أنت دائماً، لا تتراجع عن قراراتك أبداً، كنت مصراً على عدم ترشيح نفسك: «لنترك المجال لغيرنا ممن لديهم وقت أكبر للعمل فيها». وأرد عليك مكرراً: «بأنك وجه مهم يا أبا داؤود وان بقاءك فيها يغنيها وإذا كنت قد قبلت بتحمل أعباء رئاستها في العام المنصرم فقد كنت على كبير خطأ فالجدير بتلك المهمة الجليلة هو أنت لا أنا ولذلك فلن أرشح نفسي لهذا العام». ووصلني صوتك هذه المرة دافئاً وإن لم يخل من صرامته المعهودة: «لا!.. يا بلند.. لن أرشح نفسي وأنا أطلب منك أن تبقى فيها أنت».

أيها الصديق الذي مر من هنا، ليس لي ما أقول فيك أكثر مما يعرفه فيك كل الذين عرفوك في صراحتك وجديتك وإيمانك بكل ما هو خير ونبيل، بكل ما كنت مثلاً فذاً له، وإذا كنا قد اختلفنا غير مرة في هذا الأمر أو ذاك، فربما لأنني لم أكن أملك بعد نظرك ولا عمق إدراكك. وربما أيضاً لأنني لم أكن أملك شجاعتك وصراحتك وجديتك، فالمعذرة إن كنت قد أسأت إليك عن غير قصد، وإنني سأظل أحملك في ذاكرتي واحداً من أصدق الرجال الذين عرفتهم أيها الرجل الذي مر من هنا..

وفي غد
إذ يمرح الصغار في قريتنا
وفي غد
إذ تشرق الأنوار من بيوتنا
ألف يد.. ألف فم
يرفع من حياتنا
تحية لعابر
بالأمس مرَّ من هنا
أبقى لنا شيئاً ومرَّ من هنا.

١٩٩٠/١٠/١٠

الجواهري وصور من الأمس

ما عنّ لذاكرتي قول أبي الطيب المتنبي في وصف إبائه وشموخ طموحه، على ندرة ما يستحوجنا الواقع اليوم إلى مثل هذه النماذج، بعد أن شاهت النفوس وصغرت مطامحها واستكانت إلى الذلة لتصخب دفوف أعشى ميمون وراء كسب رخيص بمدح هذا أو ذم ذاك.. ما عنّ لي أن أتذكر قوله:

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه　　　وأراد لي فأردت أن أتخيرا

إلا وتذكرت صنوه في الشعر والإباء، «أبا فرات»، محمد مهدي الجواهري وهو في التسعين من عمره، أطال له طيلته ـ يعاني من ألم الغربة ما يعاني، بعد أن أبعدته كبرياؤه عن أهليه ومحبيه وأبناء وطنه، وذلك على الرغم مما كان يمكن أن يكون له من متاع الدنيا من قصور وسيارات وضياع وخدم وحشم، غير أن الجواهري لم يكن لأحد كما كان لنفسه، وأمانته لقيمه، فإن مدح بظنة حسنة، وإن أخلص لمن أصفاه الود فاصطفاه، كان لهما الكثير منه وإن نكثا بوعودهما الخير كان الثائر عليهما من دون هوادة. وإذا كان للظروف أن هادنته فهادنها، وسايرته فسايرها فلفترة وجيزة، عاد بعدها، وكما كان دائماً، يرفع إصبع إدانته ضد ظالمي شعبه ويحث الناس على قتالهم.

أنا حتفكم ألج البيوت عليكم　　　أغري الوليد بشتمكم والحاجبا

فلا يسلم من مطاردتهم إياه من سجن إلى سجن ومن توقيف إلى توقيف ومن منفى إلى منفى، فقد كتب عليه أن يكون «أكثر من أي شاعر معاصر عشته وعاشني، انشداداً بالجماهير العربية» التي أبت عليه أخلاقه أن يخونها، معترفاً في الآن ذاته، بخطأ في التقدير جره في بعض الأحيان إلى أن يظن الشحم فيمن شحمه ورم «أقول هذا ولست ناسياً أو متناسياً حصتي أنا بالذات من هذا كله، كفرد من الأفراد أو واحد من الجماعات الذين يبتغون أن يزيحوا عن أنفسهم وذواتهم بحد ذاتها، غشاوة ما عاشوه وكابدوه، وما اختلطت به عليهم

سبل الحياة ومفارق طرقها فيها بين تلك المعايشة والمكابدة، مما لا بد له، بحكم الطبيعة والمنطق، من أن ينطوي على الشيء وضده، أفراحاً وأتراحاً، مسرات وأحزاناً، صعوداً ونزولاً، انتصارات وهزائم، جموحاً وكبوات، عداوات وصداقات».

وهو اعتراف لا يريد منه تبرئة ذمته مما يمكن أن يكون قد اختلف إليه شيء مما اختلف لأي إنسان آخر في حلكة تاريخ العراق المعاصر والملأى بالتكتلات الحزبية والطائفية وأجواء العمالة، وكل شعار ارتفع هنا أو هناك لم يكن غير وهم وسحاب خلب، وقد تمرّس الجواهري بها كلها. وانخدع ببعضها كما انخدع آخرون، ولكنه بقي دائماً على مثل ما كان، في صدقه واعترافه بأخطائه وفضح الحقائق التي تسترت عليها تلك الشعارات البراقة، فها هم هؤلاء الذين صفق لهم عالياً على أمل أن يكون الخير من أيديهم لشعب العراق، قد انقلبوا على أعقابهم، وأصبحوا الطغاة المتجبرين على شعوبهم، ووظفوا سلطتهم ضد كل ما تنادوا إليه بالأمس. وليس له إلا أن يعود لقلبه وضميره وشعبه، ليشن حربه ضدهم ويعلن غضبه عليهم، وليكن بعد ذلك ما يصير من بعض قدره في الغربة أو في السجن أو في الفقر.

وفي الجزء الأول من كتابه «ذكرياتي» فصول رائعة تلقي الكثير من الضوء على الكثير مما لقيه، ومما لم يلق مثله لا الرصافي، على علو همته، ولا الزهاوي ولا أي شاعر غيرهما من شعراء العراق الكبار، الذين أدلوا بدلائهم في قضاياه الاجتماعية والسياسية. فليس لأي صوت من أصواتهم ما ماثل صوت الجواهري في تمايزه عنهم جميعاً.

وأركب الهول في ريعان مأمنة	حب الحياة بحب الموت يغريني

فالجواهري، كما أورد في كل صفحات ذكرياته، وكما عرفه كل عراقي وكما صادف أن تحدث إلينا عن أيام سود وأيام بيض، وأيام اختلطت ألوانها. فيتيامن حيناً ويتياسر حيناً وظل في جانبيه، ورغم عتمة الأولى وصباحات الأخرى، وضياع الثالثة فيما بينهما لا يدور بخلده «ولا بحسابي ولا بتخطيط متعمد أن يكون ما اخترته من أن أكون للناس ومع الناس بديلاً عن فوات كل الطموحات الأخرى، لقد كان محض مزاج ليس إلا..»، بل أكثر من مزاج، انه الإنسان الكبير الذي يرفض أن يتواطأ مع نفسه ومع الآخرين للنيل من شعبه، فما قيمة أن يأتوا به نائباً في مجلس النواب وهو لا يسأل، وقبل أن يسألوه عمن سيمثل من الناس، هؤلاء الذين أحبهم وأحبوه، أو دم أخيه جعفر الشهيد، أو جوع أهل بلده «.. وأي نائب؟.. بالطبع هو أمر لطيف أن يكون الإنسان واقعياً، أن يصبح وزيراً، حاكماً، نائباً، عيناً، فضلاً عن أن يكون رئيساً لمجلس الوزراء وذلك بشيء من النفاق وببعض من التحايل وقليل من الذكاء والفطنة. ثمة شهود عدول على ما فوته على نفسي ولم يفوته الآخرون من أترابي».

وكانت كل تلك على مد ذراع منه، لو أرادها أو طمح فيها، وحسب الرجل فخراً ما فوته على نفسه. وحسبنا منه أننا نتذكره في كل ذلك، وفي منفاه وهو يمد بقامته المرهفة عالياً. حسبنا أن نتذكره اليوم في غربته القاسية، لنتمنى أن يكون لنا شيء منه، ولو كان شيئاً صغيراً

من همته وصبره الرائع على تعسف المتعسفين وكيد الظالمين وسوء دورة الأيام في هذا الزمن السيء.

وإذا كانت جماهير الأمة العربية، التي أدركته في كونه أكبر شعرائنا المعاصرين إطلاقاً، وأكثرهم تمثيلاً لهم في تطلعاتهم وآلامهم وخيباتهم وانتصاراتهم، فإن ثمة نفراً، لهذا السبب أو ذاك، أو بأثر من انتماءات مشبوهة، أو لتملق لأصحاب السلطة، لا يزالون يحاولون النيل منه، باستعادة صور باهتة عنه، وأن يجعلوا منها محاور رئيسية للتحدث بها عن هذا الرجل الفذ، وقد كان الرجل هو أنه تحدث عنها قبل أن يتحدثوا عنها. وإن طول معاناته وطول غربته وطول سنوات لجوئه في هذا البلد أو ذاك هي في النهاية الشاهد له، وإن غشاوة وقعت لعينه للحظة من الزمن، ما كانت لتكون لولا رحابة صدره لأن يغفر لهذا الإنسان أو ذاك، وبما يريد به لهما أن يبدآ دوراً جديداً في الحياة، ومن خلال إيمانهما بشعبهما.

وإذا كانت العبرة بالخواتم، كما يقال، فأية خواتم كانت للجواهري غير أيامه الملأى بكل ما يعمق وعيه بأن تعاسته هي الدليل الناصع على ما يكن لوطنه، وأنه إذ يرحل من أرض إلى أرض، سيظل يحمل معه حنينه الدائم إلى أخوته وأصدقائه وإلى من أحبهم وأحبوه.. وإلى أن نسأل من عاداه عما له ضده..

بماذا يعيرني الأرذلون — وما تخاف صلال الفلا

وأن يتمنى لأعدائه ما كان له من عذاب دنياه:

صاحبي لو تكون من أعدائي — لتمنيت أن تموت بدائي
لتمنيت أن يكون لك الطو — لان، طول الأذى وطول البقاء

كان المنتصف الثاني من أربعينات هذا القرن، حلبة صراع كبير، ما ملأها إنسان كما ملأها الجواهري، فظلا الرصافي والزهاوي قد انحسرا، وظروف العراق اليوم هي غير ظروف أمسه، وليس لشاعر أن يقف أمام أحداثه إلا الجواهري، الذي شغل الحديث عنه جميع الناس، فمن أدركه في شعره عرف أي بون بين شاعريته وشاعرية كل من سبقوه، ومن كان ينتظر مقالاته في صحيفته اليومية كان ينتظر منه أن يدله إلى ما يجب عليه أن يعمل. وكانت السلطة، كل السلطات، تنظر إليه بحذر وتهدده وتتوعده وتغريه بمناصب يسيل لها اللعاب إلا لعاب الجواهري. وكنا، نحن الذين كنا نحاول أن نتلمس أنفسنا في تجربة جديدة للحداثة الشعرية، لا ننفك عن مسعانا لأن نكون على مقربة منه ومن عطفه علينا، كنا نحاذيه في مجلسه في هذا المقهى أو ذاك. ولشد ما كنا نكبر أنفسنا عندما كنا نراه يبتسم لنا بكثير من الطيبة. ولقد تجرأت ذات مساء واخترقت مجلسه العامر بالأدباء والسياسيين من أهل جيله، لأقدم له ديواني الأول «خفقة الطين» الذي كان قد صدر حديثاً في عام ١٩٤٦، وبعد أن ملأت صفحته الأولى بكل كلمات الإعجاب والإطراء، وقف الرجل وتسلمه مني وهو يكرر: «شكراً.. شكراً» ثم جلس وقلب عدداً من صفحاته ووضعه بعد ذلك إلى جانبه.

ولكم كان شعوري بالخيبة كبيراً، أن يعيد لي ديواني في اليوم الثاني أحد العاملين في المقهى. فقد نسيه الجواهري.. من يدري ربما تناساه عمداً.

وفي المساء ذاته يجيء الجواهري إلى المقهى ليتخذ فيه ركنه المفضل مع شلته، فاندفع إليه، وما كاد يراني حتى ابتسم لي ابتسامته الدافئة وهو يقول: «عندك شعر حلو».. وبشيء من الفظاظة غير المعهودة فيّ قلت له: «لكنك تركت الديوان هنا فمتى قرأته..؟!» صمت قليلاً ثم أردف قائلاً.. «اليوم صباحاً قرأته.. وفيه أشياء أعجبتني.. عجيب»، وتذكرت أنني كنت قد بعثت بنسخة باسمه قبل أيام إلى عنوان الجريدة.

كنا نكتفي بلقائنا به بمجاورة مجلسه لنسمع ما يتحدث به أو وهو يتمتم بأبيات من قصيدة جديدة، أو هو ينثر غضبه يميناً وشمالاً على بعض مناوئيه. وكان أحياناً يقف معنا للحظة وهو يسدي إلينا النصح في جملة قصيرة ككل جمله فيعلق واحد ممن كانوا معه ساخراً «إنه يأخذكم على مستوى عقلكم».

ورغم ما كنا نريده لشعرنا الجديد من الخروج على ربقة شعرنا القديم، فقد ظل الجواهري شاعرنا الكبير المتميز برهافة شاعريته، وقربه من إشكالات مجتمعه وأمته، وحسن بناء قصيدته ومتانتها، وروائع صوره الشعرية ذات الأبعاد المتعددة في الواقع والرمز. فقصائده تبقى قريبة المنال بهمومها ومضامينها، وبعيدة المنال برموزها في الآن ذاته، وكانت حماسة بدر السياب له لا تماثلها حماسة أي واحد منا «فلا متنبي بعد المتنبي إلا الجواهري».

وصار لي أن ألتقيه ما بين يوم وآخر في «اتحاد الأدباء العراقيين»، في أوائل الستينات ليحدثنا طويلاً عن ذكرياته، أو يروي طرائف مما وقع له مع هذه الشخصية أو تلك. وأحياناً كنا نتركه لوحده عندما نرى شفتيه تتمتمان بما يخيل لنا بأنه في سبيل كتابة قصيدة جديدة.. وأحياناً ومن دون سبب واضح، يدخل الاتحاد وفي عينيه نية مبيتة على إثارة مشكلة نختلف فيها ليكون لنا بعد ذلك أن نصمت أمام غضبه المنفجر، وأذكر مرة أنني كنت في جلسة مع المرحوم الشاعر محمود الحبوبي والأستاذ العلامة مهدي المخزومي، وكان الحبوبي مستأنساً بقراءة أبيات من قصيدة «بشر بن عوانة» وهو يهتز طرباً مع كل بيت يردده:

إذن لرأيت ليثاً أم ليثاً	هزبراً أغلبا لاقى هزبراً
تبهنس إذ تقاعس عنه مهري	محاذرة فقلت: عقرت مهرا
أنل قدمي ظهر الأرض إني	رأيت الأرض أثبت منك ظهرا

وفجأة يصرخ الجواهري به: «.. إنه أسد وليس قطة.. كفى كذباً وترديداً للكذب.. هذا الكذب هو الذي أوصلنا لهذا الحضيض الذي نحن فيه».

ونحاول أن نخفف من غضبه دون جدوى، فلا بد لغضبه أن يأخذ مداه، ومثل هذا الغضب كثيراً ما كنا نفاجأ به في جلسات الهيئة الإدارية في «اتحاد الأدباء»، والذي كان هو رئيسها، فيسد علينا باب الحوار فنضطر إلى إرجاء البحث في موضوع الجدل إلى اجتماع آخر

حيث يمر الإقرار بالإجماع ودون أية كلمة اعتراض من الجواهري.

وهو، في غير ذلك، دمث الخلق واسع الصدر، حلو النكتة، وإن أخذ علينا موقفاً سعى بالتلميح إليه قبل التصريح بوضوح، ومن ذلك أن رهطاً من الشبان العاملين في «اتحاد الشبيبة العراقي» كانوا يؤمون اتحادنا ليعقدوا فيه جلساتهم ولقاءاتهم، وكل منهم طويل القامة مفتول العضل، ولا علاقة لهيئاتهم بالشعر ولا بالأدب، وقد طال صبر الجواهري وهو يراهم كل يوم أمامه، وذات مرة همس في أذني وهو يضحك: «أبو عمر.. ألا ترى أن صحة شعرائنا قد تحسنت أكثر من اللازم». فأدركت بسرعة مقصده، الذي بلغته للآخرين ممن بلغوا أعضاء الشبيبة، مفتولي العضل، بتقليل زيارتهم لاتحاد الأدباء.

وتختلف بنا الأحداث المؤلمة في بلدنا من أرض إلى أرض، ويكون أن نلتقي من آن لآن، فنسهر إلى مطلع الفجر في فندق في «براغ» وهو يتحدث بذكرياته ويقرأ من جديد شعره. وعن «الدار العصرية للنشر» ببيروت التي كنت أشرف على مطبوعاتها الأدبية، صدر ديوانه، وناشني بعض غضبه عليّ لأسباب لا ناقة لي فيها ولا جمل. ويزورني بعد ذلك في بيروت، وتطول سهرتنا وهو يقرأ آخر قصيدة كتبها اسمها «أنيتا.. لكي لا أظلم صاحبتها»، ويعيدها ثانية لأسجلها، وقد تداخلت مع إلقائه اللذيذ أصوات المعجبين والمعجبات.. ثم نترك البيت، لوحدنا، لندخل ملهى ونخرج منه إلى مطعم ثم نعود إلى ملهانا الأول لنتمم سهرتنا إلى الصبح والجواهري لا يزال مملوءاً بصحوة لا تريد أن تعترف بأن هناك وقتاً للنوم. وأكتب له إلى «براغ» ويكتب لي «أخي وحبيبي أبا عمر. لكم سررت برسالتك، ولكم تمنيت لو أن لي قدرة التعبير بالحروف حتى عن شيء يسير مما يختلج في صدري من إحساسات عميقة كثيرة الألوان، وارفة الظلال، تجاهك بالذات، وبوصفك أنقى صورة وأجملها لأخوان أغيرة عليّ مثلك.. وعندما يتعلق الأمر بالخط وبالقلم والورق وبالبريد، فأنا صفر على الشمال وأهل ومحل لكل ظنة غير خيرة، وكفوء لكل عتب مر، فهل هذا رد فعل عنيف لكثرة ما لخبطت بالحرف والقلم والورق. فيما قسم لي من حظ عاثر بها؟.. على كل حال غيري من ينسى وغيري من يستهين بذكريات هي سجل كل حياتي. ولكن يا أبا عمر آه لو تعلم من أنا بعدكم وما أنا فيه من دنيا غريبة أجوس خلالها». ومرة أخرى نلتقي في مؤتمر عقد في «هلسنكي» وأشد على يديه طويلاً، وأحس بفرح كبير ونحن معاً في مسيرة رائعة أسهم فيها كل من سارتر ونيرودا وسيمون دي بوفوار وإيليا أهرنبورغ وغيرهم وغيرهم. ثم يكون لنا أن نسافر معاً إلى موسكو ونزور سوية متحف «الأرميتاج» الرائع في «لينينغراد»، ونفترق على أمل أن نلتقي.

ويعود به الزمن لبغداد، وظن الرجل الكبير والشاعر الكبير، أنه قد آن له أن يحتضن بلده الحبيب، وأن لا يغادره بعد اليوم. لقد تعب من كل شيء. من المطارات والموانىء وكتابة الرسائل المعبرة عن آلامه ومتاعبه. وتعب حتى من كتابة الشعر. ولكن شيئاً واحداً لم ولن يتعب منه أبداً هو حبه لأهله ووطنه وأرض بلده، هذا الحب الذي لم يعرفه أي شاعر من شعراء العالم كما عرفه الجواهري.

ويحمل لي من بغداد، صديق زارني في بيروت، قصيدته، بل إحدى أروع قصائده..

ارح ركـابك من أينٍ ومن سفـر كفاك جيلان محمولاً على الخـطر

وينقل إليّ رغبته بأن نعود كلنا إلى الوطن، فأبادر بالرد على قصيدتـه بقصيدة لا أذكـر منها إلا هذه الأبيات:

جاورت سفحك أم جاورت منحدري سيان تحت سماوات بـلا مـطر
حتى صحـاراك يا أرضي تملكهـا مقت فعزت بآل مـوهم بصري
وصـار دربك أنى جئت طـارقـه مفـازة كل مـا في عريهـا قـدري
لمت كـواكبهـا عني ومـا تـركت إلا دجى يلتقي حبـلاً بمنتحـر

أبا فرات.. أيها العزيـز الكبير.. أعـرف أنني أجرح تـواضعك الجم إذ أكتب كـل هذا، ولكنه حقك علينا جميعاً، حقك علينا في الشاعر والمناضل والبطل. حقك علينا وأنت ما زلت على مثل ما كنت، تحمل جراح غربتـك بكثير من الإبـاء والشمم، وتحمل حبـك لوطنـك.. هذا الوطن الذي ما زال بعض أبنائه يتواطأون ضده.

١٩٩٠/١٢/٢٦

إنهم يقتلون الشهداء أيضا..

ولا تزال صور خراب بيروت شاخصة أمام ناظري، ولعل البون الشاسع الذي ما كانت عليه بيروت بالأمس وما هي فيه اليوم، يجعل من خرائبها صحائف من تأريخ لا يمكن أن ينساها أي واحد ممن عرفها في أمسها وعرفها في حاضرها المأسوي. إنها لتفرض عليك أن تمر بشوارعها وأزقتها في «الحمراء» وأطرافها، وأن تصمت صمتاً كئيباً كما لو أنك تسير في حفل جنائزي كبير، لا يخفف من وطأة شعورك به ضجيج السيارات وأصوات الباعة، فكل شيء هنا يذكرني بقول الشاعر اللبناني الياس أبو شبكة:

طوفتِ بي ميتاً بأروقة اللظى   فحملتُ تابوتي وسرتُ بمأتمي

وبدا لصديقي، أن صمتي ينكأ له جراحاً جمة وأنا أتلفت يمنة ويسرة، فيتمتم قائلاً: «هنا على مقربة منا محل «الصمدي» للحلويات ألا تريد أن تشتري منه؟ وهنا على مقربة منا «مكتبة انطوان»، فما رأيك بزيارتها؟

وندلف سوية إلى المكتبة. وقد بدا لي أنها تحاول جاهدة أن تسترجع بعض ما كان لها من ألق الأمس، وإن كانت الكتب لا تزال تبحث عمن يصنفها، ولكن ما أصعب أن تصنف الأشياء في بيروت الخارجة كالعنقاء من بين الرماد، وأتلقف من على رفوفها عدداً من كتبها، ويمد زميلي يده إلى كتاب مطبوع بكثير من الأناقة، ويدفع به إليّ بعد أن يوقعه: «إنه آخر كتبي، أرجو أن تقبله، وإن كنت أعرف بأن لا وقت لديك لقراءته. إنه صور مما عشناه. جيل من الجنون.. مزابل بيروت.. قطط بيروت وكلابها المتوحشة الجائعة. آه من بيروت ومن كل لبنان».

أشده إلى صدري ويشدني إلى صدره: «إذن هو أنت.. لكم تغيرت، هذه اللحية.. هذه النظارات السميكة.. كيف تريدني أن أعرفك أيها العزيز؟». ونعود لصمتنا لفترة، ثم يردد بصوت خافت كما لو انه يتحدث إلى نفسه، ومع ذلك فالحمد لله فالأمن مستتب والشوارع

انفتحت على بعضها البعض، إلا تلك التي أغلقها مؤتمركم، متى ينتهي المؤتمر؟ ابتسمت وأنا أرد عليه: «قريباً جداً قريباً.. مجرد يومين أو ثلاثة، نأسف لإزعاجكم».

ولكن بيروت.. إنها واحتنا مرة أخرى، إنها الصورة التي علينا أن لا ننساها، أن نتعلم منها الكثير، أن ندرك من خلالها بأن لا شيء أشد قتلاً من التعصب الأعمى، من الشعارات الكاذبة، من سلطة لا يرى الحاكم فيها إلا ظله، وليذهب الشعب إلى الجحيم.. نأسف اننا أغلقنا بعض شوارعكم المؤدية إلى فندق «البريستول»، ولكن أليس شيئاً رائعاً أن تكون بيروت ورغم دمارها وجراحها ملتقى أصوات العراقيين المنفيين إلى ألف مكان، وعلى اختلاف توجهاتهم، ليبحثوا من خلالها عن وحدة عراقهم، كما تبحثون أنتم اليوم عن وحدة لبنانكم!

● ويسألني: هل تريد أن ترى المزيد؟

فأرد:

- وهل هناك من مزيد؟!

وتدلف بنا السيارة من شارع إلى شارع وأكاد لا أرى في كل من تلك الشوارع ما يدلني إلى شيء مما كان لها، إلا ما يمكن أن يكون قد حصل أكثر منه في الكويت وكركوك وبغداد والبصرة، وغيرها وغيرها من مدن كانت آمنة، وعلى بعض ما رضيت به من يومها وما يمكن أن تتطلع منه على بعض خير في غدها.

وأمام كومة من الأطلال المرعبة تقف السيارة بنا، فلا منفذ لها، وعلينا أن نجوس من خلال بقايا من شوارع إلى حيث قاعدة نصب رياض الصلح. قاعدته فقط أما رياض الصلح فما عاد واحد بحاجة لأن يذكره باخوة اللبنانيين، «ولكن ربما سنعيده في يوم قريب إلى قاعدته» تتمتم بذلك شفتا صاحبي، ثم واصلنا السير ونحن لا ننفك نطالع تلك الصفحات الطويلة من الحرائق والدمار. كل دكاكين العازارية مهدمة.. لا أحد في الشوارع غير عدة أنفار متفرقين، أشعر بشيء من الرعب، فيرد عليّ قبل أن أعبر له عن مشاعري: «الحمد لله.. الأمان موجود اليوم.. الأمان فقط ولا شيء غيره، وللسادسة مساء، أما بعدها فالكلاب الجائعة لك بالمرصاد».

ها نحن أمام نصب «الشهداء» وسط ساحة البرج التي تبدو وكأنها مدينة من مخلفات الحرب العالمية وفي أكثر مدنها دماراً ولا يزال النصب يتحدى كل الخراب المحيط به، وقد ثلمت بعض جسده طلقات المتحاربين وربما طلقات الذين كانوا يتدربون على القتال.. إنهم يقتلون الشهداء أيضاً! في أوائل السبعينات، وربما في أواخر الستينات قرأت لأحد الصهاينة كلمة مفسراً بها خسارة العرب في الحرب مع إسرائيل بكون العرب لا ينفكون ينظرون إلى ماضيهم بإعجاب وغرور، ومفسراً انتصارهم بكونهم كانوا يمعنون النظر في حاضر العرب! والآن ترى ماذا يمكن أن يضيف هذا الصهيوني بعد أن جاء بعض العرب حتى على مشاعر الاخوة التي تربط بينهم الآن وهم يطلقون على شهدائهم النار؟! الآن وها هي كل أسلحتهم

الجبارة تتخاذل في كل الميادين باستثناء ميادين مدنهم ودولهم ودول أشقائهم لتنثر في الشوارع جثث قتلى أبنائهم؟! الآن وقد أصبحت إسرائيل العدو العاشر فلكل بلد عدو من أهله؟! ماذا يمكن أن يضيف وهو يضحك بشماتة كبيرة.

ونعكف راجعين. . وعند باب فندق «البريستول» يشد على يدي، وهو يحاول أن يخفي بابتسامته الباهتة دمعة كانت تغور بعيداً حتى أعمق أعماقه: أتمنى أن يتسع وقتك لقراءة يومياتي، إنها يوميات لا تحمل اسم مكان معين ولا زمان معين. إنها يوميات بيروت، وربما الكويت، وربما البصرة، وأشد على يديه مرة أخرى، ونحن نتمنى أن نلتقي هنا في بيروت، وسأزورك في دارك، يا بلند دارك التي لا تزال محتلة، من يدري. . لعل وعسى وربما وقد. . ما أكثر حروف التعليل في اللغة العربية.

ها نحن نموت
والطاغي. . والباغي
والناهش لحمَ بنيكِ،
المالىء دربك بالنارِ وبالعارِ وباللهبِ
قدّمتِ لهم رأسك في صحنٍ من ذهَبِ
بيروت
يا موتاً أكبر من تابوت
يا موتاً لن يعرف كيف يموت

١٩٩١/٤/١٠

كامل الجادرجي مصورا

تلك هي المرة الثانية التي تستعيدني فيها رحلة للماضي إلى صفحات مطوية من حياة رجل كبير، ما عرف العراق رجلاً سياسياً على مثل قامته في إيمانه بشعبه العراقي، وعلى مثل نزاهته وعلو خلقه وأهمية مكانته في تاريخ بلده، ذلك هو المرحوم كامل الجادرجي (١٨٩٧ - ١٩٦٨).

كانت الرحلة الأولى غب وفاته ويوم ان حمل إليّ نجله أخي وصديقي نصير الجادرجي مذكرات والده إلى بيروت لأشرف على طبعها في كتاب، فأتعهد له بذلك وبمراجعتها وتصحيح مسوداته، وهكذا كان وما كان أكثر من ذلك هو انني كنت أستعيد من خلال كل سطر من سطور مذكراته صورة هذا الرجل الذي عرفته عن كثب وجلست بين يديه مراراً وهو في حالة غضب على هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات أو هذا الحزب أو ذاك الحزب، لأنهم ما كانوا على مستوى المسؤولية المرجوة منهم، أو وهو في حالة رضا عن شعب يستيقظ من الغفوة ليبحث عن نفسه في تحقيق تطلعاته في الحرية والعدالة والمساواة، التي كان يدعو إليها حزبه «الوطن الديموقراطي»، بصلابة وبلا هوادة، متمثلاً شخصية رئيسه كامل الجادرجي الذي ما ساوم ولا مالأ في أي يوم من أيام حياته السياسية، ومنذ أن دخل معترك السياسة في العراق وهو في مطلع العشرينات من عمره وإلى يوم وفاته، وعلى كثرة من تملقوا له وسعوا إلى شرائه من الحكام الذين عرفهم العراق، ولقي، وهو ابن العائلة البرجوازية العريقة الكثير من السنين الطويلة في السجون، ومن المطاردات المتلاحقة له، ومن أيام لأيام سود أخرى في غرف التوقيف، ومن أوامر بغلق جريدته «الأهالي» من فترة إلى فترة.

والرحلة الثانية كانت يوم ان تفضل عليّ أخي وصديقي المهندس المعروف عربياً وعالمياً، نجله الأكبر رفعت الجادرجي، فبعث إليّ قبل عدة أيام كتابه الجديد عن هواية من هوايات والده العزيزة على نفسه، وهي هواية التصوير الفوتوغرافي، والكتاب صدر في لندن وباللغة الإنجليزية، وقد عُزز بالعديد من الصور التي التقطها كامل الجادرجي ما بين عامي ١٩٢٠

و١٩٤٠، ولا يعرف شيئاً عن هوايته هذه، غير قلة من أصدقائه ومريديه المقربين إليه أو ممن كانوا يشاركونه هذه الهواية من أبناء جيلنا كالفنان ناظم رمزي، أو من تحدث لهم بإيجاز عما يملك من آلات التصوير التي يعود تاريخ صنع بعضها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، أو خلال عودة إلى ذكريات قديمة احتفظت بها صورة من الصور التي التقطها يومذاك، وقد طرق سمعي شيء من مثل هذا الحديث يوم أن زرته بصحبة صديقي الدكتور الفنان خالد الجادر والشاعر المعروف مظفر النواب، قبل انقلاب عام ١٩٦٣، وحلمنا، ونحن نتحدث عن التصوير وآلات التصوير، برحلة نقوم بها معه إلى منطقة «الأهوار»، وربما سيكون له متسع لممارسة هذه الهواية العزيزة على نفسه.. ابتسم الرجل الكبير ولم يجب بشيء، وظن كل منا بأنه ربما سيوافق على مشروع الرحلة، إلا أن الأيام السود التي تلت ذلك اللقاء حالت حتى بيننا وبين أن نلتقي به ونستأنس بمجلسه مرة أخرى.

قدّم الأستاذ رفعت الجادرجي كتابه بدراسة موجزة عن تاريخ والده، وحيث أشار في تلك المقدمة إلى أبرز المنعطفات، التي مر بها، ورافقتها صور توثيقية عديدة لكامل الجادرجي وهو في عز شبابه عام ١٩٢٠، وصورة لسيارته الفارهة تعود لعام ١٩٣٢، ويوم كانت السيارات في بغداد تعد على أصابع اليد، وصورة لمكتبه المزدحم بالكتب والجرائد والأوراق والأقلام، وأخرى لمكتبته الضخمة التي استعرت منها في أوائل الستينات كتابين، كان الأول منهما، مخطوطة بقلم معروف الرصافي يتناول فيها بالحديث عن نسبه وخصائص من حياته، وقد نشرت في مجلة «الأديب العراقي» التي كانت تصدر عن «اتحاد الأدباء العراقيين»، وكنت من بعض المشرفين على تحريرها، وقد أعدت المخطوطة إلى الأخ نصير الجادرجي أما الكتاب الثاني فهو، كما أتذكر، للكاتب اللبناني يوسف ابراهيم يزبك وقد فُقد مني، ولا أدري كيف حدث ذلك... وثمة إشارات في المقدمة إلى «مجلس السبت» الذي كان ينعقد أسبوعياً في داره، وحيث كان الجادرجي يلتقي فيه إلى أقطاب المعارضة العراقية في الخمسينات من هذا القرن، وحيث الجدل والحوار والتعليقات على الوضع في العراق تمد بالجلسة إلى ساعات وساعات، وبين فترة وأخرى كان نجله الأصغر يقظان الجادرجي يسرب إلى داري المحاذية لدارهم بعض ما كان قد دار في تلك الجلسات.

ثم يترك الأستاذ رفعت للصور الفوتوغرافية أن تتحدث عن نفسها، وعن عراق الأمس، أرضه وناسها وآثارها، وهو حديث إن دلّ على شيء فعلى عمق حساسية هذا الرجل، وعمق ما كان يكنه من محبة لبلده، وحيث جعل من عدسة آلات التصوير مدخلاً آخر لاستكناه مآسيه وفقره وآلام شعبه، وتسجيل الصناعات التي كانت تمارس آنذاك. وثمة صورة عن زقاق يهودي في القدس، وأخرى لامرأة تجتاز شارعاً في قرية سورية، وكلتا الصورتين تعودان إلى عام ١٩٣٠، ومن جميل ما احتضن الكتاب صورة لطفل عراقي على جانب كبير من الفقر والإدقاع بحيث لم يتسع للخرقة البالية أن تستر إلا جزءاً قليلاً من جسده العاري.. ولمثل هذه الصورة اخوات واخوات.

إنه رصد لواقع العراق، وهو الرصد الذي لا بد من أن نعود إليه غير مرّة لاستقراء ذلك الواقع، واستقراء خصوصيات هذا الرجل الكبير من خلالها.

١٩٩١/١٠/٨

.. وأمس رحل عنا
نجيب المانع

يقول الكاتب الفرنسي انطوان اكسوبري، والذي صارت لنا في الأربعينات، من كتابه «الطيران الليلي» و«أرض البشر» محطات صغيرة ذات أضواء شاعرية هامسة، ملأت ذاكرة العديدين منا لسنوات وسنوات، يقول وهو يرثي صديقه «جيوميه»: «عندما نفقد أصدقاءنا الواحد تلو الآخر عند ذاك فقط سنشعر بالهرم».

وقد داهمني هذا الهرم مبكراً يوم فقدت جواد سليم وهو في الأربعين من عمره عام ١٩٦١، ويوم توفي بدر شاكر السياب في الغربة عام ١٩٦٤، وهو في الثامنة والثلاثين من العمر، ويوم رحل عنا حسين مردان ونزار سليم وخالد الرحال. وكان علي وفي كل مرة أقف على حافة حفرة عميقة تواري واحداً منهم أو وأنا أعود إلى رسائلهم أن أوغل أكثر فأكثر في الهرم فعندما نفقد أصدقاءنا الواحد تلو الآخر عند ذاك فقط سنشعر بالهرم.

وأمس كتب علي أن أشيع نعش واحد آخر من هؤلاء الأصدقاء الذين التقوا في منتصف الأربعينات على كثير من الرغبة في أن يظلوا أحياء في ذاكرة تاريخ العراق الحديث.. وكتب علي أن أقف على حفرته العميقة في مقبرة بريطانية وأن أرى التراب اللزج يهال على جدث نجيب المانع. الصديق الذي كانت ولادته الأولى معي ومع بدر السياب ونزار سليم وخالد الرحال عام ١٩٢٦، وولد معنا ثانية بعد عشرين عاماً ونحن نبحث عن عراقنا الحضاري في تطلعات كبيرة وأحلام رائعة ودروب صغيرة في الجديد الذي نريده، ونحمله معنا من مقهى إلى مقهى، ومن غرفة ضيقة لأخرى أكثر ضيقاً، وبين تلك وتلك كانت غرفة نجيب المانع القابعة في حي «العيواضية» ببغداد، نمر بها من يوم لآخر لنسحبه سحباً منها ومن بين أحضان موسيقاه الكلاسيكية، ونلقي بالكتاب الذي بين يديه جانباً، وهو عادة كتاب في الموسيقى أو الأدب أو الفلسفة، ونادراً ما يكون كتاباً في منهج دراسته إلا في أيام الامتحانات وقد لا نفلح في بعض الأحيان حيث يفرض علينا أن نستمع معه إلى آخر ما وقع إليه من قيادة جديدة للسمفونية التاسعة لبتهوفن، ولنستمع إليه وهو يشرح بدقة عجيبة الفروق الجزئية ما بين هذه النسخة وما بين النسخ الأخرى.

وسمة غرف نجيب الدائمة، هي هي.. كتب متراكمة على بعضها البعض واسطوانات هنا وهناك حتى لتخشى أن تجلس على احداها خطأ فترتكب محظوراً لن يغفره لك، وكانت غرفة «العيواضية» أصغر الغرف التي عرفها نجيب المانع وأكثرها حرارة عبر ما كانت تتأرجح فيها من حماسته للمفكر الذي يريد أن يكونه والكتاب الذي يحلم بكتابته والناقد الذي نسترشد به في طريقنا إلى جديدنا وعبر ما كان يتردد فيها من أصداء حواراتنا وصراعاتنا ونقاشاتنا المتشنجة في بعض الأحيان.

تعرفت إليه عن طريق بدر شاكر السياب، شاباً طويل القامة ذا شعر شديد السواد حلو الطلعة لطيف المعشر حاضر البديهة عميقاً في ملاحظاته واستنتاجاته يبدو على جانب كبير من الخجل حيناً وعلى جانب كبير من الصراحة القاسية في أحيان أخرى وخاصة عندما ترتسم على جانبي شفتيه ابتسامته المتهكمة والساخرة.

صار من بعض شلتنا لا يفارقنا ولا نفارقه وصار لنا أن نسمع منه عما وصل من كتب جديدة إلى مكتبة «الرابطة» باللغتين الإنجليزية والفرنسية.. اليوم وصل «يولسس» لجويس.. مؤلفات أفلاطون الكاملة.. فرويد.. «الحرب والسلم» لتولستوي وفي كل يوم يضيف إلى ذاكرتنا أسماء جديدة: إليوت، أودن، عزرا باوند، كافكا، كامو، سارتر.. وكان يشاركه في هذه المهمة صديق آخر من شلتنا هو عدنان رؤوف، وصديق آخر هو حسين هداوي.. وكنا نحاول نحن الآخرين ومن خلال ما نقع إليه من انطباعاتهم وآرائهم في الذي يقرأون فيه إلى ما يمكن أن نوظفه في جديدنا يومذاك «حيث كانت بغداد منتصف الأربعينات مكاناً صغيراً نسبياً وبعيداً عن مراكز الثقافة الأوروبية، أشخاص قليلون في بغداد كان بإمكانهم التمتع بالقراءة بلغات أجنبية وبسهولة ذلك ان هذه اللغات الأجنبية الإنجليزية والفرنسية بالذات، كانت لغات التجارة والصيرفة تبرز أهميتها عند التقدم بطلب للعمل في بنك أو في شركة ذات ملكية أجنبية ـ نسيم رجوان ـ المشرف يومذاك على مكتبة الرابطة».

وننتقل من مقاهينا الشعبية، إلى «المقهى السويسري» المصمم على النمط الأوروبي ونخلد إليه لساعات وساعات ونحن نستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ونتحدث ونتحرك ما بين كراسيه بكثير من الهدوء حتى إذا ما حل المساء حملنا أنفسنا إلى المقاهي المنتشرة على شارع «أبي نواس» المطل على دجلة لنبدأ حوارنا الحار والصاخب عما نحن فيه من تخلف وعما يجب أن نتطلع إليه ويبقى نجيب دائماً هو مصدر الإثارة في هذا الحوار الذي يطول ويطول إلى ساعات متأخرة بعد منتصف الليل ويبقى قياس صداقته لأي منا محدوداً بمدى ثقافتنا فالصداقة تكافؤ في الروح والفكر ولذلك كان لا يطيق الجلوس طويلاً مع من هم دونه وعياً بأهمية الثقافة حتى ولو كانوا شعراء أو فنانين.

وإذا كان الكثيرون منا يومذاك يبنون طموحاتهم على مستوى قدراتهم فقد كان طموح نجيب المانع وعدنان رؤوف أكبر من ذلك بكثير، وهو ما أوسع الأبواب أمامهما لمزيد من المتابعة الجادة في تعميق ثقافتهما الموسوعية وهو ما انعكس علينا منها في اعتمادها الرؤية النقدية التي علينا أن نتعايش معها، فما كنت أكتب شيئاً، وإلى يوم أمس، إلا وتساءلت عما يمكن أن

يكون رأي نجيب أو عدنان في الذي كتبته، وهو الطموح أيضاً الذي أوقع هذين الصـديقين في صراع عميق ومتواصل مع ما كتبوه ومع ما كان عليهما أن يكتبوه.

وتشت بنا الدنيا إلى غير مكان من الأرض، وتتسع عذابات نجيب المـانع وتعمق خيبـاته، كنا معاً في بيروت، ثم في لندن وبين دارينا مسافات لا نعيها إلا من خلال عـذاباتنـا اليوميـة التي رفعت من حدة توتراتنا النفسية فما أن نجتمع على كثير من الود الذي يشدنـا إلى ماضينـا الرائع، إلا ونختلف على شأن في الذي كتبته أو في الذي كتبه.. وكنا كلما التقينا نحـاول أن نستقرىء في وجه كل منا عمن هرم أكثر من الآخر بعد كل الذي فقـدنا من أصـدقاء وآمـال وتطلعات وبلد كان من بعض أحلامنا الكبيرة.

مزقت العنوان.. وأرقام الهاتف
والسهم الموصل للبيت
فأنا أعرف أنك لن تأتي الليلة.. لن تأتي
وسأسهر وحدي
وأنازع وحدي
وأجفف صوتي قرب الموقد في صمت
ولوحدي
فأنا أعرف أنك لن تأتي
حسبك ان لا موت وراء الموت
فلماذا تسأل عمن عندي
وما عندي.. ولماذا تأتي

سلاماً عليك أيها المفكر الكبير والذي سيظل كبيراً في ذاكرة كل من عرفه ومن قرأ له وكل من سيؤرخ له كواحد من أكبر مثقفينا المعاصرين.

١٩٩١/١١/٢٠

ما أتعس أن تعيش
وأنت مملوء بالموت

تلك هي المرة الثالثة التي كُتب عليّ أن أضم كفي على حفنة من تراب مبلول وأرمي بها على جدث صديق حميم مات في الغربة، واحتضنت جثمانه مقبرة بريطانية، وعلى مقربة من عشرات القبور التي غارت فيها جثث لعرب ومسلمين، ماتوا بعيدين عن أوطانهم، ولم يستطيعوا أن يعودوا إليها، حتى وهم أموات.

كان الأول من هؤلاء الفنان ناجي العلي، الذي اخترقت حياته رصاصة آثمة، لتُعلن لنا جميعاً بأن لا مجال للضحك ولا للبكاء بعد اليوم، وأن علينا أن نفرغ عيوننا من أي حس إنساني، وتركت تلك الرصاصة الآثمة، بين يدينا وليده اليتيم «حنظلة» ليمد بحياتيهما إلى حياة كل الذين عرفوهما وجهين رائعين لقضية واحدة، عاشا من أجلها ومن أجلها سيبقيان أحياء فينا وفي أولادنا وأحفادنا.

أعرف أن القاتل إذ يستنجدُ
بالمقتولْ
يُوسعِ في ذاكرة الدنيا
خبراً عن زمن مجهول
عن زمن
يتمنى القاتل لو كان هو المقتول

ومات الثاني من هؤلاء الأصدقاء الثلاثة، كما حلم دائماً أن يموت، وهو يقرأ في كتاب أثير على نفسه، ولعله كان «لبروست» التي امتدت صحبته له لسنوات وسنوات طويلة، حتى صار وكأنه من أبناء حيه الباريسي. مات وكان بين يديه كتاب.. مات، وكما حلم دائماً، وهو يستمع إلى موسيقييه المفضلين، وليس بينهم من هو أهم من «موتزرت»، في نظره، بساطته وسحره وصفائه.. وربما كان يستمع إلى «عروس فيغارو» عندما مات نجيب المانع.

سأعانق ظلي
وأنام لأحلم بالرحلة شتّ
بها السر
فأنت البحرُ
وأنت الزورق والنوتي
وأنت المجذافْ
وأن وراء ضفاف الموت تظل ضفاف.

وأمس رحلت عنا نهى سمارة لا كما رحل ناجي العلي التي حلمت أن تموت ميتته، منذ أن هُجّرت عن فلسطين ويكون لدمها أن يغرز وعداً لكل الفلسطينيين، ولا ماتت كما مات نجيب المانع، وهي منكبة على صفحات رواية جديدة تكتبها، ماتت وعيناها عالقتان في كهف أسود. . ماتت وعيناها مفتوحتان على الموت. . ماتت ولم يستطع أن يسير وراء جنازتها غير ست صديقات حميات ورجل هرم واحد. . وكانت الحفرة التي نزلت فيها على مسافة أمتار من القبر الذي ضم رفات ناجي العلي.

يوم أن تعرفتُ إلى نهى سمارة وذلك قبل ما نيف على ربع قرن، كانت في أوائل العشرينات من عمرها، صبية جميلة وأجمل ما فيها أنها كانت تتفجّر بالحياة، وتعلن بصخب أخّاذ عن طموحاتها الرائعة في أن تكون على مستوى ما تحلم أن تكونه، في هذه القاصّة وتلك الصحفية، وربما في الذي هو أكبر من ذلك.

وكانت بيروت يومذاك، البيت الدافىء الذي آل على نفسه أن يكون البيت ذا الأبواب العديدة والمفتوحة لكل الرياح القادمة من غير مكان ومكان من العالم، وكان للكثيرين منا، أدباء وشعراء ومفكرين، أن يجدوا أنفسهم في الباب الذي يريدون أن يكونوا فيه، وبعيدين عن بيوت الأنظمة ذات الباب الواحد.

في هذا المناخ البيروتي المفعم بالحرية الفردية لمعت اسماء الكثيرين من الأدباء والفنانين الهاربين إليها من غير بلد عربي، وكانت بيروت لا تنفكّ تبشّر كل يوم بولادة شاعر جديد أو كاتبة جديدة أو فنان يعد بعطاء كبير، وكان اسم «نهى سمارة» واحداً من تلك الاسماء التي أمنت لأدبها فرادته منذ أول عمل قصصي لها، في الستينات وأوائل جهودها الصحفية.

يومذاك تعرفت إليها في أبعد أحلامها الملأى بروح المغامرة بكل شيء ولكن من أجل شيء جدير بالمغامرة، بالمغامرة لحد الموت، فما أروع أن يموت الأنسان وهو مملوء بالحياة، أو مملوء بحياة الآخرين الذين هم حريون بأن يموت الواحد منا ليمد بأعمارهم.

من خلال هذه الرؤية كانت تتنفس نسائم مدينتها الفلسطينية الضائعة في الضباب. . ومن خلال هذه الرؤية الإنسانية كانت تركض لاهثة وراء كل ما يعزز ثقتها بأولئك الرجال والنساء والأطفال الذين دأبوا أن يعرفوا الموت طريقاً للحياة، وآمنوا بأن الذي يغرسونه في

جثتهم المدماة في أرضهم، سيكون لها أن تكبر من تلك النواة شجرة فارعة في التاريخ.

ولم يخطر ببال نهى سمارة، وهي في عز عطائها أنها ستسمع من يقول لها وبصوت جاف: بأن حياتها لن تمتد إلّا لعام واحد وبعض عام إن سمح لها الطب بذلك.. وأنها بعيدة عن كل أحلامها في أن تموت وهي مملوءة بالحياة، وأن عليها أن تعيش ما بقي لها من أيام وهي مملوءة بالموت، ومع ذلك فقد ردت بصوت لا يخلو من إرادة فذّة: شكراً.. دكتور.. والحمد لله لعلني استطيع أن أُحقق شيئاً خلال هذا الزمن الميت.

ومن طبيب إلى طبيب، ومن غرفة في هذه المستشفى إلى غرفة في مستشفى آخر، كانت الفترة تزداد اختزالاً لنفسها، ويزداد جسدها ضموراً وذبولاً حتى لم يبق من نهى سمارة إلّا جلد واهٍ وعظم منخوب وعينان غائرتان، وحديث متقطع عن ذكريات أيام شبابها، تحاول جاهدة أن تمد بعمرها من خلال استرجاعها.. وتبهت بسمتها، ويرتفع إلى جزء من أجزاء جسدها الذائب.. ويرتفع عدد أقراص النوم والأقراص المهدئة للألم الخبيث، وازدادت الحلقة ضيقاً، فلم يعد أمامها غير فترة قصيرة وقصيرة جداً.. كما قال لها الطبيب في آخر لقاء لها به: أيام معدودات.. ربما أسبوع.

يلجم الصمت لسانها فلا تتحدث إلّا ببعض كلمات.. ثم تنام لساعات وساعات.. ثم تنام ولا تستيقظ.

وأمام أعين صديقاتها الحميمات التي بدأت مع بعضهنّ رحلتها الأدبية والصحافية في بيروت الستينات، هبطت نهى سمارة إلى بيتها الضيق الأخير.. في تلك المقبرة الإنجليزية الخضراء.. وإلى جوارها عشرات القبور لعرب ومسلمين ممن جاؤوا من أقاصي الدنيا السوداء ليموتوا في لندن.

قلت في نفسي وأنا أُودّعها الوداع الأخير، عبر حفنة من التراب اللزج التي القيتها على جدثها.. قلت: من يدري؟ فقد تعقد مع بعضهم صداقات جديدة، فمن أروع ما في نهى سمارة هي تلك القدرة على عقد الصداقات الحميمة والعميقة، وهي الصداقات التي سنظل نعيش فيها معها.

١٩٩٢/٧/١٤

في العودة
إلى الزمن الهش

حدث ذلك قبل أكثر من أربعين عاماً، ويوم أن كان العالم قد سقط منهكاً وهو يلعق جراحه وما خلفته الحرب العالمية الثانية من ويلات ودمار وكان ثمة أنين وصراخ وعويل يتسلل إلينا من خلال ركام أوروبا، شعراً ونثراً كالشعر وقصصاً ملأى بالثورة والنقمة والشبق وبكل ما يدهش ويثير، وكنا عبر ذلك كله نسعى لأن نجد لما تراكم في أنفسنا من خيبة وهلع وقلق، متسعاً في الأدب والفن نسقط عليه ظلالنا الهزيلة المتشنجة.

وكان العالم آنذاك يتحدث بصوت غاضب عن مجزرة رهيبة حدثت في هيروشيما، وعن انتحار الكاتب الألماني ستيفان سفايج في البرازيل بعد أن فقد ثقته بعالم الغد، وعن ضرب من جنون الفكرة الثابتة الذي أصاب هتلر وجرّ البشرية إلى كارثة فظيعة، وعن طالب بعث برسالة إلى الرئيس الأميركي يسأله عما «إذا كان عليّ أن أتم دراستي بعد أن اخترعتم القنبلة الذرية»، وعن تاجر في بغداد كان يخلط الدقيق بنشارة الخشب، وعن مجاعة هنا وهناك وفي كل مكان، وكان لنا وقتنا الضائع ونحن نبحث عن هويتنا في شعر جديد.

ولشد ما كان يبدو الزمن هشّاً بين أيدينا في تلك الأيام حتى أنّا لم نكن لنتعرف عليه إلاّ عندما يفرضه الآخرون علينا عبر ساعاتهم المشدودة بإحكام إلى معاصمهم وبثقة من يريد أن يقيس سني حياته لحظة لحظة وربما بملاعق الشاي الصغيرة التي تحدث عنها ت. اس. إليوت. كانت الصدف هي التي أوكلنا إليها ترتيب لقاءتنا، فقد تعودنا أن نخرج على غير هدف مقصود، فأقع إلى بدر السيّاب في هذه المقهى أو إلى البياتي في تلك المقهى أو في منعطف زقاق، وكثيراً ما كنا نتطاول على مقهى الجواهري لنعكر صفو الشعراء الكبار ونثير حفيظتهم ضد شعرنا الحديث. وأحياناً كنت أزور السيّاب على موعد فلا أجده لأنه نسي الموعد والزمن والساعة، ومع ذلك لم أكن لأتحمس لمؤاخذته أو لومه، فأي ضير في الأمر ما دمنا سنلتقي حتماً وسيكون لنا أن نقضي ردحاً من نهارنا وهزيعاً من الليل سوية نراجع فيه قصيدة جديدة أو نتواصل مع حديث يكر بحماسة وانفعال حيناً فترتجف يداه وتتزم شفتاه وقد نفترق

غاضبين، أو يكون لواحد منا أن يميل بالحديث إلى اغتياب صديق من أصدقائنا فننجرف معه، أو يعيد طريفة سمعناها عشرات المرات وفي كل مرة كنا نضحك كما لو أننا نسمعها لأول مرة.

كنا نحس بالنهار طويلاً لحد الملل، نحمله كصخرة سيزيف ثقيلاً مرهقاً لنراه في آخره وقد انفلت من بين أصابعنا فنتأوه لعذاب نهار جديد، ومن جانب آخر كنا نحس بالسنين والأشهر قصيرة وقصيرة جداً، إنه الزمن الفارغ يمد بالنهار حتى لتخاله عاماً، ويختزل الأعوام والأشهر وكأنها بعض يوم، لم نجترح فيه غير حوادث قليلة، بعضها أثر من كتاب أو فيلم، وبعضها لفتة من فتاة أو رسالة من معجب أو مقال من مُغرض أو سهرة طالت على أمل أن نرى الشمس وهي تشرق في الصباح وتغمر دجلة بألوانها الذهبية. كان زمننا هشّاً كبطن ضفدعة، لزجاً ومترهلاً، وقد تعوّد أن يدحرج كرشه أمامه ويتسكع معنا في شوارع بغداد القائظة، متنقلاً من مقهى إلى مقهى ومن شارع إلى شارع، وكثيراً ما كان يتسلل إلى قصائدنا حافي القدمين وحذراً ولا نشعر به إلا عندما تعلن المدينة أنها أغلقت كل أبوابها دوننا.

لم يكن هذا الزمن غير مجرد وقت خارجي نسجل به وعينا بالذات لا وعينا بالتاريخ، ومرة واحدة فقط أحس بدر بضرورة أن يكون لنا تاريخ موثّق بأرقام كبيرة فالتفت إلى واحد من أصدقائنا، وصمت للحظة وكأنه وقع إلى سر من أسرار مسيرة التاريخ الغامضة وقال:

ـ أنت أيضاً من مواليد ١٩٢٦ أليس كذلك؟ تصور كلنا من مواليد هذا العام خالد الرحال ونزار سليم وبلند ورفعة الجادرجي وحسين مردان و. . . و. . . أن العبقرية ولدت في العراق عام ١٩٢٦.

فقاطعته، وأنا أعرف أنه لم يكن على كثير ود آنذاك مع البياتي، قائلاً:

ـ ولكن فاتك اسم صديقنا عبد الوهاب البياتي فهو أيضاً من مواليد هذا العام.

ضحك بخبث وقال: كلا. . كلا. . إنك مخطىء فالبياتي ولد إما في عام ١٩٢٥ أو ١٩٢٧ ولا يمكن أن يكون قد ولد معنا، وإذا تصر فأنت أيضاً من مواليد ١٩٢٥ أو ١٩٢٧.

رحم الله السيّاب وجواد سليم وقتيبة الشيخ نوري ونزار سليم وحسين مردان ونجيب المانع. . وآخرين وآخرين. . وعسى أن يكون لنا وعد بلقاء آخر كما علّمنا أهلي أن نتمنى ذلك.

١٩٩٢/٨/١١

... ومات القاتل قبل المقتول

خلال الأيام القريبة الماضية مرت الذكرى الخامسة على الجريمة الدنيئة التي جاءت على حياة واحد من كبار فناني الكاريكاتور العالميين، كان أن استعاد أصدقاؤه، أصدقاء ناجي العلي، المتوزعون منفيين في الأراضي العربية وفي العالم، ذكراه عبر معارض وأمسيات شعرية وغنائية، وكانت للندن حصتها في هذا الاحتفاء حيث أقيم في «جاليري الكوفة» معرض خاص بهذه المناسبة أسهم فيه فنانون كبار من العالم العربي وفنانون أجانب تعاطفوا معه، وكانت أمسية شعرية وغنائية في الجاليري نفسه، وكان أن أعدت «القنال ٤» البريطانية ندوة عن هذا الفنان الذي رحل قسراً، وأبقى لنا من خلود أعماله ما نجدد به حياتنا من يوم لآخر.

في عام ١٩٦٩، ولد حنظلة، وولد معه ناجي العلي في بُعد جديد «التقيت صدفة بالرسام ناجي، كاره شغله لأنه مش عارف يرسم. . وشرح لي السبب. . وكيف كل ما رسم عن بلد، السفارة بتحتج والإرشاد والأنباء بتنذر. . . بيرسم عن علتان شرحه. . قللي الناس كلها أوادم. . صاروا ملايكه. . والأمور ما فيش أحسن من هيك. . وبهالحالة عن شو بدي أرسم بدي أعيش. . . وقلتله إني مستعد أرسم عنه الكاريكاتير كل يوم وفهمته إني ما بخاف من حدا غير الله».

وهكذا. . ومن خطوط وأشكال ناجي العلي المرهفة والملأى بالعذابات الكبيرة ولد «حنظلة من عين الحلوة. . أمي من فلسطين وأبي من فلسطين» و«بنفس قومي ذي طابع إنساني» ولم يكن لحنظلة الذي وكأنه طغرائية لتوقيع ناجي العلي، أن يعي قضيته إلاّ بصفة من إنسانيته، وأن رهافة أحساسه وشدة وعيه بمأساته في أرضه المسلوبة ووطنه الممزق وإنسانيته المسحوقة لم تتح لحنظلة إلاّ أن يولد في معنى من مرارة ثمرة «الحنظل». . طفلاً في شكله وكرمز لبراءة الطفل وصدقه في شاهد عدل. . عميقاً في نكاته السود التي أفردت ناجي العلي رائداً لنهج كاريكاتوري متميز بتعبيراته التي تمازج ما بين كثافة عتمة واقعه من ناحية، وبين الإضاءات

الخفية في الإصرار على مقاومة ذلك الواقع من ناحية ثانية، فالنكتة السوداء عنده «تهدف إلى شحن الناس، استنفارهم، تحريضهم.. فأنا الشاهد المأسوي على سواد الحالة التي نعيش» وهو بقدر ما يؤكد مشاعر الخيبة عبر شخوصه النمطية، وعلى الأخص «حنظلة» الصغير، المتمثلة فيه هموم الأمة المغلوبة على أمرها، والملجومة، يؤكدها ضميراً لا يعرف المساومة ولا المداهنة والمداجاة للظروف القاسية المحيطة بها، ويعزز من قدرتها على مراقبة كل شيء يقع أمامها وخلفها.. وقدرتها على الصبر الطويل ورفضها لكل أنواع الاستسلام المذل «.. إني أضع أطفالاً أصحاء، بلا تشويه وليسوا معاقين.. أشعر أن لا حدود تعترض خطوطي الساخرة والحزينة.. نكتي السوداء تلغي الحدود، تخترقها.. وربما تتمزق في شراكها لكنها ستظل تلد أطفالاً أصحاء».

كان ناجي العلي يسعى دائماً لأن يجترح لنفسه خصوصية أسلوبه والتي تنأى به حتى عن الفنانين المماثلين له في الدعوة، كجماعة مدرسة «توبور» الفرنسي المبشرة بكاريكاتور «الضحكة السوداء»، ذلك لأنه أصلاً لا يريد أن يضحك أحداً، بل أن يستفز عواطفه ومشاعره إلى أقصى حد ممكن ومن خلال تعميق إحساسنا بقضية إنسانية جوهرية توحدنا في الألم والتطلع.. «.. فالحزن هو الغالب على انفعالاتي.. وأدّعي أنه الغالب على انفعالات الشعب العربي كله». وهو ما يدفع به إلى المزاوجة ما بين التخطيط الواقعي لبعض شخصياته، وبين التخطيط التحريفي والتشويهي لشخصيات تقابلها في الاتجاه المضاد.

ويظل «حنظلة» الرمز المتحرك بين كل رموز لوحاته المتعددة، والرمز الذي يتأكد في أنه البؤرة التي تجتمع إليها كل الرموز الأخرى، عبر كونه طفلاً أدار لنا ظهره ليكون لأي منا أن يسقط نفسه عليه من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه أراد أن يوحي بأنه واثق بنا ولن نطعنه من الخلف، وأنه إذ يعقد ذراعيه خلف ظهره كلازمة تكرارية في كل أعماله تقريباً، يشير بذلك إلى الكثيرين ممن ما زالوا ينتظرون أن يجد شيء يخرج بهم من هذا الواقع المأسوي.

إن ميزة ناجي العلي هو أنه فنان انتقائي، تعرّف إلى مفردات أشكاله واستنبط مداليلها بوعيه الشخصي بها وتعاطفه معها، فكما لم يتح لهذا اللاجىء الفلسطيني، والمتشرد الفلسطيني أن يتعلم أصول الرسم في معاهده، أو أن يدرس المسرح ـ كما كان يحلم في بدايات حياته ـ ويجرب صوته على مدارجه، لم يكتب له أن يتواصل مع تجارب الكاريكاتوريين في معنى في الدرس أو المتابعة أو التقليد، وأن أبطاله المعدودين على أصابع اليد الواحدة، نبعوا من صميم بيئته وواقعهم، فكان لبعضهم أن انكفأوا معه على آلامهم يجترونها، وكان لبعضهم الآخر أن تطلعوا معه إلى غدهم بشيء من التفاؤل، دون أن يذكّرك أي منهم بأنه استلف شيئاً من ملامحه من فنان آخر..

ما أغبى هؤلاء الذين يظنون بأن رصاصة واحدة يمكن أن تقضي على رجل أصبحت حياته جزءاً من حياة الآخرين.

أعرف أن القاتل إذ يستنجدُ،

بالمقتول
يوسع في ذاكرة الدنيا
خبراً عن زمن مجهول
عن زمن يتمنى القاتل لو كان
هو المقتول.

١٩٩٢/١١/١١

كوران
شاعر لن أنساه

في الثامن عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٢ كان أن مرت الذكرى الثلاثون على وفاة الشاعر الكردي الكبير عبد الله كوران، وإذا كان قد كتب عليّ أن أشهد الفصل الأخير من حياة هذا الشاعر، وهو يحمل موته البطيء بين طيات جسده الهزيل، فقد قيض لي أن أشهد ولادتي بين يديه في الشاعر الذي أريد أن أكونه أو أحلم بأن أكونه.

كنت يومذاك في الثالثة عشرة من عمري، وكان قد عودني مدير مدرستي الابتدائية في مدينة «السليمانية» في كردستان العراق أن ألقي في باحة المدرسة من حين لآخر ما كنت قد قرزمت من كلمات مرصوفة ومقفاة على الطلاب قبل دق الجرس المؤذن بدخول الصفوف، كنت أكتبها باللغة الكردية حيناً وباللغة العربية في حين آخر، وقد وجد مدير المدرسة في ذلك ما يؤكد مرماه في أن نجيد اللغتين معاً.

وذات صباح فوجئت، بأن استدعاني إلى غرفته، وكنت قد وصلت المدرسة تواً وما زالت آثار الثلج عالقة بحذائي وملابسي جراء المسافة الطويلة ما بين داري والمدرسة والتي كان عليّ أن أقطعها مشياً رغم الثلج المتراكم في الشوارع، استدعاني ولم أكن قد بدأت بتجفيف حذائي على المدفأة الحديدية المنتصبة في صفنا كما كنا نفعل دائماً في مثل هذه الأيام المثلجة.

ما كدت أدخل غرفته حتى قام لاستقبالي هاشاً باشاً ليقدمني إلى رجل نحيف الجسم معروق الوجه وبصفتي شاعر المدرسة الذي يكتب باللغتين الكردية والعربية.. وقال لي بصوت مسرحي بأنني أمام أكبر الشعراء الأكراد.. إنه عبد الله كوران.. ألم تسمع به، ولم أكن قد سمعت به ولكنني مع ذلك قلت وأنا أتلعثم: بأنني أعرفه أنه إكبر الشعراء الأكراد.

أجلسني الرجل إلى جنبه، وطلب إليّ أن أقرأ عليه بضع ما أكتب من شعر، فقرأت وأنا أتأمل انطباعاته على وجهه، ربت على كتفي وشجعني، ثم حدثني عن جدي ابراهيم الحيدري، شيخ الإسلام: كان شاعراً ولكنه لم يتفرغ للشعر.. ثم أضاف: أنتم أكراد.. لا

تنس ذلك.. وانتهت المقابلة التي ظللت أتحدث عنها في المدرسة والبيت والجيران بكثير من الزهو والافتخار.

ويأثر من هذه الصورة الحبيبة إلى قلبي بقيت أتسقط أخباره وهو ينتقل من نفي إلى نفي ومن سجن إلى سجن ومن عذاب إلى عذاب، حتى كان لي أن التقيته في عام ١٩٥٦ ببغداد، على ما اذكر، إذ زرته بصحبة قريب لي وحملت إليه ديواني «خفقة الطين» الذي صدر عام ١٩٤٦ و«أغاني المدينة الميتة» الذي صدر عام ١٩٥١، فسرّ بهما، وتذكر لقاءنا الأول، وهو يقول بأنه كان يتنبأ لي بأن أكون شاعراً معروفاً: وها أنت اليوم شاعر معروف، وباعتداد كبير بكرديته أضاف: كل شعراء العراق أكراد: الزهاوي، الرصافي، ومن يدري قد يضاف اسمك إلى اسميهما. شددت على يديه بقوة وشدّ على يدي بوهن وضعف، ورغم أنه لم يكن، كما أظن، قد تجاوز سنه الخمسين يومذاك إلا بسنة واحدة وبعض سنة. ووعد واحدنا الآخر بلقاءات ولقاءات وهي اللقاءات التي لم تحدث إلا مرة واحدة عند شاعرنا الكبير محمد مهدي الجواهري الذي كان يكن له إعجاباً لا نظير له.

وفي عام ١٩٦١، ونحن في الهيئة الادارية لـ«اتحاد الأدباء العراقيين» حمل إلينا أحد أعضاء الهيئة، نبأ مرضه، وشكواه المستمرة من آلام في المعدة، فأجمعنا على ضرورة معالجته على حساب الاتحاد، وتحمس لذلك رئيس الاتحاد، الجواهري، وعلق آخر بأن الرجل مصاب بالسرطان ولا بد من المبادرة السريعة لعلاجه، وكان عليَّ أن أفاتح الدكتور رافد أديب ـ أمدّ الله بعمره ـ وهو يومذاك من كبار الجراحين المعروفين، فرحّب الرجل بأن يراه وأن يتكفل بإجراء ما يجب عليه أن يقوم به لإنقاذ حياته.. وفي اليوم الثاني التقاه وقام بفحصه فحصاً دقيقاً، قرر بعده أن تجرى العملية الجراحية له بأقصى سرعة ممكنة، وأجريت العملية في مستشفى «فيضي» ببغداد وتكللت بالنجاح، وعندما زرته وجلست على حافة سريره لم يبد لي بأنه متفائل: فالمرض خبيث يا بلند.. وصديقك الدكتور رافد رجل رائع.. هل صحيح أنه لن يتقاضى من الاتحاد أي مبلغ لقاء عمله..؟

ـ نعم لن يتقاضى أي مبلغ.

ـ والمستشفى..؟

ـ المبلغ زهيد والاتحاد سيتكفل بذلك.

ـ أريد أن أخرج من المستشفى بالسرعة الممكنة لكي لا أكلفكم المزيد مما تحملتموه.

وبالفعل لم يبق في المستشفى إلا لأيام معدودات، غادرها بعدها وهو على شيء من الاطمئنان بأثر مما كان يسمع منا عن نجاح العملية وعن قدرة الدكتور رافد أديب.. إلا أن هذا الاطمئنان لم يدم طويلاً إذ سرعان ما عادت إليه آلامه المضنية، فتعاون جميع معارفه ومحبيه لإرساله للمعالجة في موسكو، ومن موسكو كانت الأخبار تردنا عن تردي صحته أكثر فأكثر. ويوم أن عاد إلى بغداد، كان يبدو أن كل شيء قد انتهى، وأن الرجل الكبير على كثير استعداد لتقبل موته، بطلاً وكما كان في كل أيام حياته بطلاً فذاً وشاعراً فذاً.

وفي «السليمانية» وعلى مقربة من المدينة التي ولد فيها «حلبجة» والتي ضربها صدام حسين عام ١٩٨٨ بالأسلحة الكيماوية ليقضي على الآلاف من أبنائها، مات عبد الله كوران، ولم يمت إذ لا يزال حياً في ذاكرة كل الذين عرفوه إنساناً كبيراً ومناضلاً وشاعراً كبيراً.

١٩٩٣/١/٢٠

في ذكرى
قتيبة الشيخ نوري

بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لرحيله، واحتفاء «جمعية الفنانين العراقيين في بريطانيا» بها.
في «جاليري الكوفة» في ١٩٩٣/٢/١١

كان الدكتور قتيبة الشيخ نوري، الصديق الأشد قرباً إلى نفسي، كما كان كذلك لغير واحد من أصدقائه الذين أدركوه في الطبيب الذي من كبير همه أن يخفف عن الآخرين همومهم وليصيروا من بعض همومه، أو الذين أدركوه في الفنان الذي وعى فنه في الذي يتجاوز به ظواهر الأشياء ليعيها في جوهرها التجريدي والإنساني معاً. . وأدركوه في الشخصية الوطنية العراقية التي ما مالأت ولا داجت ولا ساومت ولا تاجرت بمواقفها السياسية مطلقاً.

ولقد عرفت الحركة التشكيلية في العراق، ومنذ قيام «جمعية أصدقاء الفن» عام ١٩٤١، نخبة من الفنانين الهواة ومحبي الفن الذين تعاطفوا معها. . وقد كان لهذه العلاقات أن توطدت بعد الخمسينات وغب قيام «جماعة الرواد» ومن ثم «جماعة بغداد للفن الحديث»، وكان لها أن اتسعت لعدد كبير من الأطباء والمهندسين وذوي اختصاصات مهنية أخرى، وكان من بين هؤلاء الهواة الدكتور قتيبة الشيخ نوري.

وإذا كان البعض من هؤلاء قد ترسموا خطى فائق حسن وتقنيته العالية، وإذا كان آخرون قد اكتفوا من أمرهم بصداقاتهم الحميمة للفنانين المحترفين، فإن ثمة آخرين جهدوا لاكتشاف خصوصيتهم عبر توسيع مداركهم لاستيعاب ما يجد من جديد في العالم، وتطوير مسعاهم لما يعزز فرادتهم، وفي مقدمة هذه الفئة قتيبة الشيخ نوري، الذي كان لتآلفه مع «جماعة البعد الواحد» ما عمق من وعيه في الربط ما بين نزوعه التجريدي وتأصيله بمعنى في الحرف العربي وتراثيته، وقد أشار إلى ذلك شاكر حسن وهو أحد المنظرين لهذه الجماعة حيث يقول: «إن التزامه الحضاري في العمل الفني كان وقتئذ ينهل من معين الحرف العربي الذي حاول أن يضمنه رسومه بشكل ينسجم ورؤيته الفنية وأسلوبه التجريدي الهندسي» ويضيف إلى ذلك جميل حمودي قائلاً: «إن الثورة الأسلوبية التي حققها قتيبة الشيخ نوري في فنه إنما

كانت انعكاساً لواقعه الانساني في نفسه. . فقد بدأ هاوياً منذ الخمسينات ثم أصبح محترفاً عبر شخصية محترفة، محاولاً البحث عن فرديته الفنية».

ويحدد قتيبه مسعاه للوصول إلى الفنان الذي يريد أن يكونه من خلال: «إما أن يكون باحثاً مكتشفاً أو باحثاً مخترعاً وبهذين النموذجين من الفنانين تتأكد الهوية الحضارية لها. . أما الآخرون فهم من الحشد السائر في الزحمة بدون مبادرة قيمة ولا مساهمة كبيرة». . وهو الإحساس الذي واكب تطور اسلوبه الفني وعلى الأخص عبر معارضه الأربعة الأخيرة بدءاً من معرضه في عام ١٩٦٩، وانتهاء بمعرضه السادس عام ١٩٧٧.

وقد كانت لسعة قراءاته في العلم والفن والأدب، ما دفع به إلى تعميق الصلة المتكافئة بين جميع ممارساته المهنية والفنية، بحيث جعل من البحث في كل ذلك أساساً لعمله الفني، فربط بين دهاليز الأذن البشرية وتجوله اليومي داخلها كطبيب، والعين ومدلولاتها في الكرة والدائرة والنقطة، وبين استقراءاته الفنية إلى ما انتهى به إلى تحقيق فن ذي وحدة كونية شاملة. . والذي كان أن أضاف إليه بعداً جديد من خلال استخدامه الكاميرا كفرشاة أخرى أتاحت له أن يفتح من خلالها آفاقاً جديدة، فيقول في هذا الشأن: «إن عملي الفوتوغرافي هو اكتشاف المنمنمات والدقائق الصغيرة التي حولنا، والتي لم نتعود أن نوليها أي اهتمام. . ويمثل هذا الإحساس كنت أظهر هذه الأركان الصغيرة لحياتنا وأسلط عليها رؤيتي الفنية الخاصة، فتخرج ساطعة بألوانها وخطوطها وتآليفها الموسيقية الغنية ومثيرة لعين المشاهد، فأفتح له ما لم يسبق أن وعاه من قبل من الأبعاد».

وهكذا تواصلت هذه التجربة مع رسمه بالريشة ومع محاولاته الأخرى في مجال البوستر، وبحيث اجتمعت من حصيلة إيمانه بان للمثلث والمربع والدائرة من أهمية للخداع البصري، ما أكد خصوصية رحلته الفنية، ثم كان أن أوجزت الدائرة مدخلاً فذاً للوصول إلى استيعاب الكون كله من خلالها، «فالحياة دائرة عظيمة ذات محيط لا مرئي مركزها الإنسان. . . والدائرة هي القمر والشمس والكواكب والمجال البصري وحدقات العيون وقنوات السمع وكريات الدم ونويات الحجيرات وقطرات الندى وتلألؤ المياه و الدواليب وأقراص الطب. . والدائرة رمز إنساني لعالم مغلق متقوقع. . . والدائرة كالنفس البشرية حياة محبوسة». . . وقد حاول جاهداً بأن يمدّ بكل هذه المعاني التي اكتشفها فيها، إلى فنه وإلى ما يؤكدها رمزاً كونياً تتآلف في دلالته الرؤية الذهنية والإحساس العاطفي وعبر كل ما يشد حياتنا إليها، وقد كان له من دراساته المستفيضة في هذا المجال ما أمدّنا بقدرة مهمة على استيعاب تجربة هذا الفنان، ومدى خصوصية فرادته.

إلا أن كل هذه المساعي لإدراك نفسه في الفنان المكتشف والفنان المخترع لم تنسه همومه الذاتية ومعاناته في مواجهة واقع بشري واجتماعي وسياسي، وأن ليس لأي محور واحد أن يحدد كل طموحاته، فإذا كان عليه أن يعزز من طموحاته الفنية عبر ما اكتشف في الدائرة والحرف العربي وتعاضل الخطوط والألوان، فإن عليه أيضاً أن يعبر عن همومه الذاتية، وأنه إذ يكتشف بأن لتلك المناخات التجريدية ما يمكن أن يرسم بواسطتها «ابتسامة رقيقة بين كل

هذه الكمية المترسبة من الجزع والتأزم اليومي» يكتشف أيضاً بأن لا مناص لـه من أن يصرخ بأعلى صوته للتعبير عن ذلك الجزع وذلك التأزم اليومي، وحيث تـتزاوج المناخـات العاطفيـة والدلالات الذهنية، وهو مـا وقعنا إليـه في أعمالـه الأخيرة، حيث نـرى الإنسان مشـدوداً إلى الجدار والإنسان محتمياً بالقنـاع، فكان لنـا من الإنسان مـا يعبر بشكـل مأسـوي عن معانـاته العميقـة، وكان من الجـدار والقناع رمـوز ذهنية مفتـوحة عـلى احتـمالات وتفسـيرات واسعـة وعميقة، انطلاقاً من الجدار كحاجز قاس بين الإنسان وطموحاته. أو كمتكأ لجسده المتعب. ومن القناع كرمز لتزوير الذات أو الهروب من الواقع.

كان قتيبه إنساناً رائعاً، وفناناً متميزاً، وكان له كرئيس لجمعية «التشكيليـين العراقيـين» ما عزز مسيرتها وأغناها، وسيظل في تاريخها أحد أعمدتها الثابتة.

١٩٩٣/٢/١١

الفهرست

